المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
كلية العلوم الاجتماعية
قسم التاريخ والحضارة

الأوضاع الأمنية في مكة
وأثرها على الحياة العامة

أثناء التنافس العباسي - العبيدي على الحجاز
(٣٥٨-٥٦٧هـ/٩٩٨-١١٧١م)

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي

إعداد الطالب:

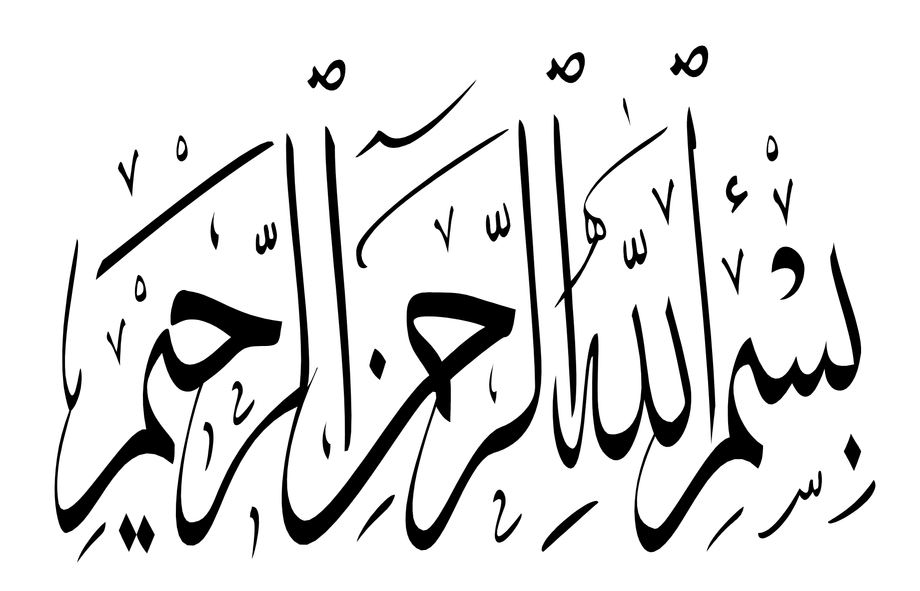
فهد بن عبد الله بن علي الجدعي

إشراف الأستاذ الدكتور

عبد الرحمن بن علي بن محمد السنيدي

أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

العام الجامعي ١٤٢٩ - ١٤٣٠هـ/٢٠٠٨ - ٢٠٠٩م


بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى :

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلۡنَـٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِ ۚ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٍ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِى شَيۡـًٔا وَطَهِّرۡ بَيۡتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَـٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعۡلُومَـٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَـٰمِ ۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ﴿٢٩﴾

سورة الحج ، الآيات ٢٥ ـ ٢٩

المقدمة .

الحمد لله الذي جعل مكة قبلةً للمسلمين تهفو إليها النفوس، وتُشد إليها الرحال من كل أقطار الأرض، فيقدمون إليها ملبين مكبرين وخاشعين متذللين، ليقضوا تفثهم ويوفوا نذورهم ويطوفوا بالبيت العتيق، الذي جعله الله مثابةً للناس وأمنا فقال جل من قائل: وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ (١). أما بعد:

فقد أوجب الله ﷻ احترام البيت، فلا يدخله أحدٌ إلاَّ متواضعاً خاشعاً متذللاً كاشفاً رأسه متجرداً عن لباس الدنيا, كما حرم الله سفك الدماء فيه والاقتتال داخله، والصدَّ عنه ، ومنع الحجاج من المجيء إليه وإقامة شعائر الحج فيه.

ومع هذا فإن تاريخ البيت الحرام قد تعرض عبر تاريخه الطويل للعديد من الفتن والاعتداءات التي طالته وتكررت عليه منذ أقدم العصور ، حيث نجد أناساً يحترمون مكانته ويقدسونه, ثم يأتي من بعدهم أجيالٌ ينسون هذه الحرمة وتلك المكانة، فيعيثون فيه فساداً ويرتكبون فيه ما حرم الله ﷻ.

وقد زاد الإسلام - بعد مجيئه - من مكانة البيت الحرام وجعله قبلةً للمسلمين يتجهون إليه عند كل صلاة مصداقاً لقوله تعالى: وَمِنْ حَيْثُ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٥.

خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ (١).

ولكن النفس البشرية ـ وإن كانت مسلمةً ـ فإنها ميالةٌ للزيّغ . إلا منْ رحم الله . حيث أبت إلا أن تنقص من هذه المكانة وتعتدي على تلك القداسة في كثيرٍ من الأحيان ، وما كان ذلك إلا لتحقيق أغراضٍ ومآرب لا يمكن الوصول إليها إلا من خلال التعرض للبيت الحرام وشعيرة الحج؛ حيث جعلوا من هذا المكان, مجْمعاً يلقون فيه خطاباتهم ويروجون من خلاله لشعاراتهم.

التعريف بالموضوع:

يُعد امتداد نفوذ الدولة العبيدية من شمال أفريقية إلى مصر سنة ٣٥٨هـ/٩٩٨م، ثم تطلعها إلى بسط سلطتها على بلاد الحجاز، سيما بعد أن أعلن أشرافه تبعيتهم لها، إيذاناً بدخول عصرٍ جديدٍ من التنافس السياسي والصراع المذهبي بين العباسيين والعبيديين في مكة، بعد أن أدرك كلٌ من الطرفين أن بلاد الحجاز عامة ومكة على وجه الخصوص تمثل الثقل الديني في العالم الإسلامي، إذ لابد من السيطرة على منبرها لتحقق الدولة بذلك الاستقرار الداخلي والاطمئنان الروحي لشعبها وحكومتها، فتخرج أمام العالم الإسلامي متلبسةً بوشاح القداسة والشرعية، فينظر المسلمون إليها نظرة إكبارٍ وإجلال.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٠.

وقد استمرت هذه الصراعات المتعددة والتسابق بين القوتين من أجل كسب السيطرة على مكة والظفر بها حتى زال الحكم العبيدي من مصر سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م. وقد عانت مكة - في الغالب - الكثير من المشاكل والويلات خلال هذا الصراع، فانعدم الأمن في معظم الأحيان، وكثرت الفتن، وسادت الفوضى، وتفاقمت المشاكل، كما أثّر هذا الصراع بأشكاله المتعددة وأساليبه المتنوعة على جميع مناحي الحياة في مكة طوال الفترة الزمنية التي شهدتها الأحداث ، فكان ذلك مدعاةً لتدخل قوى أخرى، وفرصة لتحقيق بعض الأطماع والمآرب، أو فرض بعض المعتقدات الدينية، أو دخول بعض المؤثرات الاجتماعية .

من جانب أخر فإن الوضع الأمني بحالاته المختلفة في المجتمع أمرٌ يرتبط - سلباً أو إيجاباً - بحياة أفراده ونشاطاتهم، كما يترتب عليه العديد من الآثار المادية والمعنوية والحسية التي قد تسهم في رقي المجتمع وتطوره، أو تؤدي إلى ضعفه وانحطاطه، وذلك بحسب الحالة الأمنية السائدة التي يعيشها هذا المجتمع أو ذاك. وهذا التوجه الذي لم تفطن له الكثير من الدراسات الحديثة التي ألقت الضوء على جوانب عديدة من تاريخنا الإسلامي وحضارتنا العريقة لهو من الأهمية بمكان فيما يتعلق بحياة الشعوب وتقدمها.

ومن هذا المنطلق فقد رأيت أن أربط من خلال منظورٍ تاريخيٍ حضاريٍ في هذه الدراسة بين أهمية الأمن في حياة الإنسان وتاريخ أقدس البقاع التي يهم أمنها واستقرارها جميع أبناء المسلمين، واللذين عليهم أن يستشعروا - أيضاً - ما عليه هذه المقدسات من أمن وطمأنينة، وذلك من خلال موضوع: "**الأوضاع الأمنية في مكة وأثرها على الحياة العامة أثناء**

التنافس العباسي العبيدي على الحجاز ٣٥٨-٥٦٧هـ/٩٩٨-١١٧١م"، والذي يتناول من خلاله ملامح الحالة الأمنية بشكلٍ عام في إمارة مكة خلال هذه الفترة، مع التوسع بعض الشيء في بيان أثر ذلك على الحياة العامة بجوانبها المختلفة؛ سواءً كانت سياسية أو اقتصادية أو دينية أو اجتماعية.

أهمية الموضوع:

لا شك أن المتتبع للحالة الأمنية في مكة والطرق المؤدية إليها خلال النزاع العباسي العبيدي ـ الذي دام أكثر من قرنين من الزمن ـ يدرك دون عناءٍ مدى ما صاحب ذلك من تردي في الأوضاع الأمنية، كما يلحظ الارتباط الوثيق بينها وبين تأثر الكثير من مناحي الحياة المختلفة فيها. فضلاً عن ما لحق المقدسات الإسلامية في مكة والمنشآت المختلفة فيها من أضرارٍ متنوعة خلال هذا الصراع.

ولعل من أبرز الآثار التي تُلمح لها المصادر في الجانب الديني ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ التنافس الشديد على إمارة الحج بين العباسيين والعبيديين ووقوع الكثير من الصدامات أثناء مواسم الحج بين أنصار الطرفين، مما أدى ـ في بعض الأحيان ـ إلى إفساد الحج. كما تفاقمت حدة الاعتداءات على المقدسات ووصل الأمر حدّ الاستهانة بها. وانتشرت الكثير من البدع والخرافات بين أفرد المجتمع المكي بعد أن وجد بعض دعاتها فرصةً لهم لبثها في مكة. كما زاد التنافس بين المذاهب الدينية المتعددة.

ومن جانب أخر فقد تبيّن وجود آثارٍ سياسيةٍ متعددةٍ لذلك الصراع، من ذلك ـ مثلاً ـ تخلخل أمن الطرق بعد أن اتُّخذت مسلكاً للتضييق على الدول

ورعاياها. كما اُستخدمت القبائل القاطنة على الطرق المؤدية للحجاز كأدواتٍ للضغط السياسي من قبل القوتين المتنافستين ، فزاد ذلك من نفوذ تلك القبائل وتواصلت تعدياتها. إضافة إلى ذلك فقد أعطى هذا النزاع الفرصة لبعض القوى للتدخل في شؤون مكة. كما كثرت المشاكل على السلطة بين الأشراف بعد أن تهيأت لهم فرصة الاستقلال في حكم مكة بدعمٍ من العبيديين.

أما فيما يتعلق بالمجال الاقتصادي فبالرغم من انتعاشه في بعض الأحيان خصوصاً في مواسم الحج والعمرة ، إلا أن الأسواق والمراكز التجارية قد تعرضت للعديد من المشاكل التي أدت إلى اندثار بعضها وتأثر البعض الأخر، وفرضت الكثير من المكوس والضرائب على الحجاج والتجار والمجاورين.

وتكمن الآثار في الجانب العلمي في تناقص أعداد المهتمين بالعلم في مكة. وقلة الوافدين من العلماء والطلاب بعد أن أجبرتهم الظروف الأمنية على عدم القدوم لمكة أو البقاء فيها. إضافةً لتقلص أعداد المجاورين من المهتمين بنشر العلم بعد أن فقدوا الأجواء الروحانية المساعدة على مجاورتهم في مكة, وفي المجال الاجتماعي تعرضت مكة لفقد عددٍ من أبنائها الذين خرجوا منها سعياً للبحث عن مكان أكثر أمناً، كما تأثر المجتمع المكي ببعض العادات والتقاليد التي لم يكونوا يعرفونها, إضافة إلى ذلك فقد تأثرت المنشآت الخيرية والعمرانية في مكة والمشاعر المقدسة والطرق المؤدية إليها، فقلّ إقبال الناس من التجار والموسرين على إقامتها ، كما دُمرت بعض المنشآت السابقة بعد التأخر في صيانتها.

خطة الدارسة:

اقتضت طبيعة الدراسة تقسيمها على النحو التالي:

- **التمهيد**: ويتناول ثلاثة موضوعات بصفةٍ مختصرة, جاء الموضوع الأول بعنوان : حرمة مكة وفضائلها, وقد اشتمل هذا الموضوع على عدد من الآيات والأحاديث التي تبين حرمة المساس بقدسية المسجد الحرام والعبث بأمنه, كما تطرق لذكر فضائل مكة وأسمائها مدللاً على ذلك بالنصوص الشرعية, وجاء عنوان الموضوع الثاني : نبذةً جغرافية عن مكة , وتناول فيه موقعها , تضاريسها , مناخها , تخطيطها العمراني , وجاء الموضوع الثالث بعنوان: الأحوال السياسية في مكة قبيل التنافس بين العباسيين والعبيديين عليها, وتناول أبرز الأحداث السياسية التي مرت بها مكة قبيل إعلان الأشراف استقلالهم بها سنة ٣٥٨هـ/٩٦٨م, ومن ذلك التجاذبات السياسية والثورات العلوية التي طالتها وتكررت عليها, وكذلك هجوم القرامطة عليها سنة ٣١٧هـ/٩٢٩م.

- **الفصل الأول**: التنافس بين العباسيين والعبيديين على النفوذ في مكة , وقُسم إلى ثلاثة مباحث :

- **المبحث الأول**: أسباب التنافس بين العبيديين على النفوذ في مكة : ويعرض لأهم الأسباب التي دفعت العباسيين والعبيديين إلى التسابق فيما بينهما من أجل الظفر بالخطبة في مكة ومد النفوذ إليها, وتعددت هذه الأسباب والدوافع, فكان منها الدينية و السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

- **المبحث الثاني**: مراحل التنافس , وجاءت على مرحلتين كانت الغلبة في المرحلة الأولى للعبيديين , حيث تمكنوا من مد نفوذهم إلى مكة وإعلان

اسمهم في الخطبة على منابرها وامتدت هذه المرحلة من سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٨م إلى سنة ٤٦٢هـ/ ١٠٦٩م , وفي المرحلة الثانية استطاع العباسيون مدَّ نفوذهم على مكة وانتزاع الخطبة من العبيديين, وامتدت هذه المرحلة من سنة ٤٦٢هـ/ ١٠٦٩ م إلى ٥٦٧هـ/١١٧١ م

- المبحث الثالث: موقف أمراء مكة من التنافس بين العباسيين والعبيديين على مكة, ويطرق هذا المبحث لأهم المواقف التي اتخذها الأشراف حكام مكة تجاه الدولتين المتنافستين على بلادهم, ومدى تأثرهم بذلك التنافس, حيث تبين من خلال هذا المبحث مستوى التذبذب في ولائهم, وربطه بما يعود عليهم بالمصالح الشخصية .

- **الفصل الثاني**: الأوضاع الأمنية في مكة أثناء التنافس بين العباسيين والعبيديين على النفوذ في الحجاز , وقُسم إلى مبحثين :

- المبحث الأول: الحالة الأمنية في مكة, واشتمل على عرضٍ مفصلٍ لأحداث التنافس بين العباسيين والعبيديين على النفوذ في مكة, ومستوى الحالة الأمنية التي نتجت عن ذلك الصراع.

- المبحث الثاني: الحالة الأمنية في طرق الحج, ويتناول حالة طرق الحج وانشغال الدولتين العباسية والعبيدية عن تأمينها وإقامة المشاريع الإصلاحية فيها, وقد تطرق لأهم الاعتداءات التي تعرض لها الحجاج أثناء سيرهم إلى مكة, وشمل الحديث في ذلك طريق الحج العراقي , وطريق الحج المصري والشامي , وطريق الحج اليمني.

- **الفصل الثالث**: الآثار السياسية والاقتصادية, وقسم إلى مبحثين :

- المبحث الأول: الآثار السياسية , تناول المبحث تأثيرات التنافس وما ولَّده من صراعٍ بين أكبر قوتين في العالم الإسلامي آنذاك على الأوضاع السياسية داخل مكة سواءً فيما يخص سلطة أشراف مكة أو سياستهم الداخلية أو تنظيماتهم الإدارية والعسكرية.

- المبحث الثاني: الآثار الاقتصادية, وتطرق للحديث عن أثر الحالة الأمنية على الأسواق في مكة, والتموين الغذائي لسكانها, كما أشار إلى مدى تأثر التجار المحليين أو الوافدين على مكة بالتنافس بين العباسيين والعبيديين, ومدى تأثير ذلك على نشاطهم التجاري, كما اشتمل المبحث أيضاً الحديث عن الموارد المالية لمكة وحالة معابرها التجارية في تلك الفترة.

- **الفصل الرابع**: الآثار الدينية والاجتماعية, وقُسم إلى مبحثين :

- المبحث الأول: الآثار الدينية , وجاء الحديث فيه يوضح مدى انعكاس الحالة الأمنية لمكة في تلك الفترة على الحج, وكذلك انعكاسها على حرمة المسجد الحرام والكعبة المشرفة , وإمارة الحج , كما تناول الحديث عن دور التردي الأمني في إشعال النزاع الطائفي بين الفرق داخل مكة , وكذلك دوره في تفشي ظاهرة البدع والخرافات عند بعض سكانها.

- المبحث الثاني: الآثار الاجتماعية, ويعرض هذا المبحث لمدى تأثير الحالة الأمنية على التركيبة السكانية للمجتمع المكي, وكذلك تأثر السكان في مكة ببعض العادات والتقاليد الدخيلة على مجتمعهم, والتي انتقلت إليهم من الأقاليم الأخرى خصوصاً إقليمي العراق ومصر , كما تطرق المبحث للحديث عن تأثر المنشآت العمرانية في مكة بالحالة الأمنية المتردية فيها.

- **الخاتمة**, واشتملت على عرضٍ لأهم النتائج التي توصلت لها الدراسة.

- **الملاحق**, احتوت على بعض وثائق المراسلات وجداول توضح أسماء حكام مكة من الأشراف وفترات حكمهم, وكذلك أسماء الخلفاء العباسيين والحكام العبيديين الذين عاصروا فترة الدراسة وفترات حكمهم, كما احتوت أيضاً على بعض الخرائط التوضيحية لإمارة مكة, وطرق الحج في فترة الدراسة.

- **قائمة المصادر والمراجع**, جاء فيها ترتيب المصادر المخطوطة والمطبوعة التي استفادت منها الدراسة, وكذلك المراجع العربية الحديثة, والرسائل العلمية غير المنشورة والأبحاث والمقالات.

الدراسات السابقة:

رغم وجود العديد من الدراسات والأبحاث التاريخية الحديثة التي تناولت بلاد الحجاز عامةً أو مكة بصفةٍ خاصةٍ، وطرقت جوانب من هذا الموضوع, سواءً في جانبه السياسي أو الحضاري، إلا أن الكثير من الباحثين لم يفطنوا إلى مسألة ربط الجانب الحضاري بالحالة الأمنية، ولذا فلم ألحظ - بعد الاطلاع على كثيرٍ من هذه الأبحاث - قيام أصحابها بتتبع تلك التأثيرات المتعددة التي أشير إليها كنتاجٍ واضحٍ للوضع الأمني الذي ساد في مكة خلال الفترة التاريخية المشار إليها، وربما كان ذلك تمشياً مع طبيعة موضوعاتهم ومسايرة لأهدافها. كما أن بعض هذه الدراسات ركزت على جانبٍ واحدٍ، أو فترةٍ معينةٍ فقط، متخذة - في الغالب - من سرد الأحداث وذكر الوقائع وبيان الظواهر أسلوباً لتناول هذه الموضوعات، دون الغوص في أعماقها وأبعادها الأمنية.

ومن هذه الدراسات والأبحاث التي لم تنعدمْ الفائدة منها بطبيعة الحال، خصوصاً فيما يتعلق ببعض التحليلات والآراء والاستنتاجات والأفكار التي تخللتها، ما يلي :

ـ رسالة الماجستير التي قدمها بندر بن محمد رشيد الهمزاني لكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة أم القرى بعنوان: "علاقات مكة المكرمة الخارجية في عهد أسرة الهواشم "، وقسمها الباحث إلى أربعة فصول، يحوي كل فصلٍ عدداً من المباحث، تناول في الفصل الأول قيام أسرة الهواشم بمكة وسياستهم الداخلية ، وتحدث في الفصل الثاني عن علاقة أمراء الهواشم الخارجية بكلٍ من العباسيين والعبيديين والدولة الصليحية باليمن، وجاء الفصل الثالث عن أحوال مكة وعلاقاتها الخارجية بعد نهاية النفوذ العبيدي في الحجاز، ذاكراً موقف أمراء مكة من الدولة الأيوبية، وفي الفصل الرابع تطرق الباحث لأثر العلاقات الخارجية على النواحي العامة بمكة ، وشملت النواحي الاقتصادية والاجتماعية والعلمية.

ـ رسالة الدكتوراه التي قدمها عطية طه إبراهيم بعنوان: "الحياة الاقتصادية والاجتماعية في بلاد الحجاز من القرن الثالث حتى منتصف القرن السادس الهجري"، تقدم بها إلى كلية الآداب، جامعة القاهرة ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، وقسمها الباحث إلى ستة فصول، تناول في الفصل الأول خطط المدن الحجازية وتطورها، وفي الفصل الثاني تحدث عن الإنتاج الزراعي والصناعي في بلاد الحجاز، أما الفصل الثالث فكان عن النشاط التجاري، و خُصص الفصل الرابع للحديث عن النظم المالية في البلاد الحجازية، وفي الفصل الخامس تطرق إلى عناصر السكان بالحجاز كالقبائل العربية والمجاورين والرقيق، وجاء الفصل السادس مُبرزاً الحياة

العامة للسكان في مكة، وتحدث فيه عن العادات والتقاليد التي تأثر بها المكيون.

هذا بالإضافة لدراسات وأبحاث أخرى مفيدة للدراسة تم ذكرها في قائمة المصادر والمراجع.

مصادر الدراسة:

استقتْ الدراسة مادتها العلمية من مصادر متنوعة، منها ما يشتمل على كتب التاريخ العام التي تعرض الأحداث التاريخية مرتبةً على السنين . طريقة الحوليات . ككتاب المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، لأبي الفرج عبدالرحمن بن الجوزي (ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م)، وكتاب الكامل في التاريخ، لأبي الحسن علي بن أبي الكرم المعروف بابن الأثير (ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م)، وكتاب البداية والنهاية، لأبي الفدا الحافظ بن كثير (ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م)، وغالباً ما يرد في ثنايا هذه الكتب معلومات سياسية واقتصادية واجتماعية قيمةٍ تهم الدراسة، خصوصاً تلك التي لها صلة بمكة، كما يرد في هذه المؤلفات القيمة تراجم لبعض الشخصيات المؤثرة في الأحداث التي تناولتها الدارسة.

ومن المصادر التي استفادت منها الدراسة ما خُصص للحديث عن مكة وفضلها وأخبار ولاتها وتراجم أعيانها ومن قدم إليها، والأحداث التاريخية التي مرت بها، وجاء في مقدمتها كتاب شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، وكذلك كتاب العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين لمؤلفهما أبي الطيب محمد بن أحمد الحسني المعروف بتقي الدين الفاسي (ت٨٣٢هـ/١٤٢٩م)، ويتناول هذان المؤلفان النواحي السياسية، والعمرانية ، والدينية ، والثقافية ، والاجتماعية ، لمكة على مدى ثمانية قرونٍ ، مع ذكر فضل الكعبة والمواضع

المباركة في مكة وأخبار ولاتها وتراجم من سكنها أو قدم إليها أو كان له علاقةٌ بها .

وكذلك كتاب إتحاف الورى بأخبار أم القرى للنجم عمر بن فهد القرشي (ت٨٨٥هـ/١٤٨٠م)، والذي عرض فيه الوقائع التاريخية التي مرت بمكة، منذ وقعة الفيل حتى انتهى إلى العصر الذي عاش فيه، مؤرخاً تلك الوقائع على طريقة الحوليات، ويتميز هذا الكتاب بالمعلومات التاريخية القيمة المذكورة فيه, و غالباً ما تكون الأحداث التي يذكرها مختصرة ويسهل الوصول إليها.

وكان لكتاب درر الفرائد المنظمة في أخبار الحج وطريق مكة المعظمة لمؤلفه عبد القادر بن محمد الجزيري (ت حوالي٩٧٧هـ/١٨٧٨م)، دورٌ في تزويد الدراسة بالمعلومات القيمة, حيث تناول هذا المؤلف في كتابه شروط إمرة الحج وواجباتها، مع ذكر أمراء الحج والأحداث المتعلقة بهم، كما أمدَّ الدراسة بمعلوماتٍ وافيةٍ عن أحداث طرق الحج والمصاعب التي واجهها الحجاج, وجاء هذا الكتاب بالنسبة لأحداث طرق الحج مرتباً على طريقة الحوليات .

واستفادت الدراسة من المصادر التي تعنى بذكر أخبار مصر, والأحداث التاريخية التي مرت بها, وذكر أخبار حكامها من العبيديين, وعلاقاتهم بالقوى الأخرى من حولهم, ومن أهمها كتاب اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء لتقي الدين أحمد بن علي المقريزي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م), وقد أرخ المقريزي في كتابه لقيام الدولة العبيدية في المغرب, وترجم لحكامها الأوائل ثم تحدث بعد ذلك عن دخول العبيديين لمصر وتأسيس القاهرة, وتناول الحديث عن التنافس بين العباسيين والعبيديين على

الخطبة في الحجاز, وموقف أمراء الهواشم من ذلك, كما شمل حديثه أهمَّ النفقات والأعطيات التي كان الحكام العبيديون يبعثونها إلى بلاد الحجاز.

كما لم تعدم الفائدة من كتاب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لأبي المحاسن يوسف بن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ/١٤٧٠م), حيث يعد هذا الكتاب من أهم المصادر التاريخية التي تناولت أخبار القاهرة, وما جرى فيها من أحداث سياسية واقتصادية واجتماعية , كما حوى معلومات قيمة عن أخبار حكام مصر من العبيديين وطريقة إدارتهم للبلاد وعلاقتهم بالعباسيين وأشراف الحجاز.

ولم تقتصر المادة العلمية لهذه الدراسة على الكتب التاريخية , بل كان لكتب الرحالة العرب وغيرهم دورٌ في إثراء جوانبها خصوصاً الرحالة الذين زاروا بلاد الحجاز, ويأتي في مقدمة هذه المصادر كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم لمؤلفه محمد بن أحمد المقدسي (ت ٣٨٠هـ/٩٩٠م), ويعد هذا الكتاب من أبرز كتب الرحلات, حيث أمضى المقدسي حوالي عشرين سنة يتجول في البلدان ويسجل مشاهداته , وقد زار مكة مرتين وجاور فيها مدة, ووصف الطرق المؤدية إليها وتحدث عن أسواقها وأحوال الناس فيها .

وكذلك كتاب سفر نامة ـ رحلة ناصر خسرو ـ (ت ٤٨١هـ/١٠٨٨م), الذي زار مكة حاجاً أربع مراتٍ وجاور فيها لمدة ستة أشهرٍ, ووصف مكة وصفاً دقيقاً, وتطرق في حديثه عنها إلى الجوانب الاقتصادية والاجتماعية فيها , كما أشار إلى الصلات والأعطيات التي كان يرسلها الحكام العبيديون لأشراف مكة.

ويعد كتابيّ المقدسي و ناصر خسرو من أهم المصادر التي أثْرَتْ الدارسة, حيث اُعتبر ما سطراه من معلوماتٍ شاهد عيانٍ على ما كان يجري بمكة من أحداث في الفترة التي تناولتها الدارسة.

ولم تخل الدراسة من الاستزادة من بعض كتب المعاجم بأنواعها وكتب البلدان والتراجم و كتب الجغرافية, وذلك لتعريف الأماكن والأسماء المجهولة لدى البعض والواردة في ثنايا البحث.

وجاءت بعض المراجع العربية الحديثة لتغطي جوانب ضروريةٍ في الدراسة من تحليلٍ للمعلوماتٍ والاستفادة من بعض آراء الباحثين, واستعانت الدراسة في هذا الجانب بعدة مؤلفاتٍ أهمها ما خصص للحديث عن تاريخ مكة ككتاب تاريخ مكة لأحمد السباعي, حيث يتناول هذا الكتاب تاريخ مكة من جميع النواحي السياسية، والعلمية، والدينية، والاجتماعية، والعمرانية. كما كان لكتاب "مكة وعلاقاتها الخارجية (٣٠١ ـ ٤٨٧هـ) لأحمد بن عمر الزيلعي أهمية كبرى في إثراء الدراسة ، لما يحويه من معلومات قيمة عن علاقة مكة بكل من العباسيين والعبيديين ، وقد تميز هذا الكتاب بالتحليل المنطقي والطرح الهادف .

وكان لكتاب العلاقات بين مصر والحجاز زمن العبيديين والأيوبيين لصبحي عبد المنعم محمد دورٌ في تزويد الدراسة بآراء واستنتاجات مفيدة , خاصة بما يتعلق بمراحل العلاقات الحجازية المصرية, وفترات قوتها وضعفها.

ومن المراجع التي أفادت الدارسة ـ أيضاً ـ كتاب تنظيمات الحج وتأثيراته في الجزيرة العربية خلال العصر العباسي لخالد بن عزام الخالدي, ويتناول هذا الكتاب تنظيمات الحج وتعريف إمرة الحج وتقسيماتها, كما يتناول

الحديث عن طرق الحج ومشاريع تطويرها وإدارتها والعوامل المعوقة لقوافل الحج.

ومن أبرز الصعوبات التي واجهتني أثناء إعدادِ هذه الدارسة, طول الفترة الزمنية للدراسة ـ الإطار الزمني ـ والتبدل السريع للأحوال السياسية سواءً بالعراق أو مصر, مما جعل الأحداث الجارية بمكة في تلك الفترة تأخذ طابع التسارع والتداخل فيما بينها, وكذلك قلة المعلومات الأمنية المتعلقة بتداعيات تلك الأحداث, ومن الصعوبات أيضاً ندرة المعلومات المتعلقة بطرق الحج المصرية والشامية واليمنية والأحداث الأمنية التي جرت عليها مقارنةً بالمعلومات المدونة عن طرق الحج العراقية.

وفي نهاية المطاف لا يسعني إلا أن أقدم جزيل الشكر والعرفان لأستاذي المشرف على هذا البحث الأستاذ الدكتور عبد الرحمن بن علي السنيدي الذي قدم لي الشيء الكثير من وقته وعلمه منذ اللحظة الأولى لمراحل تسجيل الموضوع حتى وصل إلى ما هو عليه الآن، وكان طوال تعايشي مع هذه الدراسة يحفز ويشجع ويتابع بدقةٍ وتواصلٍ، فله مني وافر الشكر وعظيم الامتنان، وأسال الله العلي القدير أن يجزل له المثوبة، ويبارك له في عمره ووقته. كما لا أنسى أفضال أستاذي القدير الأستاذ الدكتور عبدالعزيز بن راشد السنيدي رئيس قسم التاريخ بجامعة القصيم، ذلك الرجل السخي الذي أغرقني بعلمه ودعمه، وكان وراء هذا الموضوع منذ أن قدمه لي كفكرة، متابعاً وموجهاً وناصحاً، وموفراً لي ولزملائي المعيدين في القسم سبل الراحة والجو العلمي الذي يساعدنا على تجاوز هذه المرحلة, فله مني عظيم الدعاء بدوام السداد والتوفيق,

كما أتقدم بجزيل الشكر والعرفان للأستاذين الفاضلين الأستاذ الدكتور إبراهيم بن محمد المزيني والأستاذ الدكتور محمد بن ناصر الملحم على تفضلهما بقبول مناقشة هذه الرسالة ، رغم مشاغلهما المتعددة ، ولا شك أن ما سوف يتحفاني به من توجيهات وملاحظات قيمة سيكون لها المردود الإيجابي على هذا العمل .

والشكر موصولٌ لأساتذتي في قسم التاريخ والحضارة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وأساتذتي في قسم التاريخ بجامعة القصيم على جل المساعدة المقدمة منهم لي خلال هذه المرحلة, ولا أنسى تقديم الشكر والتقدير لسعادة الدكتور محسن بن عبد الرحمن المحسن عميد كلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية على ما يبذله لتهيئة الأجواء المناسبة لنا لمواصلة مسيرتنا العلمية أنا وزملائي المعيدين في الكلية. كما أتقدم بالشكر لكل من قدم لي مساعدة أو نصيحة أو توجيه.

وفي الختام أحمد الله على إنجاز هذا العمل، وأساله التوفيق والسداد، والعفو عن الزلل والخلل، إنه سميعٌ مجيب. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الباحث

التمهيـــد

- حرمة مكة وفضائلها .
- نبذة جغرافية عن مكة .
- الأحوال السياسية في مكة قبيل التنافس بين العباسيين والعبيديين عليها .

حرمة مكة وفضائلها .

اختار الله مكة مكاناً للبيت الحرام الذي يتجه إليه المسلمون في عبادتهم، ويأمونه في صلاتهم، ويحجون إليه من استطاع منهم إلى ذلك سبيلاً، فاكتسبت بذلك مكانة عالية وتشريفاً إلاهياً خصه الله سبحانه وتعالى بها دون سائر البلاد . كما ضاعف فيها الحسنات، وحقن دماء كل من يدخل إلى حرمها من ذوات الأرواح، فضلاً عن الحفاظ على بيئتها وما تحويه.

وورد لفظ الحرم في الكتاب والسنة، فإذا جاء مطلقاً بلفظ الحرم فالمراد فيه حرم مكة [١] . وعلى هذا الحرم يطلق أيضاً لفظ المحرَّم [٢] .

وحرم مكة هو ما أحاط بها من جوانبها المختلفة [٣]، وقد جعل الله ما تضم هذه الحدود داخلاً في الحكم مثل الحرم في الحرمة تشريفاً لها [٤] .

وحددت منطقة الحرم منذ عهد الخليل إبراهيم عليه السلام ، وضربت على حدوده منارات قديمة كانت قريش تعرفها في الجاهلية ، فما كان دون المنار إلى مكة من الحرم وما وراءها ليس منه . ولما بعث الله عز وجل محمداً صلى الله عليه وسلم أقر قريشا على ما عرفوه من ذلك وكتب إليهم : "أن

---

(١) ابن فارس، مجمل اللغة . تحقيق، زهير سلطان، بيروت : ط٢، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ج١، ص٢٢٨ ؛ ابن منظور، لسان العرب . بيروت : ط١، دار صادر، (د.ت)، ج١٢، ص١٢٢ ؛ الفيروزآبادي، القاموس المحيط . بيروت : مؤسسة الرسالة، ص١٤١١ .

(٢) الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص١٤١١ .

(٣) الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية . بيروت : دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص١٨٥ ؛ النووي، تهذيب الأسماء واللغات . بيروت : ط١، دار الفكر ١٩٩٦م، ج٣، ص٧٨ .

(٤) النووي، تهذيب الأسماء واللغات، ج٣، ص٧٨ .

قروا على مشاعركم فإنكم على إرث من إرث إبراهيم فما كان دون المنار فهو حرم لا يُحل صيده ولا يُقطع شجره وما كان وراء المنار فهو من الحل يُحل صيده إذا لم يكن صائده محرماً" [١].

من جانب آخر فقد أجمع عددٌ كبير من العلماء على حرمة مكة، وأكدوا ذلك، مستندين في ذلك على الأدلة الواضحة مما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة [٢].

وحرمة مكة وفق حدودها الثابتة بالمنار المضروبة عليها حرمة مؤكدة في الكتاب والسنة وإجماع العلماء، حيث عُظِّمت حرمتها بعد الإسلام، وارتفعت مكانتها بما نزل من آيات في كتاب الله تؤكد ذلك، وبما بينه المصطفى صلى الله عليه وسلم وشرعه من تعظيم لهذا المكان، فزادت الكعبة تعظيماً، ومكة حرمة وتبجيلاً في النفوس[٣].

وقد أشار ابن كثير إلى ثبوت حرمة حرم مكة في الأحاديث النبوية، فقال[٤]: "وقد ثبت في الصحاح والحسان والمسانيد من طرق جماعة تفيد القطع". ومن الأحاديث النبوية الدالة على حرمة مكة قول المصطفى صلى الله عليه وسلم: "إن الله حرم مكة ولم يحرمها الناس فلا يحل لمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً ولا يعضد بها شجراً فإن ارتخص أحد

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، ج١٢، ص١٢٢ .

(٢) عبد العزيز محمد الحويطان، أحكام الحرم المكي الشرعية . الرياض : ط١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ص٤٨ .

(٣) خليل إبراهيم ملا خاطر، مكانة الحرمين الشريفين عند المسلمين . جدة : ط١، دار القبلة للثقافة الإسلامية، دمشق : مؤسسة علوم القرآن، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، ص١٨ .

(٤) تفسير القرآن العظيم . بيروت : دار الفكر، ١٤٠١هـ، ج٣، ص٣٧٩ .

فقال أحلت لرسول الله فإن الله أحلها لي ولم يحلها للناس وإنما أحلت لي ساعة من النهار ثم هي حرام كحرمتها بالأمس" [١].

وعن ابن عباس أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة: إن هذا البلد حرام، حرّمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وما أحُل لأحد فيه القتل غيري، ولا تحل لأحدٍ بعدي فيه حتى تقوم الساعة، وما أحُلَّ لي منه إلا ساعة من نهار، فهو حُرْمة الله عز وجل إلى أن تقوم الساعة، لا يعضد شوكه، ولا يختلا خلاه، ولا ينفر صيده، ولا يلتقط لقطته، إلا لمعرف، قال: فقال العباس وكان من أهل البلد قد علم الذي لا بد لهم منه إلا الإذخر يا رسول الله فإنه لا بد لهم منه، فإنه للقبور والبيوت، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إلا الإذخر[٢].

ومما جاء أيضاً في تحريم مكة ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن إبراهيم حرم مكة، ودعى لها، وحرمت المدينة كما حرّم إبراهيم مكة ودعوت لها في مُدِّها وصاعها مثل ما دعى إبراهيم عليه السلام لمكة"[٣].

---

(١) الشافعي، مسند الإمام الشافعي . بيروت : دار الكتب العلمية، (د . ت)، ج١، ص٢٠٠ .

(٢) ابن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل . مصر : مؤسسة قرطبة، (د . ت)، ج١، ص٢٥٩ .

(٣) البخاري، صحيح البخاري . تحقيق، مصطفى ديب البغا، بيروت : ط٣، دار ابن كثير، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ج٢، ص٧٤٩ . قال ابن كثير حول عدم وجود تعارض بين تحريم مكة يوم خلق السموات والأرض وبين تحريم إبراهيم عليه السلام لها : (فلا منافاة بين هذه الأحاديث الدالة على أن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض وبين الأحاديث الدالة على أن إبراهيم عليه السلام حرمها لأن إبراهيم بلغ عن الله حكمه فيها وتحريمه إياها وأنها لم تزل بلدا حراما عند الله قبل بناء إبراهيم عليه السلام لها كما أنه قد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مكتوبا عند الله خاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته ومع هذا قال إبراهيم عليه السلام "ربنا وابعث فيهم رسولا منهم" الآية وقد أجاب الله دعاءه بما سبق في علمه وقدره ولهذا جاء في الحديث أنهم قالوا يا رسول الله أخبرنا عن بدء أمرك فقال دعوة أبي إبراهيم عليه السلام وبشرى عيسى بن مريم ورأت أمي كأنه خرج منها نور أضاء له قصور الشام . (تفسير القرآن العظيم، ج١، ص١٧٥)

ومما أكرم الله عز وجل به مكة تحريمها على الدجال فلا يدخل إليها، وقد روى البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ليس بلد إلا سيطؤه الدجال إلا مكة والمدينة، ليس من نقابها نقب إلا عليه الملائكة صافين يحرسونها، ثم ترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات فيخرج الله كل كافر ومنافق" (١).

من جانب أخر فقد حرم الله الإلحاد في حرم مكة، وتوعد من أقدم على ذلك بالخزي والعذاب الأليم، قال تعالى: إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ (٢). وقد أكّد المصطفى صلى الله عليه وسلم تحريم الإلحاد في الحرم وأن فاعله من أبغض الناس عند الله تعالى، فقال صلى الله عليه وسلم: "أبغض الناس إلى الله ثلاثة: ملحد في الحرم، ومبتغ في الإسلام سنة الجاهلية، ومطلب دم امرئ بغير حق ليهريق دمه" (٣).

كما حرم الله سبحانه وتعالى القتال وسفك الدماء في مكة، فضلاً عن مضايقة قاطنيها أو الاعتداء عليهم، قال تعالى: وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ (٤). وقال تبارك

---

(١) صحيح البخاري، ج٢، ص٦٦٥ .

(٢) سورة الحج، الآية ٢٥ .

(٣) البخاري، صحيح البخاري، ج٦، ص٢٥٢٣ .

(٤) سورة البقرة، الآية ١٢٥ .

وتعالى: أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَكۡفُرُونَ ﴿٦٧﴾ [١]. **وقد روى جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن الرسول صلى الله عليه وسلم نهى عن حمل السلاح لغير ضرورة في مكة[٢]. وقال القرطبي حول أمن مكة وحرمتها [٣]: "أنها لم تزل حرما من الجبابرة المسلطين ومن الخسوف والزلازل وسائر المُثلات التي تحل بالبلاد وجعل في النفوس المتمردة من تعظيمها والهيبة لها ما صار به أهلها متميزين بالأمن من غيرهم من أهل القرى".**

وحيث أن البلد الحرام طاهر ومقدس فقد أمر الله سبحانه وتعالى بمنع الكفار والمشركين من الدخول فيه، يقول الحق تبارك وتعالى: يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٢٨﴾[٤]. **قال ابن كثير [٥]: "أمر تعالى عباده المؤمنين الطاهرين ديناً وذاتاً بنفي المشركين الذين هم نجس دينا عن المسجد الحرام وأن لا يقربوه بعد نزول هذه الآية وكان نزولها في سنة تسع ولهذا بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا صحبة أبي بكر رضي الله عنهما عامئذ وأمره أن ينادي في المشركين أن لا يحج بعد هذا العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان فأتم**

---

(١) سورة العنكبوت، الآية ٦٧ .

(٢) مسلم، صحيح مسلم . تحقيق، محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت : دار إحياء التراث العربي، ج٢، ص٩٨٩ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ج٢، ص١١٧ .

(٤) سورة التوبة، الآية ٢٨ .

(٥) تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص٣٤٧ .

الله ذلك وحكم به شرعاً وقدراً". وقد استدل العلماء بهذه الآية أن المقصود بالمسجد الحرام الحرم كله وليس المبني حول الكعبة، وأن مضاعفة الصلاة أيضا في الحرم وليس المسجد فقط [1].

ومكة أحب بلاد الله إليه فقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال مخاطباً مكة: "إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أُخْرِجت منك ما خرجت" [2].

ولفضل مكة وعلو منزلتها فقد أقسم الله تعالى بها في كتابه في عدد من الآيات الكريمة، فقال تعالى: وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾ **[3]. والقسم بالشيء دلالة على عظمة المقسم به، وبيان لعلو منزلته وإيضاح لمكانته عند الله سبحانه وتعالى، فـ "التعبير بهذه الصيغة يدل على عظيم شأن البلد الحرام، فقد عظمه الله حين أقسم به، وفي ضمن القسم أشار إليه باسم الإشارة (هذا) الذي يدل على قرب مكانته عند الله ـ عز وجل ـ ثم وصفه بـ (الأمين). وهو فعيل بمعنى فاعل: أي آمن" [4]. كما أقسم الله بمكة أيضاً فقال تعالى:** لَآ أُقْسِمُ بِهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾ **[5].**

---

(١) كلية الدعوة وأصول الدين (جامعة أم القرى)، البلد الحرام فضائل وأحكام، ص٣٩ .

(٢) ابن ماجة، سنن ابن ماجة . تحقيق، محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت : دار الفكر، ج٢، ص١٠٣٧ ؛ الدارمي، سنن الدارمي . تحقيق، فواز أحمد زمرلي , خالد السبع العلمي، بيروت: ط١، دار الكتاب العربي، ١٤٠٧هـ، ج٢، ص٣١١ .

(٣) سورة التين، الآية ١ ـ ٣ .

(٤) كلية الدعوة وأصول الدين (جامعة أم القرى)، البلد الحرام فضائل وأحكام . مكة المكرمة : ط١، جامعة أم القرى، ١٤٢٤هـ، ص٢٤ .

(٥) سورة البلد، الآية ١ ـ ٢ .

ولقد حبا الله مكة بفضائل عظيمة وأحكام شرعية اختصت بها وميزتها عن غيرها لتكون أفضل بقعة على وجه الأرض، ففيها البيت الحرام الذي بناه إبراهيم بمساعدة ابنه إسماعيل عليهما السلام، حيث يقول سبحانه وتعالى: وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ [١]. والذي قال عنه الحق تبارك وتعالى ذاكراً دعاء إبراهيم عليه السلام: رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ [٢].

ولما كانت مكة وادياً لا زرع فيه ولا ماء، وليس فيه من المقومات ما يغري بسكنه كما جاء في الآية السابقة، طلب إبراهيم ربه بأن يجعل هذا المكان مهوى لأفئدة الناس، بعد أن يرزقهم من الثمرات الكافية لشكرهم، قال القرطبي[٣]: "فاستجاب الله دعاءه، وأنبت لهم بالطائف سائر الأشجار، وبما يجلب إليهم من الأمصار". ومصداق جلب الثمرات والرزق الذي يجبى إلى مكة من كل مكان قول الحق تبارك وتعالى: وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ [٤]. قال ابن كثير معلقاً على

(١) سورة البقرة، الآية ١٢٧ .

(٢) سورة إبراهيم، الآية ٣٧ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ج٩، ص٣٧٣ .

(٤) سورة القصص، الآية ٥٧ .

ذلك[1]: "وهذا من لطفه تعالى ورحمته وبركته أنه ليس في البلد الحرام مكة شجرة مثمرة وهي تجبى إليها ثمرات ما حولها استجابة لدعاء الخليل عليه السلام".

كما دعى إبراهيم ربه أن يبعث في أهل مكة رسولاً منهم، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩﴾[2].

ومن المزايا العظيمة التي ميّز الله بها الله سبحانه وتعالى البيت الحرام أن جعله أول بيت وضع للعبادة على وجه الأرض، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩٦﴾[3]. كما جاء عن أَبَي ذَرٍّ رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله أي مسجد وضع في الأرض أول ، قال: المسجد الحرام قال قلت ثُم أي قال المسجد الأقصى قلت كم كان بينهما قال أربعون سنة ثم أينما أدركتك الصلاة بعد فصله فإن الفضل فيه[4].

كما شرف الله البيت الحرام وعظمه بإضافته إليه، فقال تعالى: ﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ٢٦﴾[5]، قال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي[6]: "وأضاف الباري البيت إليه لفوائد منها: أن ذلك يقتضي شدة اهتمام إبراهيم

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص٥٤٢ .

(٢) سورة البقرة، الآية ١٢٩ .

(٣) سورة آل عمران، الآية ٩٦ .

(٤) البخاري، صحيح البخاري، ج٣، ص١٢٣١ .

(٥) سورة الحج، الآية ٢٦ .

(٦) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان . قدم له، محمد بن عثيمين . بيروت : مؤسسة الرسالة، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ج١، ص٦٦ .

وإسماعيل بتطهيره لكونه بيت الله فيبذلان جهدهما ويستغرقان وسعهما في ذلك. ومنها: أن الإضافة تقتضي التشريف والإكرام ففي ضمنها أمر عباده بتعظيمه وتكريمه. ومنها: أن هذه الإضافة هي السبب الجاذب للقلوب إليه".

وأضفى الله سبحانه وتعالى لأهل مكة ميزة ليست لأحد غيرهم فهم أهل الله عز وجل ويدل على ذلك ما روي عن عبد الله بن أبي مليكة[1] أنه قال: أن النبي قال لقد رأيت أسيداً في الجنة وأنى يدخل أسيد الجنة فعرض له عتاب بن أسيد [2] فقال هذا الذي رأيت ادعوه لي فدعا فاستعمله يومئذ على مكة ثم قال لعتاب أتدري على من استعملتك، استعملتك على أهل الله فاستوص بهم خيرا يقولها ثلاثاً" [3]. وقال ابن أبي مليكة: كان أهل مكة فيما مضى يلقون، فيقال: يا أهل الله، وهذا من أهل الله" [4].

ومن مزايا البيت الحرام انجذاب القلوب إليه واشتياق الأرواح له ورغبتها في تكرار التردد إليه، قال تعالى: وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ

---

(١) وهو عبد الله بن عبيد الله بن أبي مُلَيْكَة التيمي، أحد العلماء التابعين الحفاظ في مكة، روى عن ابن عباس وعائشة وعبد الله بن عمر وغيرهم، وكان ثقة كثير الحديث، فقيها، حجة، تولى قضاء مكة والطائف في عهد عبد الله بن الزبير . وتوفي بمكة سنة ١١٧هـ /٧٣٥ . (ابن حبان، مشاهير علماء الأمصار . عُني بتصحيحه م . فلايشهمر، دار الكتب العلمية، بيروت، (د، ت)، ص٨٣ ؛ الذهبي، تذكرة الحفاظ . دار الكتب العلمية، بيروت، (د، ت)، ج ١، ص١٠١- ١٠٢).

(٢) عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس القرشي . ولاه الرسول صلى الله عليه وسلم مكة بعد فتحها في السنة الثامنة، واستمر في ولايتها حتى وفاته سنة ١٣هـ . (ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة ، بيروت : دار الفكر ، (د . ت) ، ص٣ ، ٤٥٢) .

(٣) الأزرقي، أخبار مكة، ج١، ص١٥١ .

(٤) ابن الجوزي، مثير العزم الساكن، ج١، ص٣٣٥ .

وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ [1]، وقد جعله الله بذلك مرجعاً للناس لا يرون غليلهم منه، فما أن يفارقونه حتى يتوقون للرجوع إليه مرة أخرى[2]. قال ابن قيم الجوزية [3]: "وقد ظهر سر هذا التفضيل والاختصاص في انجذاب الأفئدة وهوى القلوب وانعطافها ومحبتها لهذا البلد الأمين فجذبه للقلوب أعظم من جذب المغناطيس للحديد".

كما ضاعف الله سبحانه وتعالى الصلاة في البيت الحرام فجعلها بمائة ألف صلاة، فقد روي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال: صلاة في مسجدي أفضل من ألف صلاة فيما سواه ، إلا المسجد الحرام ، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة فيما سواه[4]. ورغم أن أهل العلم اختلفوا، فمن مخصص هذه المضاعفة بالمسجد المحيط بالكعبة فقط، ومن معمم هذا الفضل في الحرم كله، إلا أن كثيراً من العلماء رجحوا الرأي الأخير معتبرين أن الحرم كله مسجد [5].

إضافة إلى ذلك فقد فضل الله سبحانه مكة فجعل المسجد الحرام ضمن ثلاثة مساجد معظمة الشأن ومشرَّفة، تشد إليها الرحال بنية العبادة والتقرب إليه [6]، فقد روى البخاري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٢٥ .

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٢، ص١١٠ .

(٣) زاد المعاد في هدي خير العباد . تحقيق، شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط . بيروت: ط١٤، مؤسسة الرسالة، الكويت : مكتبة المنار الإسلامية، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م، ج١، ص٥١ .

(٤) ابن ماجة، سنن ابن ماجة، ج١، ص٤٥١ .

(٥) كلية الدعوة وأصول الدين (جامعة أم القرى)، البلد الحرام فضائل وأحكام، ص٣٠ .

(٦) خليل إبراهيم ملا خاطر، مكانة الحرمين الشريفين عند المسلمين، ص٥٩ ـ ٦٠ .

وسلم أنه قال: "لا تشد الرحال إلا لثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا ، ومسجد الأقصى"[1].

وتعددت أسماء مكة ، فمنها : بكة، وأم القرى، والقرية، والبلد، والبلدة، ومعاد، والوادي، والنساسة، والناسة، وكوثى، والحرم، وبرّة، والمسجد الحرام، ومعطش، والعذراء، والسلام، والبلد الأمين والبيت العتيق، وأم روح، وأم رُحم، وغيرها[2]. وقد ذكرت بعض المصادر لها ما يربوا على ثلاثين اسما [3].

ومن الأدلة على ذلك قول الحق تبارك وتعالى: وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾[4]. وقوله تعالى: فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾[5].

---

(١) صحيح البخاري، ج١، ص٣٩٨ .

(٢) الأزرقي، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار . تحقيق، رشدي الصالح ملحس، بيروت : دار الأندلس، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، ج١، ص٢٨٢ ؛ الفاكهي، أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه. تحقيق، عبد الملك بن دهيش، بيروت : ط٢، دار خضر، ١٤١٤هـ، ج٢، ص٢٨٠ ـ ٢٨١ ؛ ابن الجوزي، مثير العزم الساكن إلى أشرف الأماكن . تحقيق، مرزوق علي إبراهيم، الرياض : ط١، دار الراية، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، ج١، ص٣٢٣ ؛ الإسفراييني، زبدة الأعمال . مكة المكرمة : ط١، مكتبة نزار مصطفى الباز، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ص٣٩ ـ ٤١ ؛ الفاسي، شفاء الغرام، ج١، ص٧٥ ـ ٧٦؛ السنجاري، منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم . تحقيق، جميل عبد الله المصري وآخرون. ط١، مركز إحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ج١، ص٢١٣ ـ ٢١٤ . ولمزيد من المعلومات حول معاني الأسماء التي أطلقت على مكة، انظر ؛ الفاسي، شفاء الغرام، ج١، ص٧٧ ـ ٨٤ .

(٣) الفاسي، شفاء الغرام، ج١، ص٧٥ ـ ٧٦ ؛ السنجاري، منائح الكرم، ج١، ص٢١٤ .

(٤) سورة إبراهيم، الآية ٣٥ .

(٥) سورة قريش، الآية ٢ ـ ٣ .

وقوله: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩١﴾[1]. وقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧﴾[2].

ويدل هذا التعدد في الأسماء إلى علو مكانتها وشرفها فقد وردت في كتاب الله وفي سنة رسوله صلى الله عليه وسلم لها أسماء كثيرة، وقد أكد الإمام النووي أن كثرة الأسماء تدل على عظم المسمى وشرفه، فقال [3]: "اعلم أن كثرة الأسماء تدل على عظم المسمى، كما في أسماء الله وأسماء رسوله صلى الله عليه وسلم، ولا يعرف بلد من البلاد أكثر أسماء من مكة والمدينة، لكونهما أشرف الأرض".

---

(١) سورة القصص، الآية ٩١ .

(٢) سورة القصص، الآية ٥٧ .

(٣) الإيضاح في مناسك الحج والعمرة . مكة المكرمة : ط٤، مكتبة أنس بن مالك، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، ص٤٣٧ .

نبذة جغرافية عن مكة.

وصف الرحالة العرب مكة بأنها بلدة قديمة تقع بين جبال عظام في واد منبسط من أودية جبال السروات ، وتشرق الشمس عليها من جبل أبي قبيس الواقع في الجنوب الشرقي من المسجد الحرام ، كما وصفوها بأنها بلدة معمورة ، مقصودة من جميع أنحاء الأرض [١].

ويمكن تحديد مكة جغرافياً ضمن المنطقة الغربية من الجزيرة العربية ، أي داخل النطاق المعروف حالياً بالدرع العربي ، وبتحديد أدق فهي تقع على السفوح الدنيا لجبال السروات ، بحيث تمثل نقطة التقاء بين تهامة وتلك الجبال . وتبعد عن مدينة جدة الساحلية بنحو (٧٥) كيلو متر [٢].

أما فلكياً فتقع مكة على دائرة عرض ٩١ ، ٥٢ ، ١٢ شمالاً ، وعلى خط طول ٤٦ ، ٤٩ ، ٣٩ شرقاً . ويبلغ ارتفاعها عن سطح البحر ما بين ٢٨٠ إلى ٣٠٠ متر تقريباً [٣].

---

(١) اليعقوبي ، البلدان ، تحقيق ، محمد أمين ضناوي . بيروت : ط١ ، دار الكتب العلمية ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م ، ١٥٣ ؛ الإدريسي، نزهة المشتاق في أختراق الآفاق . القاهرة : مكتبة الثقافة الدينية، (د، ت)، ج١، ص١٣٥؛ ياقوت الحموي ، معجم البلدان، بيروت : دار صادر ودار بيروت، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ج٥ ، ص٨.

(٢) عبد الله بن صالح الرقيبة ، الحج إلى مكة المكرمة : دراسة جغرافية لمنطقة الحج وأعداد الحجاج. (رسالة ماجستير) ، كلية العلوم الاجتماعية ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ١٤٠٥هـ ، ص٧ ، ١٢ ؛ سليمان بن صالح القرعاوي ، مكة المكرمة : إعجاز موقعها ، وحرمتها ، ومنزلتها ، وتوسعتها. المجلة العلمية لجامعة الملك فيصل ، عدد خاص بمناسبة اختيار مكة المكرمة عاصمة للثقافة الإسلامية ، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م ، ص٤ .

(٣) سليمان بن صالح القرعاوي ، مكة المكرمة : إعجاز موقعها ، وحرمتها ، ومنزلتها ، وتوسعتها، ص٤ ؛ ناصر بن علي الحارثي ، الآثار الإسلامية في مكة المكرمة . الرياض : ط١ ، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م ، ص١٨ - ١٩.

ويعود التكوين الجيولوجي لمنطقة الحجاز عموماً ـ بما فيها مكة ـ إلى مرحلة زمنية جيولوجية قديمة ، فصخورها تعود إلى زمن التكوينات الأركية التي تتميز بالصلابة ومقاومتها لعوامل التعرية . وتتشكل تضاريسها من جبال وتلال مختلفة الأشكال ، ومتفاوتة الارتفاع ، وتتسم بعض قممها بالأشكال الحادة . ويتخلل تلك الجبال بعض الوديان الفسيحة والعميقة ، تغطيها ترسبات الحصى والرمل . ومعظم هذه الأودية التي تتشكل منها مكة تتبع في تكوينها حركات الصدوع والانكسارات التي مرّت بمنطقة الدرع العربي خلال الأزمنة الجيولوجية القديمة [١].

وقد استفادت مكة من هذا الموقع الفريد والمتميز في تجارتها البحرية والبرية على حد سواء ، فقربها من ساحل البحر الأحمر ، وتحديداً ميناء جدة ، سهل على التجار القادمين عن طريق البحر سرعة الوصول إليها ، حيث تنتهي تلك المراكب المحملة بأنواع البضائع والسلع إلى أسواقها[٢].

أما القوافل التجارية القادمة عن طريق البر فقد جعلت من مكة محطة لها أثناء تنقلاتها بين الشام واليمن ، فأصبحت مكة بالنسبة لتلك القوافل مقصداً للراحة ، وفرصة للتبادل التجاري مع أهلها ، فنمت بذلك تجارتها، وأصبحت بهذا مركزاً تجارياً مهماً على طريق القوافل التجارية في الجزيرة العربية [٣].

---

(١) سليمان بن صالح القرعاوي ، مكة المكرمة : إعجاز موقعها ، وحرمتها ، ومنزلتها ، وتوسعتها، ص٥ ؛ هاني ماجد فيروزي ، ملامح من تاريخ مكة المكرمة ، بيروت : دار العلم ، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، ص٣٢ .

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا . شرحه وعلق عليه، محمد حسين شمس الدين، بيروت : ط١، دار الكتب العلمية، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ج٤، ص٢٥٨ .

(٣) علي بن حسين السليمان، النشاط التجاري في شبه الجزيرة العربية أواخر العصور الوسطى . القاهرة : ط١، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ص٩٩ .

وقد وصف ذلك ابن جبير بقوله [١]: "... والطريق إليها ملتقى الصادر والوارد ممن بلغته الدعوة المباركة . والثمرات تجبى إليها من كل مكان ، فهي أكثر البلاد نعماً وفواكه ومنافع ومرافق ومتاجر" .

وتقع مكة ضمن المنطقة المدارية الشمالية ، وعلى الرغم من قربها من ساحل البحر الأحمر جغرافياً إلا أن تأثيره المناخي عليها لا يكاد يذكر إلا بنسبة ضئيلة حيث تتجاذبها تأثيرات مناخ البحر المتوسط ، وتأثيرات المناخ الموسمي ، وتتميز مكة بارتفاع درجة الحرارة صيفاً ، حيث تتراوح ما بين ٣٠-٤٠ درجة مئوية ، وقد تزيد على ذلك في بعض السنوات [٢]. أما في فصل الشتاء فيتميز جوها بالدفء نوعاً ما [٣].

أما الأمطار فيغلب عليها عدم الانتظام فقد تسقط في عام واحد ، وتنقطع لعدة أعوام متتالية ، والسمة الغالبة عليها الشح المفرط ، حيث تتساقط فجأة ، وعلى فترات متباعدة ، ثم تتوقف لفترة طويلة . وقد يسقط في اليوم الواحد وخلال ساعات محدودة أكثر من مجموع كمية المطر المتساقطة خلال أيام [٤]، مما يؤدي إلى حدوث سيول جارفة وفيضانات ينتج عنها حصول كوارث طبيعية مدمرة [٥]. وتهب الرياح الشمالية الغربية على

---

(١) رحلة ابن جبير ، بيروت : دار بيروت ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م ، ص٩٦ - ٩٧ .

(٢) أحمد بن محمد السباعي ، تاريخ مكة : دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران . الرياض : الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة ، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م ، ج١ ، ص٢١ ؛ هاني ماجد فيروزي ، ملامح من تاريخ مكة المكرمة ، ص٣٢ .

(٣) عبد الله بن صالح الرقيبة ، الحج إلى مكة المكرمة ، ص٢٤ .

(٤) هاني ماجد فيروزي ، ملامح من تاريخ مكة المكرمة ، ص٥٢ .

(٥) لمزيد من المعلومات حول ما تؤدي إليه السيول من كوارث في مكة ، انظر : عبد العزيز بن راشد السنيدي ، أثر الأوضاع البيئية على الحياة الاجتماعية في مكة منذ بداية القرن السادس حتى نهاية القرن التاسع الهجري (دراسة تاريخية حضارية) ، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، ج ١٩ ، ع ٤٠ ، ربيع الأول ١٤٢٨ هـ .

مكة في فصل الشتاء ، أما في فصل الصيف فتتعرض لهبوب الرياح الشمالية الشرقية الجافة [١] .

وقد خطت مكة حول الكعبة في بطن الوادي المحاط بالشعاب والجبال المختلفة، فأصبحت تقع في منطقة شبيهة بالحوض لا يتجاوز عرضها ميلاً واحداً ، وطولها ميلين تقريباً . وكان للقبائل التي نزلت مكة أثر في التطور العمراني فيها حيث اتخذت هذه القبائل مساكنها على حواف وادي إبراهيم من أعلى مكة إلى أسفلها [٢] . وقد قسم المقدسي [٣]ـ الذي زار مكة في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري ـ العمران في مكة إلى قسمين رئيسين: فقال : "وكلما نزل عن المسجد الحرام يسمونه المسفلة ، وما ارتفع عنه المعلاة ، وعرضها سعة الوادي ، والمسجد في ثلثي البلد إلى المسفلة ، والكعبة في وسطه" .

ورغم أن التوسع العمراني قد نشط في مكة إبان القرنين الأول والثاني الهجريين إلا أن ذلك بدأ بالتقلص منذ أواخر القرن الثالث الهجري [٤]، بعد أن تعرضت مكة للعديد من الأزمات والمشاكل السياسية التي حدت من التطور الحضاري فيها ، وأسهمت في هجرة السكان منها [٥]، ويلاحظ أن

---

(١) هاني ماجد فيروزي ، ملامح من تاريخ مكة المكرمة ، ص٥٢ .

(٢) أحمد السباعي ، تاريخ مكة ، ج١ ، ص٣٨ .

(٣) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم . تحقيق، محمد مخزوم، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م ، ص٧٥ .

(٤) صالح أحمد العلي ، المعالم العمرانية في مكة المكرمة في القرنين الأول والثاني ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، م٤٠ ، ج٢ ، ١٤١٠هـ ، ص١٣ ـ ١٥ ؛ ناصر بن علي الحارثي ، الآثار الإسلامية ، ص٣٥ .

(٥) وسيأتي ذلك مفصلاً في المبحث الثاني من الفصل الرابع من هذه الدراسة بمشيئة الله تعالى.

المباني الموجودة حول المسجد الحرام أغلبها في تلك الفترة كانت من المباني الخيرية. ومنذ القرن الرابع الهجري ازدادت التحصينات العسكرية في مكة حيث ذكر المقدسي [1]أنها كانت محصنة بالأسوار ، ويدخل إليها عبر أربعة أبواب ، اثنان منها في الجهة الشرقية من السور ، والثالث في الجهة الشمالية، أما الرابع ففي الجهة الجنوبية ، ولاشك أن ذلك عائد إلى تفاقم المشاكل السياسية بين عدد من القوى المتنافسة على مكة وكثرة الاشتباكات والحروب بين أشرافها. كما أصبحت مساكن المكيين حول الكعبة متعددة الطوابق بعد أن كان البناء فيها لا يعلو على الكعبة [2].

أما مواد البناء في مكة فقد وصفها المقدسي [3]بأنها حجارة ملساء سوداء يعلوها الآجر، وأعمدتها ـ في الغالب ـ من خشب الساج .

وقد زار مكة العديد من الجغرافيين والرحالة العرب وغيرهم ، ووصفوها لنا وصفاً دقيقاً بحيث يستطيع القارئ لكتابات أولئك الرحالة أن يكون في ذهنه صورة تقريبية عن شكل مكة وتخطيطها العام ومواقع البناء بالنسبة للمسجد الحرام والجبال المحيطة بها ، ويهمنا في هذه الدراسة ما جاء في وصف الرحالة الذين زاروها في تلك الفترة الزمنية التي تقع فيها أحداث الدراسة ، ويأتي في مقدمتهم الرحالة الفارسي الشهير ناصر خسرو القبادياني الذي تمكن من زيارة مكة أربع مرات ، وأقام فيها مجاوراً لعدة أشهر ، فقد ذكر ناصر خسرو أن مدينة مكة تقع بين جبال عالية لا ترى من

---

(١) أحسن التقاسيم ، ص٧٦ .

(٢) المقدسي، أحسن التقاسيم ، ص٧٥ ؛ صالح أحمد العلي ، المعالم العمرانية في مكة المكرمة ، ص١٣ ـ ١٥ ؛ ناصر بن علي الحارثي ، الآثار الإسلامية ، ص٣٦ .

(٣) أحسن التقاسيم ، ص٧٥ .

بعيد ، وتشرق عليها الشمس من جبل أبي قبيس ، أما عن مساحتها فقد ذكر أنها صغيرة ومحصورة في الوادي المحاط بالجبال ، الخالي من الأشجار، وأن هذا الوادي لا تزيد مساحته عن رمية سهمين في مثلها ، ومن حول هذا الوادي تقع الشوارع والأسواق . وأما عن الثغرات الواقعة بين الجبال فقد ذكر أنها تسد بالأسوار ، ويوضع عليها الأبواب . وفي وصفه للمسجد الحرام ذكر أن الكعبة تتوسط المسجد ، والمسجد يتوسط مكة ، وطول المسجد من الشرق إلى الغرب بداية من باب إبراهيم ونهاية عند باب بني هاشم أربعمائة وعشرون ذراعاً ، وطوله من الشمال إلى الجنوب يتراوح ما بين ثلاثمائة إلى أربعمائة ذراع في أوسع جهاته بداية من باب الندوة إلى باب الصفا [1].

(١) رحلة ناصر خسرو القبادياني "سفر نامة " . ترجمة وتقديم ، أحمد خالد البدلي، الرياض : ط١، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، الرياض ١٤٠٣هـ/ ١٢٨٣م.

أحوال مكة السياسية قبيل تنافس العباسيين والعبيديين عليها.

دأب الخلفاء العباسيون منذ قيام دولتهم على جعل الحجاز ولاية واحدة مركزها - في الغالب - المدينة ، وكانت مكة من الناحية الإدارية مرتبطة بها. ثم اضطرتهم الظروف إلى فصل مكة وجعلها إمارة مستقلة عن المدينة[١]، بسبب التقلبات السياسية الناتجة عن ثورات العلويين الذين جعلوا من المدينة منطلقاً لهم ، حيث رأى العباسيون أنه من الأجدى إسناد ولاية المدينة إلى والٍ مستقل حتى يتسنى له التفرغ للعمل على إخماد تلك الفتن والثورات [٢]. ورغم نجاح هذه السياسة في الحد من الثورات العلوية في المدينة إلا أن هذا الإجراء جعل من مكة عرضة لهذه الثورات منذ أواخر القرن الثاني الهجري وحتى قيام حكم الأشراف فيها سنة ٣٥٨هـ/٩٦٨م .

ففي سنة ١٩٩هـ/٨١٢م تمكن داعية العلويين في العراق أبو السرايا السري بن منصور الشيباني [٣]من التغلب على جيش المأمون (١٩٨ - ٢١٨هـ/٨١٣ - ٨٣٣م)، وفرض سيطرته على بعض مناطق العراق ، ثم وجه جيشاً إلى مكة بقيادة الحسين الأفطس الذي تمكن من دخولها في يوم

---

(١) حسين مؤنس ، تاريخ قريش ، جدة : ط١ ، ١٩٨٨م ، ص٧٦١ .

(٢) محمد جمال الدين سرور ، سياسة الفاطميين الخارجية . القاهرة : دار الفكر العربي ، ١٩٩٤م ، ص٢١-٢٢ ؛ عطية طه إبراهيم، الحياة الاقتصادية الاجتماعية في بلاد الحجاز من القرن الثالث حتى منتصف القرن السادس الهجري، (رسالة دكتوراه)، كلية الآداب، جامعة القاهرة ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، ص١٢.

(٣) هو أحد القواد المشهورين ، بايع - بعد أن أعلن ثورته - محمد بن إبراهيم العلوي سنة ٢٠٠هـ/٨١٣م وتولى قيادة جنده ، واستولى على الكوفة ، وضرب بها الدراهم ، وتمكن العباسيون من القضاء عليه في ربيع الأول سنة ٢٠٠هـ/٨١٣م . (الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق ، محمد أبو الفضل إبراهيم . بيروت : ط٣، دار سويدان، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م ، ج٨ ، ص٥٣٤ - ٥٣٥ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٠ ، ص).

التروية من السنة المذكورة ، وطرد عامل العباسيين منها ، وفي العام التالي عمد إلى مبايعة محمد بن جعفر الصادق ، وكان من فضلاء الطالبيين ، واستقل بحكم مكة عن العباسيين ، غير أن هذا الاستقلال لم يدم طويلاً حيث استطاع العباسيون استرداد مكة بعد أن انتدب المأمون إليها جيشاً في جمادى الآخرة سنة ٢٠٠هـ/٨١٤م تمكن من أجلاء الثائرين منها [١].

ولم يكد يمر وقتاً طويلاً على إخماد هذه الثورة حتى تعرضت مكة لثورة علوية جديدة بعد أن دخلها إبراهيم بن موسى الكاظم سنة ٢٠٢هـ/٨١٦م قادماً من اليمن ، وقتل عامل العباسيين عليها [٢]. وبعد خروجه منها قام الخليفة العباسي المأمون (١٩٨ ـ ٢١٨هـ/٨١٢ ـ ٨٣٣م) بإسناد ولاية مكة لأحد العلويين رغبة في التقرب إليهم ، والظفر بولائهم ، خاصة في ظل تزايد أعدادهم في مكة إبان تلك الفترة [٣]. وبالفعل فقد نجحت هذه السياسة حيث نلحظ هدوءً في الأوضاع السياسية في مكة حتى وفاة المأمون سنة ٢١٨هـ/٨٣٣م [٤].

---

(١) ابن خياط ، تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق : د . أكرم ضياء العمري . دمشق و بيروت : ط٢، دار القلم، مؤسسة الرسالة، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م، ص ٤٧٠ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج٨ ، ص ٥٣١ – ٥٣٧ ؛ أبو الفرج الأصفهاني ، مقاتل الطالبين ، تحقيق ، السيد أحمد صقر، بيروت : دار المعرفة، (د، ت)، ص٥٣٣ .

(٢) العصامي، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي . القاهرة : المطبعة السلفية، (د . ت)، ج٤، ص٢٠٥.

(٣) أحمد زيني دحلان، خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام . القاهرة : المطبعة الخيرية، ١٣٠٥هـ، ص١٠ ؛ أحمد بن عمر الزيلعي، مكة وعلاقاتها الخارجية (٣٠١ ـ ٤٨٧هـ) . الرياض : ط١، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الرياض ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص٤١ .

(٤) أحمد زيني دحلان، خلاصة الكلام ، ص١٠.

وفي سنة ٢٥١هـ/٨٦٤م استطاع إسماعيل بن يوسف الحسني العلوي الاستيلاء على مكة بالقوة ، ونهب خزائن الكعبة المشرفة [١]، ثم زحف إلى جدة والمدينة، ولم يتمكن العباسيون من القضاء على هذا الثائر الذي استطاع هزيمة جيشهم ، كما عانى أهل مكة منه أشد المعاناة ، بعد أن قتل جماعة منهم ، وشدد الخناق عليهم [٢]. وقد تخلصت منه مكة بعد هلاكه بمرض الجدري أواخر سنة ٢٥٢هـ/٨٦٥م [٣].

واستطاع صاحب الزنج [٤] في سنة ٢٦٥هـ/٨٧٨م اقتحام مكة والسيطرة عليها بعد أن نجحت قواته في إبعاد النفوذ العباسي عنها [٥] . ولم يدم هذا

---

(١) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، بيروت : دار بيروت، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ج٢، ص٤٩٨ ؛ ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، بيروت : ط١ ، دار الكتب العلمية ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، ص٤٦ .

(٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، ج٩ ، ص٣٤٧ ؛ ابن الأثير ؛ الكامل ، ج٥ ، ص٣٣٠ ؛ الفاسي، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام. تحقيق، عمر عبد السلام تدمري، بيروت : ط١، دار الكتاب العربي، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ج٢، ص٣٤٥ .

(٣) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص٤٦ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى في أخبار أم القرى، تحقيق، فهيم محمد شلتوت، ط١، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م) ، ج٢ ، ص٣٣١.

(٤) تزعم هذه الحركة تحت قيادة رجل يدعى علي بن محمد بن أحمد ويعرف بصاحب الزنج بعد أن استطاع استمالة طائفة العبيد الزنج في البصرة ونواحيها وقطع لهم الوعود بتحريرهم من الرق ، واتخذ من قضية الدفاع عن حقوق العلويين شعاراً لحركته . وقد استمرت هذه الفتنة حوالي خمس عشرة سنة ، حتى استطاع العباسيون القضاء عليها سنة ٢٧٠هـ/٨٨٣م . (عبدالعزيز بن محمد اللميلم ، نفوذ الأتراك في الخلافة العباسية وأثره في قيام مدينة سامراء. الرياض : ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، ج٢ ، ص ١٤٢ ـ ١٧٤) .

(٥) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج٩ ، ص ٥٤٨ ؛ ابن فهد ، إتحاف الورى ، ج٢ ، ص ٣٤٠ ، أحمد السباعي ، تاريخ مكة ،ج١ ، ص ١٦٦ .

النفوذ طويلاً حيث تمكن العباسيون من إجلاء هذه القوات وإعادة مكة لنفوذهم في أواخر سنة ٢٦٦هـ/٨٧٩م [١] .

وشهدت مكة في عام ٢٦٩هـ/٨٨٢م تدخلاً خارجياً من قبل أحمد بن طولون[٢] الذي قام بإرسال جيش إليها من مصر ، وتمكن من دخولها ، وعامل أهلها معاملة طيبة ، وفرق عليهم الأموال ، وذلك في محاولة منه لاستمالتهم إلى جانبه لتحقيق هدفه الرامي لضم مكة إلى دولته ، ورغم ذلك فقد فشل في مسعاه بعد ما تصدى له العباسيون ، وطردوا أتباعه من مكة [٣].ويُعد هذا الحدث أول تدخل عسكري مصري في مكة خلال التاريخ الإسلامي ، كما فتح المجال للحكومات التي قامت في مصر بعد ذلك للتدخل في شؤون مكة من أجل إضفاء شرعية على تلك الحكومات من خلال المنبر المكي ، إضافة إلى ذلك فقد وضح هذا الحدث أهمية ارتباط مكة بمصر للاستفادة من خيراتها الاقتصادية [٤].

---

(١) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ،ج٩ ، ص٥٥٣-٥٥٤ ؛ ابن فهد : إتحاف الورى ، ج٢ ، ص ٣٤١ .

(٢) وهو مؤسس الدولة الطولونية بمصر ، من أصل تركي ، بعد أن كلفه الخليفة المعتز بولايتها سنة ٢٥٤هـ/٨٦٨م . ثم ضم لسلطته الشام . واستمر يحكم مصر حتى توفي سنة ٢٧٠هـ /٨٨٣م . وكان شجاعاً عادلاً جواداً مشجعاً على العلم . وقد استمرت الدولة الطولونية تحكم مصر حتى سنة ٢٩٢هـ / ٩٠٤م عندما بعث الخليفة المكتفي بالله (٢٨٩-٢٩٥هـ / ٩٠١-٩٠٧م) جيشاً استطاع إعادة مصر للحكم العباسي . وكانت عاصمتهم الفسطاط . (الكندي ، ولاة مصر . بيروت : ط١ ، مؤسسة الكتب الثقافية ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م ، ص١٦٧ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق ، إحسان عباس ، بيروت : دار الثقافة ، (د ، ت) ، ج١ ، ص ١٧٣-١٧٤ ؛ ستانلي لين بول، الدول الإسلامية، ترجمة ، محمد صبحي فزرات، دمشق: مكتب الدراسات الإسلامية، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م، ج١، ص١٢٦-١٢٧) .

(٣) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج٩ ، ص ٦٥٢-٦٥٣ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى ، ج٢ ، ص٣٤٣-٣٤٤.

(٤) أحمد عمر الزيلعي ، مكة وعلاقاتها الخارجية ، ص ٢٢-٢٣ ؛ عبد العزيز بن راشد السنيدي ، الحياة العلمية في مكة خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين ، الرياض : ط١ ، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص٣٥ .

وبدأ النفوذ العباسي على الجزيرة العربية يقل تدريجياً في أواخر القرن الثالث الهجري حيث انفصلت بعض الأقاليم عن السيطرة العباسية مما أعطى الحجاز فرصة في الانفصال أيضاً ، وكان من أبرز العوامل المساعدة على ذلك انشغال الخلفاء العباسيين بمجابهة الفتن الداخلية عن الاهتمام بإقليم الحجاز [١]، فاستغل محمد بن سليمان بن داود العلوي ذلك وتغلب على إمارة مكة وخلع طاعة العباسيين ، وخطب لنفسه بالإمامة في موسم حج سنة ٣٠١هـ/٩١٣م [٢]. ويبدو أن هذه الثورة استمرت حتى قضى عليها القرامطة سنة ٣١٧هـ/٩٢٩م [٣].

وفي بداية القرن الرابع الهجري أصبحت مكة عرضة لتهديدات القرامطة[٤] وصلت ذروتها بدخولهم إليها في موسم حج سنة

---

(١) أحمد عمر الزيلعي ، مكة وعلاقاتها الخارجية ، ص ٢٢ ـ ٢٣ .

(٢) ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون " المسمى " ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر " . تحقيق، خليل شحاته . بيروت : ط١، دار الفكر، ١٤٠١هـ/١٩٨١م . ج٤ ، ص٩٩ ؛نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى ، ج٢ ، ص٣٦٢ ؛ العصامي، سمط النجوم العوالي ، ج٤ ، ص١٩٢.

(٣) محمد جمال الدين سرور ، النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب ، القاهرة : ط٢ ، ١٩٥٦م ، ص ١١ ؛ أحمد عمر الزيلعي ، مكة وعلاقاتها الخارجية ، ص ٢٢ ـ ٢٣ .

(٤) تنسب هذه الفرقة إلى حمدان بن الأشعث، المعروف بقرمط . وكان أول ظهور لهذه الفرقة في الكوفة في عهد الخليفة العباسي المعتمد على الله (٢٥٦ ـ ٢٧٩هـ/٨٦٩م ـ ٨٩٢م) . ومن الكوفة انتشر دعاتهم في بلاد الشام واليمن والبحرين. وقد انتقلت هذه الفرقة للبحرين عن طريق أبي سعيد الحسن بن بهرام الجنابي، حيث استمال الأعراب إليه في تلك النواحي، وأقام له كيان سياسي هناك في أواخر القرن الثالث الهجري . وقد دخلت هذه الفرقة في صراع مع العباسيين، كما تحالفوا مع العبيديين . ومن أبرز زعاماتهم أبو طاهر الجنابي الذي قام بالهجوم على مكة . واستمرت دولتهم حتى سنة ٤٧٠هـ/١٠٧٧م . لمزيد من المعلومات عن هذه الفرقة ودولتهم التي أقاموها في البحرين، انظر ؛ (ابن الأثير, الكامل في التاريخ، ج٦، ص٦٩ـ٧١، ٩٢ـ٩٥؛ سهيل زكار : أخبار القرامطة في الأحساء والشام والعراق واليمن دار الكوثر، الرياض ١٤١٠هـ/١٩٨٩م, ص١٣ ومابعدها) .

٣١٧هـ/٩٢٩م ، فاستباحوا الدماء وقتلوا الأبرياء من الناس ، كما قاموا بالسلب والنهب ، وبالاعتداء على حرمة البيت الحرام واقتلاع باب الكعبة ، وأخْذِ أموال الكعبة وما كان في المسجد الحرام من معاليق (١) ومحاريب (٢) من ذهب وفضة ، وفي الأخير قاموا بتجريد الكعبة من كسوتها واقتلاع الحجر الأسود وحمله معهم إلى الأحساء (٣). وقد استمر معهم حتى أُعيد إلى مكانه سنة ٣٣٩هـ/٩٥٠م (٤).

---

(١) المعاليق ، جمع ومفردها معلاق بكسر الميم : وتستخدم لتعليق القناديل في المساجد وغيرها. (الفيومي ,المصباح المنير , تحقيق , يوسف الشيخ محمد , بيروت : ط٢,المكتبة العصرية ١٤١٨هـ/١٩٩٧م, ص٢٢٠ ؛ عاصم محمد رزق, معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية , القاهرة : ط١, مكتبة مدبولي ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م, ص ٢٩٠.

(٢) المحاريب ، جمع ، مفردها محراب ، بكسر الميم ، ويقصد به المكان الذي ينفرد فيه الملك بعيداً عن الناس ، ومنه محراب المسجد ، أو مقام الإمام فيه ، وقد يطلق على الغرفة مصداقاً لقوله تعالى في سورة مريم . آية ١١ : "وخرج على قومه من المحراب.." . وصارت تعني بالنسبة للمسجد مقام الإمام ، وموضع انفراده فيه . (الفيومي ، المصباح المنير ، ص٧٠ ؛ عاصم محمد رزق, معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية ، ص٢٦٢ . ٢٦٦) .

(٣) الأحساء مدينة في شرق الجزيرة العربية ، ضمن إقليم البحرين ، اشتهرت بكثرة النخيل . وكان أول من عمرها وحصنها ، وجعلها قصبة هجر أبو طاهر الجنابي القرمطي . (ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج١ ، ص١١٢) . وهي الآن محافظة ضمن المنطقة الشرقية في المملكة العربية السعودية .

(٤) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج٦ ، ص٢٠٣ . ٢٠٥ ؛ القلقشندي، مآثر الإنافة في معالم الخلافة . تحقيق، عبد الستار أحمد فراج، بيروت : ط١، عالم الكتب، ١٩٦٤م، ج١، ص٢٧٩ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى ، ج٢ ، ص٣٧٣ . ٣٨٠ .

وقد شهدت مكة في سنة ٣٤١هـ/٩٥٢م ، وكذلك في سنة ٣٤٣هـ/٩٥٤م اشتباكات بين الأخشيديين [(١)] في مصر - الذين تولوا أمر مكة من قبل الخلافة العباسية منذ ٣٣٢هـ/٩٤٣م - وبين البويهيين [(٢)] بسبب إقامة الخطبة على منابر مكة ، وقد أفضى هذا الصراع بين القوتين إلى عقد اتفاق يقضى بتقديم إسم البويهيين في الخطبة بمكة على الإخشيديين [(٣)]. وقد استمرت الولاية الفعلية في

(١) تنسب الدولة الإخشيدية إلى أبي بكر محمد بن طغج وهو من أحفاد الأتراك الذين استقدمهم الخليفة العباسي المعتصم في النصف الأول من القرن الثالث الهجري ، وقد خدم الإخشيد العباسيين وتقلد عدة مناصب ، واشترك معهم في بعض حروبهم مع العبيديين حتى وثق به الخليفة العباسي الراضي وقربه إليه ، وولاه على مصر ، ولقبه بالإخشيد (ملك الملوك) سنة ٣٢٣هـ/٩٣٤م . وأصبح الحاكم المطلق في مصر ، كما نجح في ضم بلاد الشام إليه بعد سنتين من توليه حكم مصر . واستمر حكم الدولة الإخشيدية حتى قضى عليها العبيديون سنة ٣٥٨هـ/٩٦٨م . لمزيد من المعلومات ، انظر ؛ (ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، ج٤ ، ص٤٠٦ وما بعدها ؛ سيدة إسماعيل كاشف ، مصر في عهد الإخشيديين ، القاهرة ، ١٩٥٠م) .

(٢) بنو بويه أسرة أصلها من بلاد الديلم جنوب بحر قزوين (الخزر) ، استطاعت أن تقيم لها حكماً في منطقة مازندران في سنة ٣٢٢هـ ، ثم مدوا نفوذهم إلى بغداد ، وفرضوا سلطتهم على الخليفة العباسي المستكفي ، الذي اضطر لاستقبال زعيمهم أحمد بن بويه ، وخلع عليه لقب معز الدولة، وأمر بنقش لقبه على الدراهم والدنانير ، كما ولاه إمرة الأمراء ببغداد سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م . واستمر حكم بني بويه في بغداد حتى تغلب عليهم السلاجقة سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م . لمزيد من المعلومات ، انظر ؛ (ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج٦ ، ص٢٣٠ وما بعدها ؛ ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، ج٤ ، ص٥٦٣ وما بعدها ؛ رضوان أحمد مصلح الليث ، دراسات في تاريخ دول المشرق الإسلامي في العصر العباسي . صنعاء: ط١ ، مكتبة الإحسان ، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م ، ص١٢٣ - ١٧١) .

(٣) مسكويه ، تجارب الأمم وتعاقب الهمم ، اعتني به : هـ . ف . آمدروز ، القاهرة : دار الكتاب الإسلامي ، (د . ت) ، ، ج١ ، ١٥٨ ؛ ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم . تحقيق، محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا . بيروت : ط١، دار الكتب العلمية، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ج١٤ ، ص٩٠ ؛ ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج٦ ، ص٣٤٧ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى ، ج٢ ، ص٣٩٨ - ٣٩٩ .

مكة للإخشيديين حتى نجح العبيديون [1] في القضاء على دولتهم في مصر سنة ٣٥٨هـ/٩٦٨م ، والذي تزامن مع قيام الأشراف[2] بإعلان استقلالهم بإمارة مكة .

□

---

(١) ينتسب العبيديون إلى قائدهم وأول دعاتهم عبيد الله المهدي، الذي تعلم أصول المذهب الشيعي من علماء الإسماعيلية . ولما هيأ له داعيته أبو عبد الله الشيعي الوضع في أرض كتامة في بلاد المغرب ، خرج عبيد الله المهدي من مدينة سلمية في الشام إلى بلاد المغرب ، ونجح في إقامة دولته في تونس سنة ٢٩٧هـ/٩٠٩م وجعل من مدينة رقادة عاصمة له ، ثم بنى بعد ذلك مدينة المهدية، وسمى دولته بالدولة الفاطمية، نسبة إلى فاطمة الزهراء رضي الله عنها، وبعد ذلك أرسل حملتين إلى مصر كانت الأولى سنة ٣٠٦هـ/٩١٨م، والثانية سنة ٣٠٧هـ/٩١٩م، لكنه فشل في مهمته الرامية إلى احتلال مصر، واستمر خلفاؤه على هذا المنوال حتى استطاع المعز لدين الله أن يستولي عليها تحت قيادة قائده المعروف جوهر الصقلي وذلك عام ٣٥٨هـ/٩٦٨م، وطرد الإخشيد منها، وبنى مدينة القاهرة، ثم امتدت توسعاته حتى سيطر على بلاد الشام وفلسطين، ثم مد نفوذه إلى بلاد الحجاز. لمزيد من المعلومات عن هذه الدولة ، انظر، (حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية ، القاهرة : ط٤ ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٨١م ؛ إبراهيم أيوب ، التاريخ الفاطمي السياسي ، لبنان ، الشركة العالمية للكتاب ، ١٩٩٧م).

(٢) الأشراف ، جمع ، مفردة شريف ، وتعني العلو ، وقد أطلق لقب الشريف على من كان من آل بيت الرسول صلى الله عليه وسم ، وهناك من قصره على ذرية الحسن والحسين رضي الله عنهما ، وقد شاع هذا المسمى عند الناس بعد الضعف الشديد الذي انتاب الدولة العباسية وظهور الدولة العبيدية وقوتها . وبعد أن قامت دولة الأشراف في الحجاز أصبح يطلق على الأسرة الحاكمة لقب الأشراف ، أما غيرهم من العلويين فكان يطلق عليهم لقب السادة . (الفيومي ، المصباح المنير ، ص١٦٢ ؛ مصطفى الخطيب ، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية ، بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م ، ص١٧١-١٧٣) .

الفصل الأول.

التنافس بين العباسيين والعبيديين على النفوذ في مكة.

المبحث الأول: أسباب التنافس بين العباسيين والعبيديين على النفوذ في مكة.

المبحث الثاني: مراحل التنافس.

أ. المرحلة الأولى: غلبة النفوذ العبيدي (٣٥٨-٤٦٢هـ).

ب. المرحلة الثانية: غلبة النفوذ العباسي (٤٦٢-٥٦٧هـ).

المبحث الثالث: موقف أمراء مكة من التنافس بين العباسيين والعبيديين على النفوذ في مكة.

المبحث الأول: أسباب التنافس[1] بين العباسيين والعبيديين على النفوذ في مكة.

لا يخفى ما للحجاز بصفة عامة، ومكة على وجه الخصوص، من أهمية ومكانة دينية ، مما دفع الدول الإسلامية الكبيرة إلى التنافس عليها وجعلها ضمن الأقاليم التي تخضع لها.

وقد شهدت مكة خلال الفترة من ٣٥٨هـ/٩٦٨مـ حتى ٥٦٧هـ/٩٧٧م تنافساً كبيراً بين أكبر قوتين في العالم الإسلامي آنذاك، وهما الدولتان العباسية والعبيدية, وقد تجلت لنا من خلال أطوار هذا النزاع وتعاقب أحداثه ، أسباب متعددة الأغراض ومتنوعة الأهداف، منها: ما يخص إحدى القوى المتنازعة دون الأخرى، ومنها: ما كان مشتركاً بين الطرفين. وقد اشتملت هذه الأسباب في مجملها . كما سوف نرى . على جوانب دينية وسياسية واقتصادية واجتماعية ، أبرزها:

---

(١) من الجدير بالذكر أن التنافس حول مكة إنما كان جزءاً من تنافس الدولتين حول الجزيرة العربية والشرق, حيث كان للعبيديين دعاة في معظم هذه الأقاليم ، كما شمل التنافس الدعاية والتحريض من جانب كل طرف ضد الطرف الأخر ، وقيام كل طرف ببناء تصور عدائي عن الطرف الأخر ، وكذلك شمل محاولة انتزاع هذا الإقليم أو ذاك من الأقاليم الخاضعة لأحد الطرفين, ومن جانب آخر فقد كان فرض النفوذ بالنسبة للدولتين العباسية والعبيدية في مكة غالباً لا يتعدى ذكر اسم الخليفة أو الحاكم في الخطبة ، وتعليق كسوته على الكعبة ورفع رايته على جبل عرفات في الحج . (أحمد الزيلعي ، مكة وعلاقاتها الخارجية، ص٧٧) .

١. إضفاء الشرعية الدينية على الحكم.

لقد حرص كل من العباسيين والعبيديين على أن يصبحوا أصحاب السيادة والحق الشرعي في خلافة المسلمين، خاصة وأن هذه الخلافة الإسلامية تستمد هيبتها ومكانتها من كونها خلافة للرسول صلى الله عليه وسلم في حكم المسلمين، فللخليفة الولاية التامة على المسلمين، وإليه حق تنفيذ الشرع، وعليهم السمع والطاعة، وبذلك فقد جمع الخليفة بين السلطتين الدينية والسياسية [١]. ولذا فإن من يستطيع أن يبسط سلطته على أقدس بقعة على وجه الأرض، وتتقدم رايته مواكب الحجيج، يصبح في نظر المسلمين الأجدر بخلافتهم. وكان هناك تصور شائع في العهود الإسلامية الأولى مفاده أن انضمام الحرمين الشريفين شرط من شروط شرعية الخلافة، وأن نفوذ الخلافة لا تكتمل عناصره في نظر الأمم الإسلامية ما لم تؤيده خطبة الحرمين وتنطق داعية باسمه [٢]. ومن هذا المنطلق فقد حرص كل من العباسيين والعبيديين أن يتمتعوا بهذه الخاصية الفريدة، فدخلوا في سبيل ذلك في منافسات عديدة، مستغلين العديد من الفرص التي سنحت لهم خلال هذه الفترة التاريخية [٣].

---

(١) أنور الرفاعي، الإسلام في حضارته ونظمه . دمشق : ط٢ ، دار الفكر ، ١٤٠٢هـ/١٩٩٢م، ص٧٧ . وقد عرف ابن خلدون الخلافة بقوله: الخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها . إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة . فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به . (تاريخ ابن خلدون ، ج١، ص٢٣٩) .

(٢) محمد جمال الدين سرور، النفوذ الفاطمي ، ص١٤ ؛ أحمد السباعي، تاريخ مكة، ص١٩٤ .

(٣) سيتضح ذلك بجلاء من خلال الحديث عن مراحل التنافس بين العباسيين والعبيديين بمشيئة الله تعالى.

ومن المعلوم أن الدولة العباسية قد سبقت في قيامها الدولة العبيدية في مصر بأكثر من قرنين فرسخت بذلك شرعية خلافتها ، وأصبحت هذه الشرعية محل إجماع الكثير من المسلمين في تلك الفترة ، فكان على الدولة العبيدية خصوصاً بعد امتدادها إلى مصر أن تسعى جاهدة لتحتل مكان الصدارة في العالم الإسلامي وتقصي شرعية الخلافة العباسية ، سيما أن كثيراً من المسلمين آنذاك كانوا يعتبرونها دولة خارجة على الخلافة ، فرأى حكامها أن بسط نفوذهم على الحرمين سيغير من النظرة السائدة عند أغلب المسلمين عنهم ، ويُحسِّن من صورتهم ، ويضفي عليهم لباس الشرعية[1] .

٢. الاستفادة من المنبر المكي.

كان المنبر في عهود سابقة أهم وسيلة إعلامية ينفذ من خلالها الكثير من التعليمات والقرارات، ويعد المنبر المكي أهم منبر في العالم الإسلامي اتخذ لهذا الغرض [2]، حيث يجتمع المسلمون من شتى أصقاع الأرض لأداء مناسك الحج في مناسبة سنوية عظيمة، كما يُعاودُ الكثير منهم هذا المكان للعمرة والزيارة في فترات مختلفة من السنة، ومن خلال هذا المنبر يستمع القادمون إلى ما يلقى عليهم من خطب متنوعة، تسخر في أحيان كثيرة لخدمة أغراض ومصالح مذهبية وسياسية مختلفة، فضلاً عن الترويج لبعض

---

(١) أحمد الزيلعي، مكة وعلاقاتها الخارجية ، ص٢٨ .

(٢) ومن الخطب المشهورة على منابر مكة خلال العصور الإسلامية السابقة ؛ خطبتي الرسول صلى الله عليه وسلم يوم الفتح وفي حجة الوداع، وخطبة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما عندما أراد البيعة لابنه يزيد، وخطب عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما عندما نادى بنفسه خليفة للمسلمين في مكة، وخطبة داود بن علي عندما تولى العباسيون الخلافة الإسلامية، وغيرها .

البدع[1]. وعبر هؤلاء تنقل هذه الأفكار إلى بقاع مختلفة من العالم الإسلامي، وقد تؤثر في ترسيخ مكانة هذه الدولة أو تلك في القطر المنقولة إليه.

ووفق هذا المنظور فإننا نلحظ أن المنبر في المسجد الحرام والمشاعر المقدسة كان محل تنافس بين السلطتين العباسية والعبيدية، حرص خلاله حكام هاتين الدولتين على تسخيره لخدمتهم من خلال خطب ودّ الأشراف المسيطرين عليه إبان الفترة التاريخية التي نتحدث عنها، ولعل ما يوضح لنا ذلك تلك الخطبة التي ألقاها الشريف محمد بن جعفر بن أبي هاشم سنة ٤٦٢هـ/١٠٦٩م عندما أغراه العباسيون بالخطبة لهم، فخطب خطبة بيّن فيها مكانة العباسيين وأحقيتهم بالخلافة ، وأعلن أنهم الأحق والأجدر بالتبعية[2]، ولا شك أن هذا التصريح من شريف مكة سينتقل إلى أقطار عديدة، وسيكون له تأثير واضح لدى الكثير من المسلمين ، وعليه سوف تترسخ هذه الأحقية عند كثير من الشعوب.

٣. نشر المعتقد الديني.

لم يقتصر التنافس بين العباسيين والعبيديين في زعامة العالم الإسلامي على الجوانب السياسية فقط وإنما تعدى ذلك ليصل إلى التنافس المذهبي فيما بينهما. وتعد مكة مجالاً رحباً لنشر الدعوة وتلقيها ، لأنها تغص بالكثير من أبناء الشعوب المختلفة خصوصاً في مواسم الحج والعمرة [3].

---

(١) عبد الرحمن بن علي السنيدي، أمن حركة الحج من المشرق الإسلامي إلى مكة المكرمة خلال العصور العباسية المتأخرة (٤٨٥ ـ ٦٥٦هـ)، الدارة، ع٣، س٣٢، ١٤٢٧هـ، ص٤١ .

(٢) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج٤، ص١٣٣ .

(٣) صبحي عبد المنعم محمد ، العلاقات بين مصر والحجاز زمن الفاطميين والأيوبيين، القاهرة : العربي للنشر والتوزيع، (د . ت)، ص٤١.

وكانت الدولة العبيدية قد حرصت منذ إعلان قيامها على نشر مذهبها عبر الدعاة والمناصرين لها , حيث قامت عقب بسط سلطتها على مصر سنة ٣٥٨هـ/٩٦٨م بنشر وتعميم المذهب الشيعي في هذه البلاد (١), وعندما أعلن الأشراف في الحجاز تبعيتهم للعبيديين حرص هؤلاء الأشراف على إرضاء العبيديين بجعل المذهب الشيعي مذهباً رسمياً لهم بعد أن زادوا في الآذان عبارة " حي على خير العمل " , كما أقاموا إماماً زيدياً يؤدي الصلاة بأتباعه في الحرم الشريف(٢). وقد وصل الأمر بالعبيديين أن أمروا حاكم مكة سنة ٣٩٤هـ/١٠٠٣م بسبِّ الصحابة على منبر المسجد الحرام (٣).

ومن جانب أخر فقد سعى العباسيون والسلاجقة (٤)إلى استعادة مكانة المذهب السني في مكة والحرص على إبعاد تلك الإضافات الدينية الدالة على هيمنة المعتقد الشيعي فيها, ولعل في تقديرهم للعمل الذي قام به الشريف محمد بن

---

(١) أحمد الزيلعي، مكة وعلاقاتها الخارجية ، ص٤١ ؛ صبحي عبد المنعم، العلاقات بين مصر والحجاز ، ص٣٢٧.

(٢) ابن جبير، الرحلة ، ص٦٨ ؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة . القاهرة : نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م، ج٥، ص١٠٩ .

(٣) البكري، المسالك والممالك، تحقيق، أدريان فان ليوفن وأندري فيري . تونس : الدار العربية للكتاب والمؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، ١٩٩٢م . ج١، ص٣٩٦ـ ٣٩٧ .

(٤) السلاجقة, طائفة من الأتراك الغز ، نزحت من تركستان واستقروا فيما بين بلاد ما وراء النهر والبلاد التي كانت تسكنها طائفة الخرلخ التركية المسلمة . وترجع تسميتها بالسلاجقة إلى القائد سلجوق بن دقاق الذي تولى قيادتها ووحد كلمة أبنائها . وكان اعتناقهم للمذهب السني سبباً في تقربهم من حكام الدول المجاورة لهم ، واتصلوا بالخليفة العباسي القائم بأمر الله الذي الذي اعترف بسلطانهم ، فأكسبهم ذلك الصفة الشرعية ، واستطاعوا بعد ذلك مساعدة العباسيين على التخلص من البويهيين الشيعة ، ودخول بغداد سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٤م واستأثروا بعد ذلك بالسلطة فيها . ولم يكن للخلفاء العباسيين في عهدهم سوى ذكر اسمهم في الخطبة ونقشه على السكة . (الحسيني ، زبدة التواريخ (أخبار الأمراء والملوك السلجوقية) . تحقيق ، محمد نور الدين . بيروت : ط١ ، دار إقرا ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، ص٢٣ ـ ٢٨ ؛ أحمد كمال الدين حلمي ، السلاجقة في التاريخ والحضارة . الكويت : ط٢ ، مكتبة ذات السلاسل ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ، ص٢١ ـ ٢٦) .

جعفر سنة ٤٦٢هـ/١٠٦٩م عندما أرسل إلى العراق يبين للسلطات هناك أنه قد ترك الأذان بحي على خير العمل [١]، خير دليل على اهتمام العباسيين بضرورة استمرار المذهب السني في مكة، سيما وقد سيطر على الخلافة آنذاك السلاجقة المعروف عنهم انتمائهم للمذهب السني وسعيهم الحثيث على نشره .

٤. الاستفادة من تجارة مكة.

تُعد مكة من أعظم الأسواق في الجزيرة العربية قاطبة، حيث تميزت بموقع فريد منحها تنوع البضائع والسلع المعروضة في أسواقها المختلفة، وتعدد الجهات القادمة منها هذه التجارات [٢].

وقد اعتاد حجاج الأقاليم الإسلامية ـ خاصة العراق ومصر ـ أن يجعلوا من موسم الحج فرصة للتبادل التجاري مع غيرهم ممن يفدون بالبضائع المختلفة إلى مكة، ولعل ما يدل على قوة الارتباط التجاري بين مكة والعراق أن حجاج العراق كانوا من أبرز من مارس التجارة في الأسواق المكية، حيث عُرف عنهم نقل البضائع القادمة من مصر واليمن إلى العراق بعد شرائها من مكة أثناء المواسم [٣]. أما المصريون فلم يكونوا بأقل شأن من أهل العراق، فعرف عنهم استيراد عدد من البضائع المشهورة في أسواق مكة إلى مصر [٤]، إضافة لجلب عدد من البضائع إلى مكة [٥]. كما

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، بيروت ط٤، دار الكتاب العربي، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ج٨، ص١٠٧ .

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى ، ج٤، ص٢٥٨ .

(٣) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم . تحقيق، محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا . بيروت : ط١، دار الكتب العلمية، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ج١٤، ص٣٣٧ .

(٤) عطية القوصي، تجارة مصر في البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية، القاهرة : دار النهضة العربية، ١٩٧٦م، ص٢٧ .

(٥) المقدسي، أحسن التقاسيم ، ص١٦٥ ـ ١٦٦ .

شجع العبيديون التجار المغاربة ذوي الخبرة في هذا المجال على ارتياد الأسواق المكية[1]، وحثهم على التواجد الدائم فيها [2]. من جانب آخر فقد كانت الأسواق المكية فرصة للدولتين العباسية والعبيدية لفرض نفوذهما من خلال تداول العملات الخاصة بهم في مكة، ونشرها على نطاق أوسع [3].

ومن خلال المنطلقات السابقة فإننا لا نستبعد أن التحركات التجارية النشطة في الأسواق المكية، إضافة إلى موقع مكة التجاري المتميز قد دفع الدولتين العباسية والعبيدية للتنافس عليها، رغبة في الاستفادة من مناشطها التجارية المختلفة، خصوصاً وأننا نلحظ من خلال تتبع سياسة حكام مكة أن سيطرة إحدى القوى المتنافسة على المنطقة تمنح رعاياها امتيازات تعفيهم عن دفع الأموال التي اعتاد شريف مكة فرضها على القادمين إلى مكة.

إضافة إلى ذلك فقد تكون سياسة العبيديين التي انتهجوها في سبيل تحويل طريق تجارة الشرق من الخليج العربي إلى البحر الأحمر ـ والتي شرعوا في تنفيذها عقب سيطرتهم على مصر [4]ـ سبباً في حرص

---

(١) كان التجار المغاربة يتوافدون بكثرة على مكة خصوصاً أثناء فترات السيطرة العبيدية عليها ، وكانوا يأتون إليها عبر مصر ، وقد استمر توافدهم بكثافة على الأسواق المكية خاصة في المواسم ، إلى ما بعد سقوط الدولة العبيدية ، حيث أشار ابن جبير إليهم في معرض حديثه عن البضائع والسلع المغربية المتوافرة في أسواق مكة . (ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، ص٩٧ ؛ أحمد الزيلعي، مكة وعلاقاتها الخارجية، ص١٨٤) .

(٢) أحمد الزيلعي، مكة وعلاقاتها الخارجية، ص١٨٤ .

(٣) عطية القوصي، تجارة مصر في البحر الأحمر ، ص٢٥٠ .

(٤) أيمن فؤاد سيد، تاريخ المذاهب الدينية في بلاد اليمن حتى نهاية القرن السادس الهجري . ط١، بيروت : الدار المصرية اللبنانية، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ص١٠٦ ـ ١٠٩ .

العباسيين على مواجهة هذه السياسة، أو تحقيق قصب السبق في الاستفادة من هذا التحول التجاري الذي سيؤثر على اقتصاد دولتهم.

٥. تأمين الحرية الدينية للأتباع.

تُعد شعيرة الحج إلى مكة الركن الخامس من أركان الإسلام، والتعبد في الحرم المكي لا يعدله في الأجر مكان سواه، ولذا فكانت مكة منذ ظهور الإسلام مقصداً للحجاج والزوار والراغبين في المجاورة [(١)] من المسلمين من أصقاع المعمورة. وعندما كانت مكة بعيدة عن التنافس القوي بين السلطات الإسلامية إبان القرون الإسلامية الأولى كان المجال متاحاً للمسلمين للحج والتعبد دون منغصات أو مضايقات تذكر، ولكن هذه الحرية فُقدت إلى حدٍ كبيرٍ عقب دخول مكة في معمعة التنافس السياسي والمذهبي القائم بين السلطتين العباسية والعبيدية، فأصبح أتباع كل قوة من هذه القوى لا

---

(١) المجاورة، الجار هو الذي يجاورك، تقول جاورته مجاورة وجِوَاراً وجُوَاراً . واستجاره من فلان فأجاره منه، وأجاره الله من العذاب أنقذه، والمجاورة : الاعتكاف في المسجد . الجوهري، الصحاح. بيروت : ط٣، دار العلم للملايين، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ج٢، ص٦١٧ . ٦١٨ ((مادة جور" . وقد عُرفت المجاورة . كظاهرة اجتماعية في مكة . منذ ظهور الإسلام، وذلك استناداً على ما جاء في القرآن الكريم والسنة المطهرة من آيات وأحاديث تفصح عن مكانة مكة الدينية السامقة، وتبين مدى فضلها وقدسيتها. وقد شخص إلى مكة عدد كبير من الصحابة راغبين المجاورة فيها، كما أمّ مكة مع تعاقب الأزمان الكثير التابعين وأتباعهم من السلف الصالح من علماء وعبّاد وزهاد وغيرهم مؤثرين قضاء حقبة من حياتهم في صفاء روحي مجاورين بيت الله الحرام. (عبد العزيز بن راشد السنيدي، المجاورون في مكة وأثرهم في الحياة العلمية خلال الفترة من (٥٧٠ . ٦٦٠هـ) . مكة المكرمة : جامعة أم القرى، الندوة العلمية الكبرى بمناسبة اختيار مكة المكرمة عاصمة للثقافة الإسلامية لعام ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م . المحور الثالث، ج٢، ص٨٠٧).

يـأمنون علـى أرواحهـم عنـدما تصبـح مكـة خاضـعة للقـوة الأخـرى، وانقطـع الحج من بعض الأقاليم في كثير من السنوات [١].

ولا شك أن تحقيق الرغبات السابقة والحد من الأخطار والمنغصات المذكورة بما يؤمن الحرية الدينية للأتباع وتأدية فريضة الحج بيسر وسهولة يقتضي من كل دولة السعي الحثيث لفرض سلطتها على مكة، خصوصاً وأننا لا نستبعد أن هذه السلطات ـ وإن كانت المصادر لا تسعفنا بمعلومات كافية حول الموضوع ـ قد واجهت ضغوطاً متنوعة من أتباعها، تنادي بضرورة توفير السبل الكفيلة بتأمين أداء المناسك، فضلاً عن التعبد بحرية تامة أثناء الزيارة أو المجاورة في مكة. خاصة وأننا نجد أن أهل السنة من أتباع العباسيين قد عانوا الكثير من المشاكل في ظل السيطرة العبيدية على مكة[٢]، إضافة لقلة أعداد المجاورين في مكـة آنـذاك [٣]،سـيما مـن العـراق والمشـرق الإسـلامي في ظـل المضـايقات الـتي يتعرضون لها من قبل أتباع العبيديين [٤].

٦ ـ الرغبة في استمرار التواصل مع بلاد اليمن.

تُعد بلاد الحجاز بوضعها الجغرافي نقطة وصل بين بلاد اليمن من جهة والعراق ومصر من جهة أخرى، وقد أدى ضعف الخلافة العباسية إبان القرن

---

(١) سيأتي الحديث مفصلاً عن انقطاع الحج وتعرض الحجاج للمصاعب في طرق الحج في المبحث الثاني من الفصل الثاني بمشيئة الله تعالى.

(٢) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، بيروت : دار الكتب العلمية، (د . ت)، ج٩، ص١١٢ ؛ الفاسي، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين . تحقيق، فؤاد سيد، بيروت : ط٢، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ج٧، ص٣٨١، ج٨، ص٨٤، ١٠١ .

(٣) الإسفراييني، زبدة الأعمال، ص١٤١ ؛ عبد العزيز راشد السنيدي، المجاورون في مكة . المحور الثالث، ج٢، ص٤ـ٥ .

(٤) لمزيد من المعلومات حول هذا الجانب، انظر ؛ عبد الرحمن السنيدي، أمن حركة الحج من المشرق الإسلامي إلى مكة المكرمة، ص٣٢ـ٣٣ .

الثالث الهجري إلى استقلال عددٍ من القوى في هذا الإقليم عن الدولة العباسية، ولكن هذه القوى استمرت في ولائها للعباسيين من حيث إقامة الخطبة لهم ونقش السكة باسمهم، وكان ظهور الدعوة الإسماعيلية[1]، ثم نجاحها في إقامة الدولة العبيدية في شمال أفريقية قد دفع بعض دعاة الإسماعيلية لإقامة دولة لهم في بلاد اليمن، كما استغل الزيدية[2] ضعف الدولة العباسية وبُعد بلاد اليمن عن مركز الخلافة فأقاموا دولة لمذهبهم الزيدي هناك. وقد أدى تزامن هذه الدول واختلاف مذاهبها وتوجهاتها الدينية والسياسية إلى حدوث نزاعاتٍ سياسية وصراعاتٍ عسكرية وفكرية متعددة، كما ارتمت هذه القوى من خلال الدعوة على المنابر في أحضان

---

(١) فرقة تنسب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ١٣٨هـ/٧٥٥م, والمقصود بالإسماعيلية الفرقة التي تعرف بالباطنية أو الحشيشية أو الملاحدة التي أسسها الحسن بن محمد الصباح الذي رحل من إيران إلى مصر وقابل المستنصر العبيدي وتلقى منه مبادئ الدعوة ثم عاد إلى بلاد فارس في عام ٤٨٣هـ/١٠٨٨م, واستولى على قلعة آلموت التي عرفت باسم عش الغراب لمناعتها وارتفاعها, ووضع الحسن الصباح لأتباعه تنظيما دقيقا حيث قسمهم إلى خمس مراتب ,ألف كتاب من أربعة فصول ضمنه أهم مبادئ دعوته , وجند فئة من أتباعه يتميزون بقوة أبدانهم وطاعتهم العمياء واشتهر بتنفيذ الاغتيالات السياسية .(عادل سالم العبد الجادر , الإسماعيليون الدعوة والدولة في اليمن ,ط١ , الكويت ٢٠٠٠م , ص ١٩- ٢٣).

(٢) الزيدية دولة شيعية أسسها في اليمن الإمام الهادي يحيى بن الحسين الرسي سنة ٢٨٤هـ/٨٩٦م وجعل عاصمتها مدينة صعدة ، وسميت بالزيدية نسبة للإمام زيد بن علي بن الحسين . وهي فرق متعددة . للمزيد من المعلومات عن هذه الدولة ، انظر : (عمارة اليمني، تاريخ اليمن، المسمى "المفيد في أخبار صنعاء وزبيد . تحقيق وتعليق، محمد بن علي الأكوع، صنعاء : ط٣، المكتبة اليمنية للنشر والتوزيع، ١٩٨٥م ؛ العلوي ، سيرة الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين . تحقيق ، سهيل زهار ، بيروت : ط٢ ، دار الفكر ١٤٠١هـم١٩٨١م ؛ أيمن فؤاد سيد، تاريخ المذاهب الدينية في بلاد اليمن ؛ إسماعيل بن علي الأكوع ، الزيدية : نشأتها ، معتقداتها . صنعاء : ط٢ ، مكتبة الجيل الجديد ، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م) .

القـوتين المتنافسـتين علـى بـلاد الحجـاز وهمـا: الـدولتان العباسـية والعبيدية[1].

ومـن خـلال ذلـك فإننـا لا نشـك في أن كلتـا القـوتين قـد حرصـت علـى استمرار نفوذهما في بلاد اليمن، والسعي حثيثاً في سبيل بقاء هذا النفوذ من خلال بسط سلطتهما على بلاد الحجاز لكونها حلقة الوصل الفعلية التي تضمن ولاء هذه القوى، فضلاً عن زرع الطمأنينة في نفوس حكام وأتباع هذه الدويلات عندما تكون قريبة منهم. إضافة إلى ذلك فإن نفوذ أي قوة على بلاد اليمن سيضمن لها الاستفادة من التحركات التجارية التي بدأت تنشط ـ كما سبقت الإشارة إلى ذلك ـ بشكل ملحوظ في الموانئ اليمنية وعبر البحر الأحمر آنذاك.

٧ ـ عوامل أخرى.

هنـاك بعـض الأسـباب الـتي دفعـت العباسـيين لبسـط نفـوذهم علـى مكـة، وربمـا ألحـت علـيهم في الـدخول في منافسـة مـع الدولـة العبيديـة عليهـا. فالدولة العباسية قد قامت ـ كما هو معروف ـ على أنقاض الدولة الأموية وخلفتها في حكم الأمصار الإسلامية قاطبة، وكان من أبرز ذلك بلاد الحجاز. ومن هذا المنطلق فإننا نرى أن الدولة العباسية لن تفرط في هذا الإرث المكتسب المتمثل في بلاد الحجاز، سيما وأنه يمثل أهم أقاليم الدولة الإسلامية بما يضم من مقدسات مهمة ينظر إليها عامة المسلمين بروح الانتماء والولاء.

---

(١) ابن حوقل، صورة الأرض، بيروت : دار مكتبة الحياة، ١٩٧٩م، ص٣٢ ؛ عمارة اليمني، تاريخ اليمن، ص٥٥ وما بعدها.

ومن جهة أخرى فإننا نلحظ أن للقوى العسكرية التي فرضت نفوذها على الخلافة العباسية أثر واضح في دخول العباسيين في منافسة شديدة مع العبيديين على مكة خاصة وبلاد الحجاز بصفة عامة، ولعل في حرص السلطة السلجوقية على مدّ سلطتها على بلاد الحجاز بعد أن بسطت سلطتها على الخلافة سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م، وحثهم شريف مكة إقامة الدعوة للخلافة العباسية والسلطة السلجوقية على منابر مكة، وبذلهم الأموال في سبيل تحقيق ذلك[1]، خير دليل على مدى تأثير هذه السلطات في دخول العباسيين في منافسة مع العبيديين على المنطقة.

وكان العباسيون خصوصاً في عهودهم الأولى قد دأبوا على تقديم الخدمات المختلفة لبلاد الحرمين الشريفين، سواءً كان ذلك في بناء المرافق الخيرية المختلفة، أو في تقديم الأعطيات والصدقات المتنوعة، وعلى الرغم من أن العباسيين قد خف بذلهم في هذا الجانب كثيراً قبل دخولهم في منافسات على بلاد الحجاز مع العبيديين، إلا أن إقصاء نفوذهم عن المنطقة سيحرمهم . بلا ريب . من الإسهام في هذه الأعمال الخيرية التي يحرص عليها كل مسلم قادر ومحب للخير، خاصة وأنهم يرون أن زعامة العالم الإسلامي حقاً من حقوقهم دون منازع. ولا غرو أن هذا الأمر سيدفعهم للسعي في سبيل فرض سلطتهم على مكة لتحقيق هذا المراد، ولا نستبعد أيضاً أنهم قد واجهوا الكثير من الضغوط من قِبل أتباعهم الراغبين في أعمال الخير. ولعل ما يؤكد ذلك الإقبال الواضح

---

(١) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ، ج٨، ص١٠٧ ؛ اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان . القاهرة : ط٢، دار الكتاب الإسلامي، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، ج٣، ص٨٥ ؛ الفاسي، شفاء الغرام، ج٢، ص٣١٢ .

على أعمال الخير في مكة بعد أن نجحت الدولة العباسية في بسط سلطتها عليها في المرحلة الثانية من مراحل التنافس مع العبيديين [(1)].

وبالنسبة لمصر فإن الحجاز تعتبر منطقة مهمة لها من الناحية العسكرية، ويبدو أن العبيديين فطنوا لهذا الجانب ، إذ أن كل سياسة دفاعية أو هجومية للدول القائمة في مصر تتخذ مجالها في منطقة شمال البحر الأحمر وجنوب الشام [(2)].

المبحث الثاني : مراحل التنافس.

حرص خلفاء بني العباس، خصوصاً في العصر العباسي الأول، على إحكام القبضة على مكة, وذلك من خلال حرصهم على تعيين ولاة عرفوا بالكفاءة من الأسرة العباسية نفسها ، ومن الدعم والمراقبة المتواصلة، ولكن ما لبث هذا الوضع أن تغير خلال القرن الثالث الهجري وما بعده، وذلك عقب تغلغل الأتراك في جسم الدولة العباسية، وإمساكهم بزمام الأمور، والتصرف في الدولة ومواردها[(3)]، فقلّ لذلك الاهتمام بمكة، وكثرت المشاكل الداخلية فيها، وتدهورت أحوالها العامة، مما جعل هذه البلدة مطمعاً للخارجين على الدولة، ومن أمثلة ذلك تطلع أحمد بن طولون لضمها إلى سلطته في مصر سنة ٢٦٩هـ/٨٨٢م [(4)]. وكذلك هجوم القرامطة

---

(١) ابن جبير، الرحلة، ص١٦٢-١٦٤ ؛ ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق، د . أحمد أبو ملحم ورفاقه. بيروت : ط١، دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ج١٢، ص٣٢٠، ج١٣، ص٨٩، ١٤٧ ؛ الفاسي، العقد الثمين، ج٢، ص٩٤، ج٤، ص٣١٧-٣١٨، ج٥، ص١٢، ٣٩، ج٦، ص١٨١-١٨٢ .

(٢) صبحي عبد المنعم، العلاقات بين مصر والحجاز ، ص٤١ .

(٣) حول نفوذ الأتراك وسطوتهم في الدولة العباسية، وحالة العباسيين في فترة هيمنة الأتراك على الخلافة، راجع ؛ عبد العزيز بن محمد اللميلم، نفوذ الأتراك في الخلافة العباسية وأثره في قيام مدينة سامراء (٢٢١ - ٢٧٩هـ) .

(٤) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٩، ص٦٥٢ - ٦٥٣ .

عليها سنة ٣١٧هـ/٩٢٩م ، وما أحدثوه فيها من انتهاك للحرمات وتخريب للممتلكات . كما سبق وأن ذكرنا .

وفي النصف الثاني من القرن الرابع الهجري دخلت مكة في مرحلة جديدة عقب إعلان الأشراف العلويين من بني الحسن استقلالهم في حكمها، وتذبذب ولائهم أكثر من قرنين من الزمن بين القوتين الإسلاميتين المتنافستين على بلاد الحجاز العباسية في العراق والعبيدية في مصر، وكانت الكفة تميل فيه في الفترة الأولى للعبيديين، ثم أصبحت بعد ذلك في صالح العباسيين. وسوف نتطرق في الصفحات القادمة إلى طبيعة هذا النفوذ، وتقسيمه بحسب غلبة هذه القوى على مكة.

أ. المرحلة الأولى: غلبة النفوذ العبيدي (٣٥٨ـ٤٦٢هـ/٩٦٨ـ١٠٦٩م).

لم تكن رغبة العبيديين في فرض سلطتهم على الحجاز وليدة وصولهم مصر وإقامة حكمهم فيها سنة ٣٥٨هـ/٩٦٨م، وإنما تعود لفترة تاريخية أقدم وذلك خلال محاولة أبي عبيد الله المهدي . أول خلفاء العبيديين . السيطرة على الإسكندرية سنة ٣٠٦هـ/٩١٨م، حيث كلف قائده لهذا الجيش، وهو ابنه وولي عهده أبا القاسم، بالاتصال بأهل مكة طالباً منهم الاستجابة لدعوته والدخول في طاعته، بعد أن وعدهم بحسن السيرة فيهم، لكن أهل مكة رفضوا هذه الدعوة [1]. ولم ييأس العبيديون من التقرب لبلاد الحجاز وأهله، فنراهم يستغلون فرصة خلاف وقع فيه قتال بين الأشراف العلويين من بني الحسن وبين الأشراف الطالبيين من بني جعفر بن أبي طالب سنة

(١) القرطبي، صلة تاريخ الطبري، ج١١ (ذيول تاريخ الطبري) تحقيق ، محمد أبو الفضل إبراهيم . بيروت : ط٣، دار سويدان، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م، ص٧٧ .

٣٤٨هـ/٩٥٩م [١]، ليتقربوا من أشراف الحجاز، ويثبتوا من خلال ذلك حبهم لهم، واهتمامهم بشؤونهم [٢].

وقد استفاد العبيديون فيما بعد من هذه الفرصة التي أحسنوا استغلالها، بعد أن اكتسبوا سمعة طيبة في أوساط أشراف الحجاز، ولم يلبث هؤلاء الأشراف أن ردوا الجميل للحاكم العبيدي (المعز لدين الله ٣٤١ ـ ٣٦٥هـ/٩٥٢ ـ ٩٧٥م) الذي نجح آنذاك في السيطرة على مصر [٣]، حيث قاموا بالدعوة له على منابر الحرمين بعد أن أعلنوا استقلالهم بحكم بلاد الحجاز عن الدولة العباسية سنة ٣٥٨هـ/٩٦٨م [٤]، عقب سيطرة بني الحسن على ولاية مكة[٥]، وبني الحسين على المدينة[٦]، وكان أول حكام مكة من بني الحسن جعفر بن محمد بن الحسن بن محمد بن موسى، ويعتبر هذا الحدث بداية النفوذ العبيدي على بلاد الحجاز.

---

(١) المقريزي، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء . تحقيق، جمال الدين الشيال، القاهرة: ط٢، وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، ج١، ص١٠١ .

(٢) سوف نشير لهذا الوفد وما قام به في المبحث الثالث من هذا الفصل بمشيئة الله تعالى.

(٣) أحمد الزيلعي، مكة وعلاقاتها الخارجية، ص٤٢ ؛ صبحي عبد المنعم ، العلاقات بين مصر والحجاز، ص٨٠.

(٤) الفاسي، شفاء الغرام، ج٢، ص٣٠٦ ـ ٣٠٧ ؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج١، ص١٠١ ؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٤، ص٣٢ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٠٦ .

(٥) هناك من يرى أن جعفر بن محمد كان قد استقل بمكة قبل هذا التاريخ ، وتحديداً في سنة ٣٥٧هـ/٩٦٧م أيام حكم الدولة الإخشيدية في مصر . (ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص٤١) .

(٦) استمر بنو الحسين يحكمون المدينة إلى أن قدم عليهم من مصر طاهر بن مسلم بن محمد العلوي وكان سبب قدومه من مصر أن المعز العبيدي قد خطب ابنته فرفض مسلم ، مما جعل المعز يسخط عليه ويسجنه ويصادر أمواله ، فهرب مسلم من سجنه ، حيث مات ، فلحق ابنه طاهر بالمدينة فقدمه بني الحسن على أنفسهم ، وقلدوه إمارة المدينة . (ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص٤٧ ؛ ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، ج٤ ، ص١٣٩ ـ ١٤٢).

وقد قدر العبيديون لأشراف الحجاز هذا الموقف، كما أنهم فرحوا بهذا الإنجاز الذي يصب في مصلحتهم السياسية والفكرية، خصوصاً وقد دخلوا آنذاك في صراع متأزم مع العباسيين حول الأحقية بخلافة المسلمين. وما أن تأكد الحاكم العبيدي المعز لدين الله (٣٤١ ـ ٣٦٥هـ/٩٥٢ ـ ٩٧٥م) من الدعوة له على منابر الحرمين حتى أمر قائده جوهراً الصقلي [١] ببعث وفدٍ من قبله لتفريق الأموال والأعطيات المختلفة على أهل الحرمين وحكامه، فوافى هذا الوفد الحج ووزع ما معه من أموال في مكة والمدينة [٢].

وفي سبيل حماية هذا التقدم السياسي والانتصار الحسي والمعنوي الذي أحرزه العبيديون ضد خصومهم، والمتمثل في الدعوة لهم على منابر الحرمين، فقد حرص أولئك أن يحافظوا على ذلك بالسيطرة على بلاد الشام لضمان تأمين الطريق الرابط لهم ببلاد الحجاز [٣]. إضافة إلى مدّ

(١) هو ، جوهر بن عبد الله الصقلي الرومي، ولد سنة ٣١٢هـ/٩٢٤م . وقد ارتفع أمره حتى وصل إلى مرتبة الوزارة . شارك في توسعات العبيديين في المغرب العربي وتنظيم شؤونها، كما قاد الجيش الذي كلف بضم مصر للدولة العبيدية، وقد نجح في ذلك، بعد أن أنهى الوجود الإخشيدي فيها، وأنشأ في مصر مدينة القاهرة . وشارك في الحروب التي قامت بين العبيديين والقرامطة على بلاد الشام . توفي بالقاهرة سنة ٣٨١هـ/٩٩١م . (ابن خلكان، وفيات الأعيان ، ج١، ص٣٧٥ ـ ٣٨٠ ؛ المقريزي، المقفى الكبير . تحقيق، محمد البعلاوي . بيروت : ط١، دار الغرب، ١٤١١هـ/١٩٩١م، ج٣، ص٨٣ ـ ١١١) .

(٢) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج١، ص١٢٢ ؛ الجزيري، الدرر الفرائد في أخبار الحاج وطرق مكة المعظمة . تحقيق : حمد الجاسر، الرياض : ط١، دار اليمامة للبحث والنشر والترجمة ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ج١، ص٥٢٤ .

(٣) أحمد الزيلعي، مكة وعلاقاتها الخارجية، ص٤٢ .

نفوذهم إلى بلاد اليمن بعد أن أعلنت بعض السلطات هناك الدعوة للعبيديين (١).

ويبدو أن نفوذ العبيديين على مكة لم يكن مستقراً في بدايته، ولم يتمكن العبيديون من إحكام قبضتهم عليها ، كما لم يكن لدى أميرها جعفر بن محمد القوة والنفوذ اللذان يؤهلانه للبقاء في ولائه للعبيديين، خصوصاً في ظل رغبة العباسيين في إعادة نفوذهم على الحرمين الشريفين، وتوتر العلاقة بين القرامطة والعبيديين (٢). فما أن حلت سنة ٣٥٩هـ/٩٦٩م حتى نجح القرامطة - الذين تحالفوا آنذاك مع العباسيين، وتحسنت العلاقة بينهم - في إعادة سلطة العباسيين على مكة، فدعي على منابرها للخليفة العباسي المطيع (٣٣٤ - ٣٦٣هـ/٩٤٥ - ٩٧٣م)، وحج الوفد العراقي، وقدَّم بعض الهدايا للكعبة(٣) تأكيداً للسيادة وإثباتاً لها أمام المسلمين (٤).

ولم يقف العبيديون عاجزين أمام هذا النصر العباسي، فحاولوا استعادة نفوذهم في مكة سنة ٣٦٠هـ/٩٧٠م بمساعدة من أشراف المدينة، ولكنهم لم

---

(١) ابن حوقل، صورة الأرض، ص٣٢ . يقول ابن حوقل مبيناً ذلك - بعد أن ذكر بعض أحوال بني زياد وصاحب إقليم عثر (المخلاف السليماني) وحاكم حلي : (وقد خطب الجميع لصاحب المغرب في هذا الوقت) .

(٢) لمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع، راجع ؛ أحمد الزيلعي، مكة وعلاقاتها الخارجية، ص٤٣ .

(٣) لإلهام أحمد البابطين بحث قيم حول هذا الموضوع بعنوان : (الإهداءات المنقولة إلى الكعبة المشرفة منذ ما قبل الإسلام حتى العهد السلجوقي) . المجلة العربية للعلوم الإنسانية، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، ع٨٩، س٢٣، ٢٠٠٥م، ص٨١-١١٢ .

(٤) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص٢٠٥ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٠٧ ؛ ابن ظهيرة، الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف. المكتبة الشعبية، بيروت : ط:٤، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م، ص٧٢ .

يفلحوا في ذلك بعد صد القرامطة والمكيين لهم[1]. ثم عاودوا الكرة عن طريق تسليط القبائل الواقعة على طرق الحج على الحجاج القادمين من العراق . كما سيأتي الحديث عن ذلك لاحقاً . وبالفعل فقد نجح العبيديون في قطع الطريق، ومنع أهل العراق والمشرق الإسلامي من الحج، وقد مكن ذلك أتباع العبيديين والموالين لهم في مكة من إعادة الخطبة لهم سنة ٣٦٣هـ/٩٧٣م [2]. ويُعد هذا العام بداية الدعوة الكاملة للفاطميين في الحجاز [3].

وتعبيراً عن الفرحة بعودة مكة إلى النفوذ العبيدي من جديد فقد أرسل الحاكم العبيدي المعز لدين الله إلى مكة شمسة [4]ثمينة فاقت في القيمة والحجم ما كان يرسله العباسيون من هذا النوع[5]. ويبدو أن المعز لدين الله

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٢٧٣ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٠٨؛ العصامي، سمط النجوم العوالي ، ج٤، ص٢١٠. وقد ذكر ابن فهد هذه المحاولة في حوادث سنة ٣٦١هـ/٩٧١م .

(٢) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص٢٣٥؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٧، ص٥٨ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤١٠ . وكانت الخطبة لهم آنذاك في مكة والمدينة . ويرى المقريزي أن الخطبة تمت للعبيديين في الحجاز سنة ٣٦٤هـ . (اتعاظ الحنفا، ج١، ص٢٢٥) .

(٣) صبحي عبد المنعم، العلاقات بين مصر والحجاز، ص٨٤ .

(٤) الشمسة، حلية ضخمة ترسل مع أمير الحاج لتعلق في وجه الكعبة، ثم تنزع يوم التروية. وكانت تعمل من الذهب والأحجار الكريمة، وهي من أعظم الهدايا التي تصل إلى مكة كل سنة . وسميت بالشمسة لأن لها اثنى عشر ذراعاً تشبه أشعة الشمس، وتمثل عدد شهور السنة . وأول من أرسلها الخليفة العباسي المتوكل (٢٣٢ . ٢٤٧هـ/٨٤٦ . ٨٦١م) . (أحمد الزيلعي، مكة وعلاقاتها الخارجية، ص٩٥ . ٩٨ ؛ صبحي عبد المنعم ، العلاقات بين مصر والحجاز، ص٨٤) .

(٥) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج١، ص١٤٠ . ١٤١ ؛ صبحي عبد المنعم، العلاقات بين مصر والحجاز، ص٨٤ . ٨٥ ؛ إلهام البابطين، الإهداءات المنقولة إلى الكعبة المشرفة، ص٩٢ . ٩٤ .

أراد أن يبين للحجازيين من خلال بعث هذه الهدية القيمة مدى ثراء دولته في وقت ضعف فيه العطاء العباسي، وعانى الحجاز من الفقر والحاجة[١].

ورغم تحسن العلاقات وتطورها لمصلحة العبيديين، حيث اتضح ذلك من خلال بعث الوفود من مكة إلى مصر، وكتابة المراسلات بين الطرفين، والتي تأكد من خلالها رغبة أهل الحجاز الاستمرار تحت السلطة العبيدية [٢]، إلا أن الدعوة لحكام مصر لم تستمر، خصوصاً بعد وفاة المعز لدين الله وتولي ابنه العزيز السلطة . حيث عادت الخطبة للعباسيين على منابر مكة سنة ٣٦٥هـ/٩٧٥م بعد أن أقدم عيسى بن جعفر بن محمد . الذي خلف والده في حكم مكة في هذه السنة . على قطع الدعوة للعبيديين وإقامة الخطبة للخليفة العباسي الطائع (٣٦٣ . ٣٨١هـ/٩٧٣ . ٩٩١م) [٣].

ولكن الحاكم العبيدي العزيز بالله (٣٦٥ . ٣٨٦هـ/٩٧٥ . ٩٩٦م) بادر بمعالجة الوضع فأرسل على الفور قوة من مصر إلى بلاد الحجاز لتعيد نفوذ العبيديين هناك، وقد تحقق هدف العزيز بالله بعودة الخطبة له على منابر مكة والمدينة، بعد حصار لهاتين المدينتين والتضييق على أهلهما، اضطروا بسببه للإذعان للدولة العبيدية [٤].

---

(١) صبحي عبد المنعم ، العلاقات بين مصر والحجاز، ص٨٥ .

(٢) ابن ميسر، المنتقى من أخبار مصر، تحقيق، أيمن فؤاد سيد، القاهرة : المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، (د . ت)، ص١٦٦ ؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج١، ص٢٢٥ .

(٣) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج٤، ١٣٠ ؛ صبحي عبد المنعم ، العلاقات بين مصر والحجاز، ص٨٧ .

(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٧، ص٧٩ .

ورغم تصميم العبيديين على استمرار مكة تحت حكمهم، وميل أهل الحجاز خصوصاً الأشراف منهم لهذا التوجه [(١)]، إلا أن محاولات العباسيين كانت مستمرة لإعادة الدعوة لهم على منابر الحرمين، ولهذا الغرض أرسل عضد الدولة البويهي [(٢)]جيشاً إلى مكة سنة ٣٦٨هـ/٩٧٨م، نجح في إجبار أشرافها على الخضوع والدعوة مجدداً للخليفة العباسي والسلطان البويهي عضد الدولة[(٣)].

ولم تلبث مكة أن عادت في العام التالي للنفوذ العبيدي، حيث يقول نجم الدين بن فهد بعد أن ذكر أن الخطبة سنة ٣٦٨هـ/٩٧٨م كانت للعباسيين[(٤)]: (ولم تقم بعدها خطبة للعباسيين بمكة، وعادت لخلفاء مصر). ولا تمدنا المصادر. حسب إفادة صبحي عبد المنعم محمد. حول كيفية إعادة الخطبة للعبيديين بالحرمين ؟ وهل واجه العبيديون المد العباسي البويهي بحركة مماثلة حتى تمكنوا من فرض نفوذهم على مكة[(٥)].

---

(١) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٩٧ . ٩٨ ؛ عبد العزيز بن راشد السنيدي، مكة خلال النصف الثاني من القرن الرابع الهجري كما وصفها المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، الرياض : ط١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، ص٣٩ .

(٢) هو، عضد الدولة فنا خسرو بن ركن الدولة الحسن بن بويه، تولى السلطة البويهية سنة ٣٦٧هـ/٩٧٧م، وشارك الخليفة العباسي في حكم بغداد بعد أن أبعد نفوذ ابن عمه بختيار . وكان عاقلاً، فاضلاً، حسن السياسة، كثير الإصابة، شديد الهيبة، بعيد الهمة، ثاقب الرأي، محباً للفضائل وأهلها . توفي سنة ٣٧٢هـ/٩٨٢م ببغداد عن عمر يقارب (٤٧) سنة . (ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٧، ص١١٣) .

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٢٧٤ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ٤١٦ .

(٤) إتحاف الورى، ج٢، ص٤١٦ .

(٥) صبحي عبد المنعم ، العلاقات بين مصر والحجاز، ص٨٩ .

ومنذ ذلك التاريخ تراجع العباسيون كثيراً عن طموحهم في الدعوة لهم على منابر مكة، بعد أن أحسوا بميل الأشراف للارتباط بمصر، وصعوبة مجابهة الدولة العبيدية بالقوة، تلك الدولة التي بدأت - أيضاً - تغدق الأموال على الحجازيين، وتتابع الوضع من خلال وفد الحج، المزود بالقوة، والمُحَمّل بالثروات الضخمة لتوزيعها على أهل مكة [1]. وبهذا فقد استمرت مكة تابعة للعبيديين فترة طويلة من الزمن، تخللها محاولتان عباسيتان يائستان لإبعاد النفوذ العبيدي عن بلاد الحجاز لم تفلحا أو تؤديا إلى أي نتيجة في مصلحة العباسيين، وكانت المحاولة الأولى: عندما حاول العباسيون إثارة بعض القبائل القاطنة على طريق الحج المصري، وتحريضهم للثورة ضد الحكم العبيدي في الحجاز[2]. أما المحاولة الثانية: فكانت في محاولة جذب ولي عهد مكة آنذاك أبي الفتوح الحسن بن جعفر من قبل الخليفة العباسي القادر بالله (٣٨١ - ٤٢٢هـ/٩٩١ - ١٠٣٠م) عندما كتب إليه سنة ٣٨١هـ/٩٩١م ورغّبه في الطاعة، ووعده باتصال الإمارة في بيته[3].

وبعد أن تولى أبو الفتوح إمارة مكة خلفاً لأخيه عيسى سنة ٣٨٤هـ بقيت مكة في ولائها للسلطة العبيدية، حيث يتضح ذلك من خلال سياسة أبي الفتوح الرامية إلى التمسك بالتبعية للحاكم العبيدي، وزيارته لمصر [4].

---

(١) ابن ميسر، المنتقى، ص١٧١ ؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج١، ص٢٤٦، ٢٥٢، ٢٧٨ - ٢٧٩ .

(٢) أحمد الزيلعي، مكة وعلاقاتها الخارجية، ص٤٦ .

(٣) نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٢١ ؛ السنجاري، منائح الكرم، ج٢، ص٢٢١. وسوف نلقي الضوء أكثر - بإذن الله - على هذا الموضوع في المبحث الثالث من هذا الفصل بمشيئة الله تعالى.

(٤) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج٤، ص١٣٠ ؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٦٦ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٢٤ .

وقد استمر ذلك حتى سنة ٤٠١هـ/١٠١١م عندما أعلن أبو الفتوح نفسه خليفة في بلاد الحجاز، مناهضاً بذلك الدولة العبيدية ونابذاً لطاعتها[١].

ولم تلبث مكة أن عادت للنفوذ العبيدي، حيث قنع أبو الفتوح من حركته بالإياب والعودة لإمارة مكة، معلنا الخضوع التام للدولة العبيدية. وقد استمر ذلك في الفترة المتبقية من حكمه، والتي امتدت إلى سنة ٤٣٠هـ/١٠٣٨م[٢]، رغم بعض التقصير الذي حصل من الدولة العبيدية خلال هذه الفترة، والمعاملة السيئة للوفد الذي بُعث من مكة إلى مصر يطلب المساعدة العاجلة من العبيديين[٣].

وفي عهد شكر الذي خلف والده أبا الفتوح على الإمارة سنة ٤٣٠هـ/١٠٣٨م[٤]بقي الوضع على ما هو عليه من الطاعة للعبيديين، رغم وجود بعض المعارضات الرامية إلى إعادة الخطبة للعباسيين في العراق من قبل بعض الأشراف، والتي تغلب عليها شكر بعد دعم لقيه من العبيديين عقب خروجه إليهم في مصر، واستمر شكر بن أبي الفتوح في ولائه للحكم العبيدي حتى توفي سنة ٤٥٣هـ/١٠٦١م[٥].

ورغم ما انتاب إمارة مكة من تدهور بعد وفاة شكر بن أبي الفتوح، عقب تولى أحد عبيده الإمارة من بعده ويدعى طراد بن أحمد، وانتزاع بني الطيب

---

(١) سيأتي الحديث عن هذه الحركة في المبحث الأول من الفصل الثاني. بمشيئة الله تعالى.

(٢) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج٤، ص١٣١ ؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٢٧٤ ؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٩٥ ؛ محمد جمال الدين سرور، سياسة الفاطميين الخارجية، ص٢٧ .

(٣) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج٤، ص١٣٠ ؛

(٤) ابن عنبة، عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب، بيروت : دار مكتبة الحياة، (د . ت)، ص١٠٣، ابن ظهيرة، الجامع اللطيف، ص١٨٩ .

(٥) أحمد السباعي، تاريخ مكة، ص٢٠١ ؛ سليمان عبد الغني مالكي، بلاد الحجاز منذ بداية عهد الأشراف حتى سقوط الخلافة العباسية في بغداد . الرياض : مطبوعات دار الملك عبدالعزيز، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص٣٤ ؛ أحمد الزيلعي، مكة وعلاقاتها الخارجية، ص٥٩ ـ ٦١ .

الحسنيين الإمارة في مكة [1]، إلا أن الولاء للعبيديين استمر، خصوصاً بعد أن كلف الحاكم العبيدي المستنصر (٤٢٧ ـ ٤٨٧هـ/١٠٣٥ ـ ١٠٩٤م) تابعه في بلاد اليمن على بن محمد الصليحي [2] بالتدخل في شؤون مكة، وإقرار الأوضاع فيها. وقد نجح الصليحي في الوصول إلى مكة سنة ٤٥٥هـ/١٠٦٣م، وفرض سلطته عليها، وأقرّ فيها الأوضاع [3]. كما قام بأعمال طيبة في مكة، يقول ابن الأثير في حوادث سنة ٤٥٥هـ/١٠٦٣م [4]: "وفيها دخل الصليحي صاحب اليمن مكة مالكاً لها، فأحسن السيرة فيها، وجلب إليها الأقوات، ورفع جور من تقدم، وظهرت منه أفعال جميلة".

---

(١) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص٤٧ ؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج٤، ص١٣٢؛ ابن فضل الطبري، إتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بني الحسن . تحقيق، محسن محمد حسن سليم، القاهرة : دار الكتاب الجامعي، (د . ت)، ج١، ص١٠٠ .

(٢) هو مؤسس الدولة الصليحية في بلاد اليمن . أعلن قيام دولته سنة ٤٣٩هـ/١٠٤٧م . ودعا للدولة العبيدية بعد أن اعتنق مذهبها، وأخذ الإذن من الحاكم العبيدي المستنصر بالله . واستطاع الصليحي أن يوحد بلاد اليمن تحت سلطته بعض أن قضى على نفوذ كثير من الدويلات في اليمن . كما منح حرية الأديان في دولته . وقد شهدت بلاد اليمن استقراراً في عهده . وقد استمر في حكم الدولة الصليحية حتى قتل على يد أبي سعيد الأحول النجاحي سنة ٤٥٩هـ/١٠٦٦م . (الخزرجي، العقد الفاخر الحسن في طبقات أعيان أهل اليمن . قسم المخطوطات، المكتبة المركزية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، رقم ٥٧١٣ ميكروفلم، ق٣٧ب . ٣٩ أ ؛ الكفاية والأعلام فيمن ولي اليمن في الإسلام . قسم المخطوطات، المكتبة المركزية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، رقم (١٠١٢٥) ميكروفلم، ق٢٤ب . ٢٧ب . ولمزيد من المعلومات عن الدولة الصليحية . انظر (الخزرجي، الكفاية والأعلام، ق٢٤ب . ٣٠ أ ؛ حسين بن فيض الله الهمداني، الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن من سنة ٢٦٨ . ٦٢٦هـ. صنعاء : ط٣، منشورات المدينة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م) .

(٣) يحيى بن الحسين، أنباء أبناء الزمن، ق٤٠ .

(٤) الكامل في التاريخ، ج٨، ص٩٦ .

وقد بقي الصليحي في مكة إلى سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٤م [١]، لكن بقاءه أقلق الأشراف الذين خشوا أن يذهب نفوذهم في مكة، والذي بذلوا من أجله الكثير من التضحيات منذ أن استقلوا بحكمها سنة ٣٥٨هـ/٩٦٨م، ولهذا فقد اقترحوا على الصليحي أن يترك مكة بعد أن يعين عليها من يراه مناسباً لحكمها من الأشراف. وبالفعل وافقهم الصليحي وأسند إمارة مكة لمحمد بن جعفر بن أبي هاشم من فرع الهواشم الحسنيين، وألزمه بالدعوة للعبيديين في مصر، ورجع إلى بلاد اليمن [٢]، بعد أن مدّ أمير مكة الجديد بقوة عسكرية ومعونات كافية [٣].

وكانت الظروف الحرجة التي مرت بها مصر في الفترة التالية قد أثرت في مواقف أمراء مكة نحو العبيديين، حيث دخلت بلاد مصر بفترات عصيبة، تمثلت في ضوايق اقتصادية، وأزمات معيشية، وأوبئة وقحط، وصراعات داخلية [٤]، أشغلت حكام الدولة العبيدية عن مكة، فتأخروا في دعمهم المعتاد، بل انقطعت المعونات والمواد الغذائية التي كانوا يرسلونها لحكام مكة وأهلها [٥].

---

(١) ابن فضل الطبري، إتحاف فضلاء الزمن، ج١، ص١٠١ .

(٢) ويقال أن سبب عودة الصليحي إلى اليمن وباء انتشر في جيشه، وأفنى معظمه، وكذلك خوفه من الأشراف بعد أن تحالفوا ضده . (الفاسي، شفاء الغرام، ج٢، ص٣١٠ - ٣١١ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٦٩ .

(٣) الفاسي، شفاء الغرام، ج٢، ص٣١٠ - ٣١١ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٦٩ ؛ عز الدين ابن فهد، غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام . تحقيق، فهيم محمد شلتوت . مكة المكرمة : ط١، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ج١، ص٥٠٩ - ٥١٠ .

(٤) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٢٢٤ - ٢٢٧ ؛ حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي . القاهرة : ط٧، ١٩٦٤م، ج٤، ص١٨٠ ؛ أحمد الزيلعي، مكة وعلاقاتها الخارجية، ص٧١ .

(٥) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج٤، ص١٣٢ ؛ الفاسي، العقد الثمين، ج١، ص٤٤١ .

فاضطر أمير مكة محمد بن جعفر في ظل هذه التغيرات للجوءَ إلى الدولة العباسية، والدعوة لها على المنابر سنة ٤٥٨هـ/١٠٦٥م، بعد أن بُذلت له الأموال الكثيرة [(١)] . ولكن الانتقاد الذي لقيه من بعض أتباعه، خصوصاً الأشراف منهم، قد جعله يعيد الخطبة للعبيديين مرة أخرى، واستمر في ذلك حتى سنة ٤٦٢هـ/١٠٦٩م [(٢)].

وفي ظل التغيرات والظروف السيئة التي طرأت على الدولة العبيدية، وتحسن الأوضاع في الدولة العباسية ـ كما سنذكر ـ فقد بدأت مرحلة جديدة في تاريخ مكة، غلب فيها نفوذ العباسيين هذه المرة، بعد أن أمسكوا بزمام الأمور، مستخدمين ـ كما سنرى ـ سلاح الترغيب تارة، وسلاح الترهيب تارة أخرى.

ب. المرحلة الثانية: غلبة النفوذ العباسي (٤٦٢-٥٦٧هـ/١٠٦٩-١١٧١م).

وصلت الخلافة العباسية إلى مرحلة كبيرة من الضعف والتردي في ظل هيمنة سلاطين بني بويه، الذين استبدوا بالأمور، وتصرفوا في الخلافة كيفما أرادوا، وأصبح الخلفاء ألعوبة في أيديهم، يعينون ويعزلون من شاءوا منهم. بل وصل الأمر إلى قيام أحد قوادهم وهو أبو الحارث البساسيري[(٣)] بالسيطرة على مقاليد الأمور ببغداد، بعد أن قام بعدد من الأعمال

---

(١) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج٤، ص١٣٢ ؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٢٧٥ .

(٢) نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٧١ .

(٣) للمزيد من المعلومات عن حركة البساسيري . انظر (محمد سالم بن شديد العوفي، العلاقات السياسية بين الدولة الفاطمية والدولة العباسية في العصر السلجوقي (٤٤٧-٥٦٧هـ) . الرياض: ط١، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص٨٨ ـ ١٢٨) .

التخريبية، والقتل والنهب [1]، وكاتب الحاكم العبيدي المستنصر معلناً التبعية له بعد أن خلع طاعة الخليفة العباسي في بغداد[2].

وكانت القوة السلجوقية السنية التي ظهرت في المشرق الإسلامي آنذاك أخر أمل للخلافة العباسية للنهوض من كبوتها، وتدارك نفسها قبل أن تطمس معالمها قوى متحالفة مع العبيديين ، ولم يكن من الخليفة العباسي القائم بأمر الله (٤٢٢ ـ ٤٦٧هـ/١٠٣٠ ـ ١٠٧٤م) سوى الاستنجاد بالسلطان السلجوقي طغرلبك (ت٤٥٥هـ/١٠٦٧م) [3]، الذي نجح آنذاك في توحيد أكثر أقاليم المشرق الإسلامي تحت سلطته[4].

وقد استغل طغرلبك هذه الدعوة، التي كانت توافق طموحه في توسيع ممتلكاته، وتحقق رغبته في الحد من النفوذ الشيعي المتزايد خلال هذه الفترة التاريخية، خاصة في العراق ومصر وأجزاء من الجزيرة العربية. فتحرك بقواته إلى بغداد، واستطاع أن يبسط سلطته عليها سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م [5]، فحرر بذلك الخلافة العباسية السنية من التسلط الشيعي البويهي، وحدّ بذلك من المشاكل التي كانت تعاني منها بغداد، كما وسع من ممتلكاته في الشمال والغرب. وبهذا دخلت الدولة العباسية في مرحلة جديدة، واستعادت شيئاً من هيبتها الروحية، في ظل وجود هيمنة قوة

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٨، ص٦٦ ـ ٦٧ .

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٨، ص٧١ .

(٣) مؤلف مجهول، تاريخ الدولة العباسية . قسم المخطوطات، المكتبة المركزية، الجامعة الأردنية، عمان، رقم ٤١ ميكروفلم، ق١٣٥ ب ؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٨، ص٧١.

(٤) مؤلف مجهول، الدولة القاهرة العباسية، ق١٣٥ ب؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٨، ص٢١ ـ ٢٦، ٣٠، ٣٣ ـ ٣٤، ٣٥، ٤١ ـ ٤٢، ٥٤، ٥٨، ٦٢، ٦٧ .

(٥) مؤلف مجهول، الدولة القاهرة العباسية، ق١٣٦ أ ؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٨، ص٧١ .

سنية عليها. ومنذ ذلك الحين بدأ الخلفاء العباسيون ـ بدعم ورغبة من سلاطين السلاجقة ـ يتطلعون إلى المقدسات الإسلامية، ويسعون لبسط نفوذهم عليها، خصوصاً في ظل الضعف الذي انتاب الدولة العبيدية في مصر، وعجزها عن القيام بالتزاماتها التي كانت تقدمها للحجاز وأهله، كما أشرنا إلى ذلك سابقاً.

ولقد توافقت الرغبات العباسية السلجوقية مع سياسة أمير مكة محمد بن جعفر الهاشمي الذي قرر البحث عن مصدر يساعده في القيام بأعباء إمارته، ويسد النقص في موارد بلاده الفقيرة، بعد التقاعس العبيدي عن دعم الحجاز. فما أن حلّ موسم حج ٤٦٢هـ/١٠٦٩م حتى خطب للخليفة العباسي القائم بأمر الله والسلطان السلجوقي ألب أرسلان (ت٤٦٥هـ/١٠٧٢م)، يقول ابن الأثير مبيناً ذلك [١]: "وفيها ـ أي سنة ٤٦٢هـ/١٠٦٩م ـ ورد رسول صاحب مكة محمد بن أبي هاشم ومعه ولده إلى السلطان ألب أرسلان يخبره بإقامة الخطبة للخليفة القائم بأمر الله وللسلطان بمكة، وإسقاط الخطبة للعلوي صاحب مصر، وترك الآذان بحي على خير العمل. فأعطاه السلطان ثلاثين ألف دينار وخلعاً نفيسة، وأجرى له كل سنة عشرة آلاف دينار" [٢]. أما اليافعي [٣]فقال عن إقامة الخطبة للعباسيين في هذه السنة: "وفيها أقيمت الخطبة العباسية في الحجاز وقطعت خطبة المصريين لاشتغالهم بما هم فيه من القحط والوباء الذي لم

---

(١) الكامل في التاريخ، ج٨، ص١٠٧ .

(٢) إذا نظرنا إلى هذه المبالغ التي دفعها العباسيون لحاكم مكة نرى أنها قليلة بالنسبة لما كان يدفعه العبيديون، فقد ذكر المقريزي أن العبيديين كانوا ينفقون في كل عام على قافلة الحج مائة وعشرين ألف دينار، موزعة على أكثر من مجال . (اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٣٠٣) .

(٣) مرآة الجنان، ج٣، ص٨٥ .

يسمع في الدهور بمثله.... ولما جاءت البشارة بإقامة الدعوة للعباسيين بمكة أرسل السلطان ألب أرسلان إلى صاحبها محمد بن أبي هاشم ثلاثين ألف دينار وخلعاً".

وفي العام التالي (٤٦٣هـ/١٠٧٠م) أرسل الخليفة العباسي ركب الحج العراقي بقيادة نقيب الطالبيين ببغداد أبي الغنائم الحسين بن محمد الزينبي، ومعه قوة ضخمة لحمايته في الطريق، وبعد أن وصل إلى مكة اتفق مع أميرها محمد بن جعفر على إقامة الخطبة للعباسيين والسلاجقة. وقد نفذ ذلك في موسم حج عام ٤٦٣هـ/١٠٧٠م [(١)].

ولم يقف العبيديون مكتوفي الأيدي حيال هذا التغير في سياسة أمير مكة، والذي أفقدهم المكانة الروحية التي تمتعوا بها أكثر من قرن من الزمن، فما أن بدأت الأحوال تتحسن في مصر، ويسود الأمن والاستقرار ربوعها، بعد إجراءات عملية اتخذت في هذا الشأن [(٢)]، حتى عملوا على استعادة الخطبة لهم في مكة، فبعث الحاكم المستنصر سنة ٤٦٦هـ/١٠٧٣م إلى محمد بن جعفر يعاتبه على خطبته للعباسيين والسلاجقة، بعد أن بذل له مالاً ليقيم الخطبة له[(٣)]. ويبدو أن العباسيين قد سبقوا الحاكم العبيدي في تقديم أعطياتهم المغرية لأمير مكة، مما دفع هذا الأمير لرفض عرض المستنصر العبيدي، ويوضح ذلك نجم الدين بن فهد، فيقول بعد أن ذكر مجيء رسولي حاكم مصر [(٤)]: "... فلم يلتفت إليهما وأقصاهما؛ لأنه كان وصل

---

(١) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج٤، ص١٣٣ .

(٢) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج٤، ص١٣٣ ؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٣١١ ـ ٣١٢.

(٣) نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٧٥ .

(٤) إتحاف الورى، ج٢، ص٤٧٥ .

إليه ولأصحابه صحبة السَّلاَّر من المال ما ملأ عينه وقلبه، وأخذ السَّلاَّر من الحاج الذين اتبعوه دنانير فدفعها إليه وإلى العبيد" [1].

وفي ظل إلحاح الحاكم العبيدي على عودة نفوذه في مكة، عن طريق إرسال الرسل المحملين بالأموال والهدايا، والتعاطف من قبل بعض الأشراف في مكة مع العبيديين، وافق أمير مكة محمد بن جعفر على الخطبة سنة ٤٦٧هـ/١٠٨٠م لحاكم مصر، خاصة وقد انقطعت المعونات المعتادة من الدولة العباسية، متأثرة بوفاة السلطان ألب أرسلان، ثم الخليفة القائم بأمر الله[2].

وقد تدارك العباسيون الوضع فأرسل الخليفة العباسي المقتدي بأمر الله (٤٦٧ ـ ٤٨٧هـ/١٠٨٠ ـ ١٠٩٤م) رسله في موسم حج ٤٦٨هـ/١٠٨١م بمبلغ قدره عشرين ألف دينار تعويضاً عما تأخر من منحتهم الماضية، كما أغروه بتزويجه من أخت السلطان ملك شاه. وبعد أن تحقق أمير مكة من ضعف العبيديين واستمرار المشاكل في بلادهم، وافق على قبول عرض العباسيين، وإعادة الخطبة لهم في موسم حج سنة ٤٦٨هـ/١٠٨١م [3].

وفي ظل تزايد الطموح العباسي في تثبيت الدعوة لهم على منابر مكة، وحرص العبيديين على بقاء نفوذهم واستمراره في مكة، فقد شهدت الفترة المتبقية من حكم محمد بن جعفر في مكة، والممتدة حتى سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م، تبادلاً لنفوذ هاتين القوتين في مكة، وتذبذباً في تبعية أميرها، الذي سعى ـ قدر الإمكان ـ في الاستفادة المادية من هذا التنافس؛ ففي سنة ٤٧٠هـ/١٠٧٧م

---

(١) المقصود بهم أصحاب الشريف من عبيد مكة .

(٢) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٦٧ ؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٨، ص١٢١ ؛ اليافعي، مرآة الجنان، ج٣، ص٩٥ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٧٥ .

(٣) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٧١ ـ ١٧٢ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٧٨ .

دعا محمد بن جعفر في مكة للعبيديين[1]، ثم أعاد الخطبة سنة ٤٧٢هـ/١٠٧٩م للعباسيين [2]، ويبدو أنها أعيدت للعبيديين بعد ذلك، حيث يذكر بعض المؤرخين أنه في سنة ٤٧٩هـ/١٠٨١م قطعت الخطبة عن العبيديين [3]. وقد استمرت الخطبة للعباسيين حتى نهاية عهد أمير مكة محمد بن جعفر سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م [4].

ولم تكن فترة حكم ابنه قاسم (٤٨٧ ـ ٥١٨هـ/١٠٩٤ ـ ١١٢٤م) الذي خلفه في حكم مكة بأحسن حال من فترة والده، فطغى التذبذب والتلون في سياسته نحو القوتين المتنازعتين على مكة، فتارة يدعو للعباسيين، وأخرى يميل للعبيديين[5]، ولكن انتهاج العباسيين لاستخدام القوة جعلت كفتهم أرجح في هذا النزاع، خصوصاً في ظل إنهاك الدولة العبيدية وتزايد مشاكلها [6].

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٩٠ ؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص١٢٥.

(٢) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٩٠ ؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص١٢٨؛ الفاسي، شفاء الغرام، ج٢، ص٣٦٣ .

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٨، ص١٤٤ ؛ اليافعي، مرآة الجنان، ج٣، ص١٣٢؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص١٤٠ ؛ الفاسي، شفاء الغرام، ج٢، ص٣٦٣ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٨٥ .

(٤) أحمد السباعي، تاريخ مكة، ص٢٠٥ ؛ أحمد الزيلعي، مكة وعلاقاتها الخارجية، ص٧٦ .

(٥) أحمد السباعي، تاريخ مكة، ص٢٠٦ .

(٦) صبحي عبد المنعم ، العلاقات بين مصر والحجاز، ص١٣٣ .

وفي المدة الزمنية اللاحقة من فترة الأمراء الهواشم [١]، الممتدة حتى نهاية الحكم العبيدي في مصر سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م [٢] أصبحت الكلمة النافذة والدعوة في مكة للعباسيين، رغم ما طرأ من تحسن في علاقات بعض أمراء الهواشم بالدولة العبيدية [٣].

---

(١) وممن حكم مكة من أسرة الهواشم بعد قاسم بن محمد حتى نهاية الدولة العبيدية كل من؛ فليتة بن قاسم بن محمد (٥١٨ ـ ٥٢٧هـ/١١٢٤ ـ ١١٣٢م)، هاشم بن فليتة (٥٢٧ ـ ٥٤٩هـ/١١٣٢ ـ ١١٥٤م)، قاسم بن هاشم بن فليتة (٥٤٩ ـ ٥٥٦هـ/١١٥٤ ـ ١١٦٠م)، عيسى بن فليتة بن قاسم (٥٥٦ ـ ٥٧٠هـ/١١٦٠ ـ ١١٧٤م). ولمزيدٍ من المعلومات عن هؤلاء . انظر (عز الدين بن فهد، غاية المرام، ج١، ص٥٢٠ ـ ٥٣٢ ؛ عارف عبد الغني، تاريخ أمراء مكة المكرمة . دمشق : ط١، دار البشائر، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، ص٤٤٠ ـ ٤٤٩) .

(٢) انتهت الدولة العبيدية على يد صلاح الدين الأيوبي قائد القوات الزنكية في مصر آنذاك . (لمزيد من المعلومات عن سقوط الدولة العبيدية، انظر (ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٩، ص١١١ ـ ١١٢ ؛ ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات . تحقيق، حسن الشماع وأخرون . بغداد : جامعة بغداد، (د . ت)، ج٤، ص١٦١ ـ ١٦٥) .

(٣) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ٢٢٨ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ٥١٧ . وقد أشار صبحي عبد المنعم إلى أن أمراء مكة قد دعوا في ظل تحسن العلاقات مع مصر للعبيديين . (العلاقات بين مصر والحجاز، ص١٣٦ وما بعدها). ولم أجد في المصادر المتاحة لي أي إشارة تصرح بالدعوة للعبيديين خلال هذه الفترة.

المبحث الثالث: موقف أمراء مكة من التنافس بين العباسيين والعبيديين على النفوذ في مكة.

لقد استغل الأشراف فرصة زحف العبيديين إلى مصر، ومدّ حكمهم إليها، بإعلان استقلالهم بمكة والمدينة، وإعلان التبعية لهذه القوة التي أصبحت قريبة من بلادهم، وفي تقليب صفحات التاريخ والاطلاع على الأحداث السابقة والمعاصرة لهذا الحدث فرصة للوصول إلى عدد من الأسباب التي جعلت هؤلاء الأشراف يعلنون تبعيتهم للعبيديين، ويذعنون لطاعتهم عقب استقلالهم بحكم بلاد الحجاز، وسوف نعرض - الآن - ما استطعنا الوصول إليه من هذه الأسباب والدوافع.

فمن ذلك ما ألمحت إليه بعض المصادر من وجود صلة بين الأشراف الحسنيين وبين المعز لدين الله العبيدي؛ الذي تدخل في حل بعض المشكلات التي وقعت بين الأشراف سنة ٣٤٨هـ/٩٥٩م، حيث علم - وهو في المغرب - بما جرى من قتال شديد بين بني الحسن وبني جعفر بن أبي طالب بالحجاز، ووقوع قتلى من الطرفين، فقام بإرسال سفارة إلى الحجاز محملة بالأموال، لتقوم بمهمة الوساطة بين الطرفين، وليظهر من خلالها حرصه على مصالح الأشراف. ولما وصل هذا الوفد للحجاز عقد بين الفريقين المتنازعين صلحاً بالمسجد الحرام، وتحمل العبيديون دفع ديات القتلى الزائدة[١]، فأصبح هذا العمل من قبل المعز لدين الله العبيدي جميلاً لم ينسه له بنو

(١) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج١، ص١٠١.

الحسن، وكان دافعاً ومرغباً لهم لإعلان الولاء للمعز بعد استقلالهم بالحكم[1].

وكان في سياسة العباسيين السابقة مع العلويين خير درس لهؤلاء الأشراف، حيث تعاهد خلفاء بني العباس منذ ظهور دولتهم سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م على قمع كل حركة علوية تحاول الخروج على دولتهم، ووأدها في المهد قبل استفحالها، خاصة في بلاد الحجاز[2]، ومن هذا المنطلق فقد أصبحت الدولة العباسية شبحاً يخيف العلويين، وحائلاً يقف حجر عثرة في سبيل تحقيق طموحهم في حكم بلاد الحجاز. ولهذا فقد وجد الأشراف في الدولة العبيدية المنافسة للعباسيين ملتجأ يهرعون إليه، وسنداً يعتمدون عليه في إقامة إمارتهم في مكة واستمرار بقائها، فأعلنوا الاستقلال في المنطقة، والتبعية للعبيديين[3].

وقد أدت قوة الدولة العبيدية دوراً بارزاً في إعلان الأشراف تبعيتهم لها، ذلك أن جعفر بن محمد كان يشعر بمدى الضعف الذي يحيط به إن هو وقف وحيداً دون مساندة، كما كان يخشى عدوان القرامطة الذين أصبحوا يعيثون فساداً في شرق الجزيرة العربية ووسطها، بل يمدون غاراتهم إلى مكة، ويقطعون السبيل على الحجاج، فرأى أن يدع للعبيديين، ويعلن تبعيته لهم علّهم بذلك يسندونه ويكفونه شر القرامطة وغدرهم المتكرر وتهديدهم لأمن

---

(١) أحمد الزيلعي، مكة وعلاقاتها الخارجية، ص٤٢ .

(٢) لمزيد من المعلومات عن هذه الحركات، انظر (أحمد السباعي، تاريخ مكة، ص١٣٥ . ١٤٧، ١٦٤ . ١٦٨ ؛ أحمد الزيلعي، مكة وعلاقاتها الخارجية، ص١٥ . ٢٤ ؛ صبحي عبد المنعم، العلاقات بين مصر والحجاز، ص٥٨ . ٦٧ .

(٣) محمد لبيب البتنوني، الرحلة الحجازية . القاهرة : مكتبة الثقافة الدينية، (د . ت)، ص١٤٤ ؛ أحمد الزيلعي، مكة وعلاقاتها الخارجية، ص٤٢.

الحـرمين الشـريفين [1]، خاصــة وأن الموقــف الــذي أظهـره العبيديــون كان معارضاً لأعمال القرامطة الإجرامية التي قاموا بها في مكة خلال سنة ٣١٧هـ/٩٢٩م[2].

ولا شـك أن أشـراف الحجـاز قـد لاحظـوا القـوة الاقتصـادية الـتي تتمتـع بهـا الدولـة العبيديـة بعـد سيطرتها على مصـر الغنيـة بخيراتهـا وإمكاناتها المادية، فأعلنوا تبعيتهم لتلـك الدولـة مـن أجـل أن يحققـوا من وراء ذلك الدعم الاقتصادي الذي هم - في ظل فقر بلادهم - بأمس الحاجة إليه [3]، خاصة وأن أعطيات العباسيين ودعمهم لأهـل الحـرمين قد تناقصت كثيراً عن ذي قبل. ويبـدو أن أهـل الحجـاز قـد أحسـوا بمـا تمتلكـه مصـر مـن خـيرات ونعـم مـن خـلال العطـاء الكـبير الـذي بذلـه أحمـد بـن طولـون للمكيين في أثنـاء محاولتـه السيطرة على مكة سنة ٢٦٩هـ/٨٨٢م [4]. وقد رأينـا كيـف استغل الحـاكم العبيـدي المعز لـدين الله تلـك النقطـة استغلالاً ذكيـاً، إذ كـان يـدرك تمامـاً مـا تعانيـه بلاد الحجـاز من قلةٍ في الموارد ونقصٍ في الإمكانيات، فقام على وجه السرعة - حين بلغتـه إقامـة الـدعوة لـه علـى منـابر الحجـاز - بإرسـال وفـدٍ إلى الحجـاز - كمـا اشـرنا سـابقاً - ومعـه مـن الأمـوال والمتـاع والهـدايا الشـيء الكـثير لتـوزع علـى أهـل الحرمين، وذلك فرحاً وابتهاجاً بهذه المناسبة العظيمة[5].

---

(١) أحمد السباعي، تاريخ مكة، ص١٩٣ .

(٢) النهرواني، الإعلام بأعلام بيت الله الحرام . تحقيق، هشام عبد العزيز عطا . مكة : المكتبة التجارية، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، ص١٩٨ .

(٣) أحمد الزيلعي، مكة وعلاقاتها الخارجية، ص٤٢ ؛صبحي عبد المنعم، العلاقات بين مصر والحجاز، ص٨١ .

(٤) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٩، ص٦٥٢ - ٦٥٣.

(٥) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج١، ص١٠١، ١٢٢ ؛ الجزيري، الدرر الفرائد، ج١، ص٥٢٤ .

ولا نغفل أمراً مهماً ساعد ـ بلا ريب ـ على تقرب أشراف مكة وارتباطهم بالعبيديين وهو اعتقادهم قرب النسب فيما بينهم لانحدارهم من سلالة علي ﷺ من فاطمة رضي الله عنها [1]، ولهذا فإن الأشراف ينظرون من خلال ذلك أن هؤلاء العبيديين أقرب إليهم نسباً، كما أنهم لذلك أحق بخلافة المسلمين من العباسيين، ومن ثمّ ضرورة التبعية لهم، والدعوة لهم على منابر الحجاز.

وإذا نظرنا إلى مواقف أمراء مكة من التنافس بين العباسيين والعبيديين في الفترة التي أعقبت إعلان استقلالهم في حكم مكة وتحديد تبعيتهم للعبيديين ـ كما أشرنا ـ نلحظ أن هناك عوامل حددت تلك العلاقات في بعض الأحيان، وظروف رسمت مسيرتها في أحيان أخرى؛ سواء كانت تلك على المستوى الخارجي المتعلق بإحدى القوتين المتنافستين، أو على الصعيد الداخلي المتمثل بظروف أمير مكة أو بضغوط المجتمع المحيط به. فهذا الأمير جعفر بن محمد الذي أعلن تبعية مكة ـ عقب إعلان استقلاله ـ للعبيديين بكامل إرادته، لم يكن أمامه سوى الخضوع للعباسيين، الذين

---

(١) لا يوجد دليل قوي يؤكد صحة هذا النسب، وقد طعن العباسيون في نسب العبيديين وسعوا لذلك بعقد محضرين بالعاصمة العباسية بغداد، جاء فيهما القدح في نسب العبيديين وإبطال عقيدتهم، كان المحضر الأول في شهر ربيع الآخر، سنة: ٤٠٢هـ/١٠١١م، في عهد الخليفة العباسي القادر بالله ويقابله في مصر الحاكم العبيدي الحاكم بأمر الله، وقد تضمن هذا المحضر نفي علاقة العبيديين بالعلويين وأنهم لا ينتسبون إلى علي بن أبي طالب ﷺ، وأرجعوا نسبهم إلى ديصان الخرمي، كما صدر فيه التشكيك بعقيدتهم واتهامهم بالكفر والإلحاد والزندقة والفساد، وأخذت على ذلك تواقيع عدد من القضاة؛ كأبي محمد الإكفاني، وأبي قاسم الخزري، وعدد من الفقهاء ؛ كأبي حامد الإسفرائيني، وأبي محمد الكشفي، كما وقع على هذا عدد من العلويين ؛ كالرضي والمرتضى وأبي طاهر بن أبى الطيب وابن الأزرق الموسوي، أما المحضر الثاني فكان في سنة ٤٤٤هـ/١٠٥٢م، جاء فيه نفي نسب العبيديين إلى علي ﷺ وفاطمة رضي الله عنها، وإرجاع نسبهم إلى الديصانية المجوسية والقداحية اليهودية، كما جاء فيه تكفيرهم وخروجهم عن الإسلام، وأخذ بذلك تواقيع عدد من الأشراف والقضاة والفقهاء. انظر: (محمد سالم شديد العوفي: العلاقات السياسية بين الدولة الفاطمية والدولة العباسية ،ص٦٩- ٧١).

اتخذوا من سلاح القرامطة . بعد تحالف الطرفين . أداة لكبح جماح هذا الأمير [1]، الذي رضي . فيما يبدو . باستمرار سلطته على مكة، وعدم مواجهة هذه القوى، خاصة وأن أهل مكة وأشرافها ليسوا مقتنعين بتوجه محمد بن جعفر نحو العبيديين، حيث وقفوا نداً قوياً لمحاولة العبيديين استعادة نفوذهم على مكة سنة ٣٦٠هـ/ ٩٧٠م[2].

ويبدو أن جعفر بن محمد ما زال يرغب في العودة مجدداً لتبعية العبيديين، ولكنه يتحين الفرصة المناسبة لذلك، وما أن حلت سنة ٣٦٣هـ حتى دعى على منابر مكة للدولة العبيدية دون أي ضغوط تذكر عليه [3]، ويظهر أنه استغل بعض الظروف لتحقيق هدفه؛ ومن ذلك ما كانت تمر به الدولة العباسية من ظروف سيئة تمثلت في مرض الخليفة المطيع (٣٣٨ . ٣٦٣هـ/٩٤٩ . ٩٧٣م) ، ثم عزله وتعيين ولده الطائع (٣٦٣ . ٣٨١هـ/٩٧٣ . ٩٩١م)[4]، وكثرة الاضطرابات السياسية في العراق [5]، وانشغال القرامطة بالحروب مع العبيديين[6]، وكذلك صعوبة وصول ركب الحاج العراقي آنذاك لخطورة الطرق المؤدية إلى بلاد

---

(١) الجزيري، الدرر الفرائد، ج١، ص٥٢٥ ؛ أحمد الزيلعي، مكة وعلاقاتها الخارجية، ص٤٣.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٢٧٣ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٠٨.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٧، ص٥٨ ؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص٢٣٥؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤١٠ ؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٣، ص٤٤.

(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٧، ص٥٣ ؛ أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر " تاريخ أبي الفدا "، دار المعرفة، بيروت، (د . ت)، ج٢، ص١١٣ ؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١١، ص٢٩٤ .

(٥) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٧، ص٥١، ٥٦ ؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١١، ص٢٨٩، ٢٩٣ . ٢٩٥ .

(٦) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٧، ص٥٤ ؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١١، ص٢٩٤ . ٢٩٥ .

الحجاز[1]، إضافة إلى ذلك إحساس جعفر بن محمد بالأمان ومزيد الثقة بالدولة العبيدية بعد أن استقرت لها الأحوال في مصر، وقدم على أثر ذلك الحاكم العبيدي المعز لدين الله ٣٦٢هـ ليجعل من القاهرة عاصمة لدولته[2]. ولا نستبعد أيضاً أن أمير مكة جعفر بن محمد قد عمل خلال السنوات السابقة لدعوته الثانية للعبيديين. والتي تمت سنة ٣٦٣هـ، كما ذكرنا. في سبيل إقناع الأشراف في مكة على قبول الدعوة للعبيديين والدخول تحت مظلة حكمهم، ولعل في ذهاب الأشراف إلى مصر في العام التالي ومقابلتهم للمعز لدين الله العبيدي، وفوزهم بالكثير من الأعطيات [3]، خير دليلٍ على قناعتهم التامة بجدوى توجه أميرهم جعفر بن محمد نحو الدولة العبيدية.

وكما مثَّل جعفر بن محمد أمير مكة صورة الراغب بكامل إرادته، بل والحريص على التبعية وموالاة العبيديين، فإن ابنه عيسى . الذي خلف والده على إمارة مكة سنة ٣٦٥هـ/٩٧٥م . لم يكن لينقاد بسهولة للعبيديين، وقد رأينا كيف خالف عيسى سياسة والده، ودعى للعباسيين على منابر مكة سنة ٣٦٥هـ/٩٧٥م[4]، رغم أننا لا نجد فيما بين أيدينا من مصادر سبباً لهذا التغير، أو عملاً قام به أحد الفريقين

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٧، ص٥٨ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٠٦، ٤١٠ . ٤١١ ؛ الجزيري، الدرر الفرائد، ج١، ص٥٢٥ . ٥٢٦.

(٢) أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، ج٢، ص١١٢ ؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٣، ص٤٠ .

(٣) ابن ميسر، المنتقى، ص١٦٦ .

(٤) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج٤، ١٣٠ ؛ صبحي عبد المنعم، العلاقات بين مصر والحجاز، ص٨٧.

أوجب ذلك[1]. وقد دفع هذا التصرف الذي قام به أمير مكة عيسى بن جعفر الحاكم العبيدي العزيز بن المعز بالله (٣٦٥ - ٣٨٦هـ/٩٧٥ - ٩٩٦م) إلى تغيير سياسته مع أمير مكة، فانتهج أسلوب القوة هذه المرة لفرض سيادته على مكة، وأرسل أكثر من قوة استعادت هيبتهم والدعوة لهم على منابر الحرمين[2].

ويظهر أن عيسى بن محمد قد أُسقط في يده، واضطر للإذعان والخضوع للعبيديين في بقية فترة سلطته على مكة، في ظل تزايد النفوذ العبيدي واستعمال القوة ضده، وإغراء العبيديين لأهل الحجاز بالكثير من المنح والأعطيات - كما أشرنا في حديث سابق. في حين لم يجد الدعم المادي والمعنوي المطلوب، والذي يساعده في تنفيذ سياسته في الدعوة للعباسيين. ولا نستبعد أن أمير مكة عيسى بن جعفر قد أظهر الميل للعباسيين آنذاك ليستخدم ذلك كأداة للضغط على العبيديين، مستغلاً رغبتهم الجامحة في بسط سلطتهم على الحرمين للفوز بمزيد من العطايا والمنح منهم، خاصة وأنه يدرك - بلا شك - ما كانت تعانيه الخلافة العباسية من مشاكل وأزمات متعددة، وأن مصلحته تقتضي الاستمرار على سياسة والده في تبعية الدولة العبيدية.

---

(١) ويعلل بعض الباحثين سبب التغير في سياسة عيسى بن جعفر بتغير السياسة الدينية التي اتبعها الحاكم العبيدي المعز لدين الله في مكة، وتشديد قبضته عليها من الوجهة السياسية، لذلك رأى الأمير الجديد أنه بموالاته للجانب الضعيف وهم العباسيون ربما سيحقق بعض المكاسب السياسية والاقتصادية في الدعم والاستقلال، فضلاً عن الحرية المذهبية. (أحمد الزيلعي، مكة وعلاقاتها الخارجية، ص٤٥).

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٧، ص٧٩، ٩٣؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١١، ص٣٠١؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ٤١٣ - ٤١٤، ٤١٥ - ٤١٦.

أما أبو الفتوح الحسن بن جعفر الذي ولي مكة بعد أخيه عيسى سنة ٣٨٤هـ/٩٩٤م فكان شخصية طموحة، حاول في بداية حكمه أن يوافق التيار المحيط به لتحقيق طموحاته وتطلعاته التوسعية وتقوية إمارته [١]، فما أن تولى السلطة حتى أظهر ولاءً تاماً للعبيديين [٢]، مما زاد من ثقة العبيديين فيه، فحاول أن يستغل ذلك لصالح إمارته وطموحاته وتطلعاته، ونجح في سبيل ذلك في ضمّ المدينة إلى حكمه، بعد أن استغل فرصة غضب العبيديين على حكامها من بني الحسين [٣]. وكانت

---

(١) ولعل ولاء أبي الفتوح للفاطميين في المرحلة الأولى لم يكن غاية في ذاته بل كان وسيلة لتحقيق أطماعه في الاستقلال التي قد يعجز عن تحقيقها لو كان قد أعطى ولاءه للعباسيين حيث أنه لا يستطع مجاراتهم فيما يحملوه من نسب واضح وأرث عريق ، على العكس من العبيديين الذين يعتبرون عند أغلب المسلمين في ذلك الوقت خارجين عن الإجماع ، ويشككون في نسبهم ، فرأى أبو الفتوح أن ولاءه للعبيديين يسهل إليه الوصول لمركز الخلافة لأنه أوضح منهم نسباً ، وبالتالي سيتعاطف المسلمون معه ، وربما ينضمون لحركته إن هو خرج على العبيديين . ومن جهة أخرى فقد رأي أبو الفتوح أنه من المبكر القيام بانقلاب على العبيديين ، خصوصاً وأنهم في ذلك الوقت يتمتعون بقوة لا يستطيع مجاراتها . (أحمد الزيلعي ، مكة وعلاقاتها الخارجية، ص٤٨) .

(٢) الجدير بالذكر أن أبا الفتوح قد أبان عن سياسته وميله للعبيديين قبل توليه السلطة في مكة، ففي سنة ٣٨١هـ/٩٩١م قام الخليفة العباسي القادر بالله (٣٨١ ـ ٤٢١هـ/٩٩١ ـ ١٠٣٠م) بالاتصال بأبي الفتوح عندما كان ولي عهد أخيه عيسى بن جعفر يطلب طاعته والدعوة له على منابر مكة بدل العبيديين، ويعده بالاعتراف به وبأسرته واتصال الإمارة في بيته. وقد استغل أبو الفتوح هذه الفرصة ليعبر من خلالها عن ولائه ورغبته في استمرار بقاء النفوذ العبيدي في مكة، فأرسل ـ بعد رفضه التام لهذه الدعوة ـ كتب القادر بالله العباسي إلى الحاكم العبيدي، فترك ذلك أعظم الأثر في هذا الحاكم، وبعث الأموال والخلع إليه وإلى الأشراف الآخرين . (نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٢١) .

(٣) نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٢٦ ـ ٤٢٧ ؛ الجزيري، الدرر الفرائد، ج١، ص٥٣٢ . وكان سبب غضب الحاكم بأمر الله العبيدي على حكام المدينة قدحهم في نسب العبيديين .

تلك التطورات كفيلة بجعل أبي الفتوح الأمير الأوحد للحجاز، كما ربطته أعماله التي قام بها لمصلحة العبيديين بعلاقات حميمة وراسخة بالحاكم بأمر الله العبيدي (٣٨٦ ـ ٤١١هـ/٩٩٦ ـ ١٠٢٠م) [(١)]، حتى بلغ الأمر بأبي الفتوح أن خرج إلى مصر سنة ٣٩٦هـ/١٠٠٥م لزيارة الحاكم العبيدي الحاكم بأمر الله[(٢)].

وقد تكالبت أحداثٌ وتصرفاتٌ من قبل الحاكم بأمر الله العبيدي في أواخر القرن الرابع الهجري تسيء لبعض الصحابة رضوان الله عليه[(٣)]، وتنتهك بعض حقوق آل البيت [(٤)]، جعلت أبا الفتوح يغتنم هذه الفرص الذهبية للإفصاح عن أهدافه، خاصة وأنها ستمنح أبا الفتوح مزيداً من المؤيدين لمخططاته الاستقلالية بحكم بلاد الحجاز. إضافة إلى ذلك فقد خدمت بعض الأحداث التي وقعت في الدولة العبيدية آنذاك أبا الفتوح، حيث وفد إليه في الحجاز أبو القاسم الوزير المغربي [(٥)]حانقاً على

---

(١) أحمد الزيلعي، مكة وعلاقاتها الخارجية، ص٥٠ .

(٢) المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، ج٢ ، ص٦٦ .

(٣) البكري، المسالك والممالك، ج١، ص٣٩٦ ـ ٣٩٧ ؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج٤، ص١٣١ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٣١ .

(٤) يقول ابن كثير في حوادث سنة ٤٠٠هـ/١٠٠٩م : "وفيها ورد الخبر بأن الحاكم أنفذ إلى دار جعفر بن محمد الصادق بالمدينة فأخذ منها مصحفاً وآلات كانت بها، وهذه الدار لم تفتح بعد موت صاحبها إلى هذا الآن، وكان مع هذا المصحف قعب خشب مطوق بحديد ودرقة خيزران وحربة وسرير، حمل ذلك كله جماعة من العلويين إلى الديار المصرية، فأطلق لهم الحاكم أنعاماً كثيرة ونفقات زائدة، ورد السرير وأخذ الباقي، وقال : أنا أحق به . فردوا وهم ذامون له داعون عليه" . (البداية والنهاية، ج١١، ص٣٦٥).

(٥) هو الحسين بن علي بن الحسين المعروف بالوزير المغربي ، ولد بمصر في سنة ٣٩٠هـ/٩٩٩م ، كان عالماً أديباً ، تقلبت فيه الأحوال بعد قتل الحاكم العبيدي أباه وعمه محمد ، حيث خرج إلى مكة والشام ، ثم استوزره مشرف الدولة البويهي في بغداد ، ثم عزله . له مصنفات كثيرة . توفي بميافارقين سنة ٤١٨هـ/١٠٢٧م . (ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج٢ ، ص١٧٢ ـ ١٧٧ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٥).

الحاكم بأمر الله الذي قتل بعض أفراد أسرته، بعد أن أغرى هذا الوزير آل الجراح [١] بخلع طاعة الحاكم العبيدي، والدعوة لأبي الفتوح[٢]. وبعد أن وجد أبو الفتوح هذا الدعم والمؤازرة، عرض على أتباعه من الأشراف، فوافقوه، وبايعوا له بالخلافة سنة ٤٠١هـ/١٠١٠م، وتلقب بالخليفة الراشد بالله[٣].

ورغم التأييد المطلق من العلويين ومعظم أهل الحجاز [٤]، إضافة لبعض القبائل القاطنة شمالي بلاد الحجاز لخلافة أبي الفتوح [٥]، وخروجه لبني الجراح في فلسطين ومبايعتهم له بالخلافة هناك [٦]، إلا أن الحاكم

---

(١) بنو الجراح إحدى فروع قبيلة طيئ ، وكان لهم دور في تاريخ فلسطين بعد أن آلت إليهم رئاسة قبيلتهم فيما بين سنة ٣٥٨هـ/٩٦٨م حتى سنة ٤٣٣هـ/١٠٤١م . كما تحالف زعيمهم حسان بن المفرج مع القرامطة . ورغم تبعيتهم للفاطميين إلا أنهم كانوا يناصرون كل ثورة ضد هذه الدولة في محاولة منهم لإثبات شخصيتهم المستقلة وإيجاد كيان لهم . وفي سنة ٣٨٨هـ/٩٩٧م ثار زعيمهم المفرج بن دغفل بن الجراح (ت٤٠٤هـ/١٠١٣م) بالرملة محاولاً الاستقلال عن الدولة العبيدية ، إلا أن محاولته بأت بالفشل بعد أن أرسل له العبيديون لهم حملة عسكرية قضت هذه الثورة . (القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٢١٠ ؛ ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون، ج٤ ، ص٧٣ ؛ أمينة بيطار : موقف أمراء العرب بالشام والعراق من الفاطميين حتى أواخر القرن الخامس الهجري . ط١ ، دار دمشق ، دمشق ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م ، ص٨٦-٨٩ .

(٢) الروذراوري، ذيل تجارب الأمم . اعتنى به، هـ . ف. آمدرور، القاهرة : دار الكتاب الإسلامي،(د.ت)، ج٣، ص٢٣٦ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٣٦ . ٤٣٧ .

(٣) الروذراوري، ذيل تجارب الأمم، ج٣، ص٢٣٦ ؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص٧٨؛ القلقشندى، مآثر الإنافة ، ج١، ص٣٢٦ ؛ ابن عنبة، عمدة الطالب، ص١٠٣.

(٤) الروذراوري، ذيل تجارب الأمم، ج٣، ص٢٣٦ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٣٨ .

(٥) صبحي عبد المنعم، العلاقات بين مصر والحجاز، ص٩٧ . ٩٨ .

(٦) الروذراوري، ذيل تجارب الأمم، ج٣، ص٢٣٧ . ٢٣٨ ؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج٤، ص١٣١ ؛ الفاسي، عجالة القرى للراغب في تاريخ أم القرى . مكتبة عارف حكمت، المدينة المنورة، رقم ١٤٨/٩٠٠، ق٢٢١أ .

العبيدي استطاع ـ بعد اتخاذ إجراءات متعددة ـ إنهاء محاولة أبي الفتوح الاستقلالية قبل أن يمضي عليها حوالي سنة فقط [١]. وبقدر ما تبين لنا هذه الحركة طموح العلويين في خلافة المسلمين، وأنهم أحق من العباسيين والعبيديين في ذلك، إلا أنها لتؤكد بأن فقر بلاد الحجاز وحاجته للدعم الخارجي، كان يقف حائلاً دون تحقيق الأشراف العلويين لأطماعهم. فما إن استعمل الحاكم العبيدي سلاح المقاطعة الاقتصادية لأهل الحجاز، وإغراء الأشراف هناك، حتى تخلى أهل الحجاز عن خليفتهم الجديد [٢].

ولم يكن أمام أبي الفتوح ـ خصوصاً وقد تخلى عنه آل الجراح بعد إغراء الحاكم العبيدي بالأموال[٣]ـ إلا أن بدأ يبحث عن طريقة تعيد إليه إمارة مكة، وقد نجح في ذلك بعد أن أعترف بخطأ ما قام به، وأعلن الخضوع التام للعبيديين [٤].

وكانت هذه التجربة الفاشلة لأبي الفتوح كفيلة بإعادته صاغراً إلى طاعة الدولة العبيدية، فلم يقدم في بقية سنوات حكمه التي امتدت حتى سنة ٤٣٠هـ/١٠٣٩هـ على نزع طاعة العبيديين، حيث استمر يدعو لهم على منابر مكة، رغم الظروف الاقتصادية التي حلت بمصر في بعض السنوات، وعدم إيفاء العبيديين بكامل التزاماتهم المادية نحو أهل الحجاز، إضافة لإغراء العباسيين لحكام مكة بالدعوة لهم على منبر الحرم المكي [٥].

---

(١) ابن عنبة، عمدة الطالب، ص١٠٣.

(٢) الروذراوري، ذيل تجارب الأمم، ج٣، ص٢٣٦ ؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج٤، ص١٣١؛ القلقشندى، مآثر الإنافة، ج١، ص٣٢٦ ؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٩٠.

(٣) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج٤، ص١٣١ ؛ ابن عنبة، عمدة الطالب، ص١٠٣.

(٤) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج٤، ص١٣١ ؛ ابن عنبة، عمدة الطالب، ص١٠٣ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٣٨ .

(٥) أحمد الزيلعي، مكة وعلاقاتها الخارجية، ص٥٧ ـ ٥٨ .

ويبدو أن شكر بن أبي الفتوح ـ الذي خلف والده على إمارة مكة سنة ٤٣٠هـ/١٠٣٨م، كما أشرنا سابقاً ـ قد أخذ من فشل تجربة أبيه في الخروج ضد العلويين ونزع طاعتهم درساً وافياً، حيث استمر في ولائه للدولة العبيدية رغم بعض المشاكل والصعاب التي واجهته في هذا السبيل، حتى وصل الأمر إلى منع حجاج العراق من تأدية مناسك الحج في بعض السنوات [١]. وقد استفاد شكر من سياسته الخاضعة للعبيديين، فوسع ـ بدعمهم وتأييدهم ـ من ممتلكاته في بلاد الحجاز حتى وحدها تحت سلطته [٢]. واستمر حتى وفاته سنة ٤٥٣هـ/١٠٦٠م يدعو للدولة العبيدية [٣].

أما أبو هاشم محمد بن جعفر بن أبي هاشم فقد رأى أن يُحكِّم عقله قبل أن ينجرف وراء عاطفته، حيث حاول الاستفادة من التنافس العباسي العبيدي لمصلحة إمارته وأتباعه قدر الإمكان. فاستطاع في البداية أن يُثبِّت حكمه في مكة بخضوعه للعبيديين، بعد أن أقر لهم محمد بن علي الصليحي الأمر في مكة. ولكن إدراكه لمجريات الأحداث حوله، والتغيرات التي طرأت على الدولتين المتنازعتين، إضافة لمعرفته بالأوضاع الداخلية لهما، خاصة ما كانت عليه الدولة العبيدية، كل ذلك جعله يبدل سياسة سابقيه من أمراء الأسرة الموسوية في مكة، فمال ـ رغم عدم رغبة عددٍ من الأشراف ـ إلى العباسيين، وحرص على إقامة الخطبة لهم، يقول الفاسي عن أمير مكة محمد بن جعفر [٤]: "وهو أول من أعاد الخطبة العباسية بمكة،

---

(١) أحمد السباعي، تاريخ مكة، ص٢٠١ .

(٢) الفاسي، العقد الثمين، ج٥، ص١٤ ـ ١٥ .

(٣) الفاسي، تحصيل المرام، ق٤١٦.

(٤) شفاء الغرام، ج٢، ص٣١٢.

بعد قطعها من الحجاز نحو مائة سنة، ونال بسبب ذلك مالاً عظيماً من السلطان ألب أرسلان، فإنه خطب له بمكة بعد القائم الخليفة العباسي".

ورغم ما نلحظه من تذبذب في الدعوة على منابر مكة بين العباسيين والعبيديين خلال عهد أمير مكة أبو هاشم محمد بن جعفر ، إلا أننا ندرك أن ولاءه للعباسيين كان عن رغبة وارتياح، في حين خضع للعبيديين . في فترات قليلة من عهده . بسبب بعض الضغوط الداخلية والخارجية، فذكر نجم الدين بن فهد [1] أن دعوته للعبيديين سنة ٤٦٧هـ/١٠٧٤م كانت على كره منه.

أما من جاء بعد أبي هاشم محمد بن جعفر من الأشراف الذين حكموا مكة من أسرة الهواشم فيما بعد فقد تحكمت القوة العباسية فيهم، وسيّرت سياستهم وفق مصالحها، مستغلة حاجة بلاد الحجاز للدعم المادي الدائم، وتخلي الدولة العبيدية عن أشراف مكة بعد أن انشغلوا كثيراً بمشاكلهم الداخلية، كما ألمحنا سابقاً. وفي بعض الفترات يضطر العباسيون للتدخل في شؤون مكة بالقوة العسكرية إذا حتم الأمر ذلك كما حصل في عهد الشريف قاسم بن أبي هاشم .

وفي الفترة المتأخرة من حكم أسرة الهواشم انشغل أشراف مكة بالصراعات فيما بينهم من أجل الظفر بحكم إمارة مكة ، كما سيتبين لنا ذلك فيما بعد .

---

(١) إتحاف الورى، ج٢، ص٤٧٧.

الفصل الثاني.

الأوضاع الأمنية في مكة أثناء التنافس بين العباسيين والعبيديين على النفوذ في الحجاز.

المبحث الأول: الحالة الأمنية في مكة.

أولاً: الحالة الأمنية في مكة في عهد الأسرة الموسوية.

ثانياً: الحالة الأمنية قبيل قيام حكم أسرة الهواشم.

ثالثاً: الحالة الأمنية في مكة في عهد أسرة الهواشم.

المبحث الثاني: الحالة الأمنية في طرق الحج .

- الحالة الأمنية في طريق الحج العراقي.
- الحالة الأمنية في طريق الحج المصري والشامي.
- الحالة الأمنية في طريق الحج اليمني.

المبحث الأول: الحالة الأمنية في مكة.

أولاً: الحالة الأمنية في مكة في عهد الأسرة الموسوية.

- في عهد الشريف جعفر بن محمد (٣٥٨ - ٣٦٦هـ/٩٦٨-٩٧٦م) :

منذ أن أعلن جعفر بن محمد الحسني استقلاله بإمارة مكة سنة ٣٥٨هـ/٩٦٨م والدعوة للعبيديين لم يرض ذلك الدولة العباسية في بغداد، إذ رأت في ذلك جرحاً لكبريائها وإنقاصاً من هيبتها الدينية في العالم الإسلامي، وخرقاً واضحاً لسيادتها على الأماكن المقدسة في الحجاز، والتي دامت أكثر من قرنين من الزمان، فبدأت الأحداث السياسية تتوالى، وبدأ الصراع على منبر مكة بين أكبر قوتين في العالم الإسلامي آنذاك يشتد، فجهزت الجيوش، وحيكت المؤامرات، وكبر حجم التحالفات السياسية من أجل تثبيت النفوذ وفرض السيادة. وقد عاشت مكة إبان ذلك فترة عصيبة، وحدثت فيها فتن عظيمة وأحداث جسيمة، عانى أهلها ويلات الجوع والشدائد والغلاء من جراء ما جرته تلك الأحداث والفتن من تدهور أمني كان نتيجةً حتميةً لهذا الصراع الطويل.

وبالرغم من حجم هذا الحدث وخطورته إلا أن المصادر التي بين أيدينا لم تشر لأي تدهور نتج عن هذا الحدث، وأثّر سلباً على الأوضاع الأمنية في مكة أثناء ذلك العام الذي أعلن فيها شريف مكة خروجه عن سلطة العباسيين، الذين كان من المتوقع عدم وقوفهم مكتوفي الأيدي أمام ضياع نفوذهم في الحجاز، وإعطاء العبيديين فرصة لبسط نفوذهم بكل أريحية، حيث أمر الحاكم العبيدي المعز لدين الله قائده جوهر الصقلي أن يبعث إلى الحجاز

في موسم حج هذه السنة من يقوم بتوزيع الهدايا والأموال والأمتعة [١]، فرحاً بهذا الانتصار السياسي، ورغبة في كسب ودّ أهل الحجاز الذين كانوا آنذاك في حاجة للدعم الاقتصادي. كما أشرنا إلى ذلك سابقاً.

وسرعان ما فقد العبيديون ما حققوه من نصرٍ سياسي بعد أن تخلى جعفر بن محمد أمير مكة في السنة التالية عن التبعية لهم بإعلان الخطبة على منابر مكة للعباسيين والقرامطة. كما بيّنا ذلك في الفصل الأول، وقد نتج عن هذا التذبذب السريع في سياسة جعفر بن محمد تردي أمني واضح في مكة، حيث بدأ التهديد العسكري يطرق أبوابها بعد أن أرسل المعز العبيدي جيشاً إلى مكة سنة ٣٦١هـ/٩٧١م لإعادتها للنفوذ العبيدي [٢]، وما أن وطئ هذا الجيش أرض الحجاز حتى أعلن أشراف المدينة انضوائهم تحت لوائه، وقد تحرك هذا الجيش صوب مكة وقبل أن يصلها خرج إليهم أميرها جعفر بن محمد مدعوماً بقوات من القرامطة - الحريصين آنذاك على استمرار مكة تحت النفوذ العباسي - واستطاع التصدي لهذه القوات ومنعها من دخول مكة[٣]. ويعتبر نجاحه سبباً في تخليص مكة من خطر وشيك لو وقع لأدى إلى فوضى عارمة، وتقويض لدعائم الأمن فيها.

ويُعد هذا الحدث أول تهديد عسكري مباشر تواجهه مكة منذ بدء التنافس بين العباسيين والعبيديين، وعلى الرغم من فشله في تحقيق هدفه،

(١) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج١، ص١٢٢ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٠٦؛ الجزيري، الدرر الفرائد، ج١، ص٥٢٤ .

(٢) نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٠٨.

(٣) نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٠٨؛ العصامي، سمط النجوم العوالي، ج٤، ص٢١٠ .

إلا أنه كان بداية لانفلات الأوضاع الأمنية في مكة، حيث سهل الأمر لتدخلات عسكرية أخرى من كلا الطرفين المتنافسين.

وبعد فشل العبيديين في إعادة نفوذهم على مكة بالقوة العسكرية عمدوا إلى استخدام طرق أخرى الغرض منها إحراج العباسيين، وإظهار ضعفهم أمام العالم الإسلامي، وعدم مقدرتهم على ضبط الأمن داخل مكة وخارجها، ومن ذلك ما حدث سنة ٣٦٣هـ/٩٧٣م عندما قدم إلى مكة رجل اعتنق الإسلام ظاهرياً [١]، ليتمكن من تنفيذ مخططه الهادف لزعزعة الأمن فيها، وأختار وقت القيلولة[٢] ليدخل الحرم الشريف مستغلاً قلة الطائفين حول الكعبة، ثم اتجه إلى الحجر الأسود، وضربه بمعول كان قد أخفاه معه لهذا الغرض، فتأثر الحجر جراء هذه الضربة، لكنه سلم من الكسر. وقبل أن يكمل مخططه الشنيع تداركه رجل من أهل اليمن، وطعنه بخنجر كان معه، فقتله، ثم أقبل الناس لينظروا إليه، وعلموا بعد ذلك أن هذا الرجل قد جاء من أرض الروم، وأن هناك جهة خفية تقف وراءه، هي من دفعته ومولته ليقوم بهذا العمل الإجرامي [٣]. ولا نستبعد أن يكون للعبيديين يدٌ في ذلك لجعل مكة تغرق في المشاكل الداخلية، مما يسبب حرجاً بالغاً للعباسيين أمام الرأي العام في العالم الإسلامي، ومما يؤكد ما ذكرناه توافق هذه الحادثة زمنياً مع ما ذكرناه سابقاً عندما قام العبيديون بدفع

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص٢٣٥ ؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٧، ص٥٨ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤١٠ ؛ سعيد عثمان، عبد المنعم الجميعي، الاعتداءات على الحرمين الشريفين عبر التاريخ. ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، ص٥٥.

(٢) السنجاري، منائح الكرم، ج٢، ص٢٠٤ .

(٣) نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤١٠ .

عدد من القبائل لقطع الطريق على الحجاج القادمين من العراق والمشرق الإسلامي.

وما أن نجح العبيديون في استرجاع نفوذهم على مكة بعد سياستهم السابقة وما جرته من تدهور أمني، حتى شرعوا في اتخاذ عدة خطوات أخرى لترسيخ هذا النفوذ، منها:

- ما يخص الجانب الروحي، حيث سعوا لنشر مذهبهم الإسماعيلي والترويج له في مكة، معتقدين أن اعتناق الناس لمذهبهم سيعزز من قوة الارتباط السياسي بهم، وبالتالي الولاء التام لدولتهم.

- ما يخص الجانب السياسي وذلك بجعل المدينة مركزاً لمراقبة سياسة أمير مكة تجاه العبيديين [1].

ولا شك أن لهذه الخطوات التي اتخذها العبيديون نتائج سلبية أثرت على الأمن الاجتماعي، حيث أدت إلى تفاقم المشاكل المذهبية بين فئات المجتمع المكي [2]، ويؤكد ذلك ما أشار إليه المقدسي[3], من حدوث مشادات وعصبيات مذهبية في تلك الفترة بين الجزارين، وهم من السنة، وبين الخياطين، وهم من أتباع المذهب الشيعي.

ومن جانب آخر فلا يُستبعد أيضاً - في ظل سياسة العبيديين آنفة الذكر - انتشار الجواسيس في مكة، فضلاً عن المأجورين الذين يراقبون تصرفات أميرها وأصحاب السلطة فيها, وقد ترتب على ذلك كله ضعف نفوذ هذا

---

(١) أحمد الزيلعي، مكة وعلاقاتها الخارجية، ص٤٤ .

(٢) عبد العزيز السنيدي، مكة في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، ص٩٢ .

(٣) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٩٦ .

الأمير في مكة، حتى وصل الأمر إلى تدخل أمراء المدينة في شؤون مكة الداخلية، بعد أن دخلوها، وأجلوا أشرافها منها [١].

ـ في عهد الشريف عيسى بن جعفر (٣٦٥ ـ ٣٨٤هـ/٩٧٥ ـ ٩٩٤م) :

يبدو أن السياسة العبيدية المتصلبة تجاه إمارة مكة، وتشديد القبضة على أشرافها، وتحجيم سلطتهم، والحدّ من حريتهم، قد أثرت في نفسيات هؤلاء الحكام، فرأوا في ذلك التصرف العبيدي تدخلاً صارخاً في شؤونهم الداخلية، وفي أدق تفاصيل حياتهم السياسية، فلم يعد لهم القدرة على تحمل تبعات ذلك الوضع، ووصل الأمر حدّ الاحتقان، وأصبح الناس في مكة ينشدون الحرية والتحرر من التسلط المفروض عليهم، فبمجرد أن نَصّب عيسى بن جعفر نفسه أميراً على مكة خلفاً لوالده الذي توفي في سنة ٣٦٥هـ/٩٧٥م، حتى أعلن تبعيته للعباسيين، متحرراً بذلك من الضغوط التي مُورِست على والده من قبل العبيديين، وممنياً نفسه بالحرية في اتخاذ القرارات السياسية داخل إمارته ، فضلاً عن المكاسب الاقتصادية التي ربما يحصل عليها في موالاته للجانب الأضعف في ذلك الوقت، وهم العباسيين [٢].

وما أن علم الحاكم العبيدي الجديد العزيز بن المعز بهذه التطورات الغير متوقعة في ظل تشديدهم القبضة على مكة، حتى قام بإنفاذ جيش كبير إليها في هذه السنة لإعادتها للنفوذ العبيدي، وأسند مهمة قيادة

---

(١) نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤١٠ ؛ الجزيري، الدرر الفرائد، ج١، ص٥٢٦ .

(٢) هذا بالرغم من أن العباسيين لم يبذلوا أي مجهود لإعادة الدعوة لهم في مكة، نظراً لانشغال البويهيين المسيطرين على الخلافة حينذاك بالفتن الداخلية بينهم . (أحمد الزيلعي، مكة وعلاقاتها الخارجية، ص٤٥).

الجيش إلى أمير علوي [1] - لم تحدد المصادر اسمه ، وذلك - فيما يبدو - لقلب نظام الحكم في مكة، وتهديد أميرها عيسى بن جعفر بإقصائه عن الإمارة إن هو استمر في ولائه للعباسيين، وإحلال هذا العلوي مكانه.

وبعد أن وصل الجيش العبيدي إلى مكة ضرب حولها حصاراً شديداً، وقطع التموين الغذائي عنها، وضيق الخناق على أهلها، ونتيجة لذلك انقلبت الأوضاع في مكة إلى الأسوأ، فارتفعت الأسعار، وانتشرت فيها المجاعة، وعانى أهلها صعوبة في توفير المأكل والمشرب. ورغم هذه المعاناة فقد استمر الجيش في تشديد حصاره على مكة، حتى نزل أميرها عند رغبة العبيديين، فأعاد لهم الخطبة [2]. ويبدو أن تراجع عيسى بن جعفر عن سياسته كان نتيجة خوفه على ذهاب منصبه في مكة، أو نزولاً عند رغبة أهالي مكة، الذين أجبروه - فيما يبدو - على الرضوخ للعبيديين، بسبب ما عانوه جراء الحصار الذي ضُرب عليهم من قبل الجيش العبيدي.

ورغم أن العبيديين تمكنوا من إعادة الخطبة لهم في مكة، إلا أنه لم يعد لهم ثقة في الأمير عيسى بن جعفر رغم استمراره في الدعوة لهم، فانتهجوا معه أسلوب القوة في تثبيت النفوذ، حيث عاودوا إرسال جيش أخر في سنة ٣٦٦هـ/٩٧٦م والتي بعدها، وتكرر ما حدث سابقاً من فرضٍ للحصار، وتدهورٍ في الأوضاع الأمنية والمعيشية في مكة [3].

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص٢٤٣ ؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج١، ص٢٣٨ .

(٢) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص٢٤٣ ؛ ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٧٩ ؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج١، ص٢٣٨ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤١٣ .

(٣) ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٩٣ ؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١١، ص٣١٠ ؛ الفاسي، العقد الثمين، ج٦، ٤٥٨ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤١٤، ٤١٥ - ٤١٦؛ الجزيري، الدرر الفرائد، ج١، ص٥٢٨ .

ومن أجل إعادة النفوذ والفوز بإعلان الخطبة فقد قامت الدولة العباسية ممثلة بالبويهيين بمحاكاة سياسة العبيديين في بعث الجيوش إلى مكة، فما أن استقرت الأوضاع ببغداد حتى قام البويهيون بإنفاذ جيش إلى مكة سنة ٣٦٨هـ/٩٧٨م ليقطعوا الطريق على العبيديين ويحرروها من سطوتهم، ويساعدوا أميرها عيسى بن جعفر على التخلص من التسلط العسكري العبيدي المفروض عليه ، وبالفعل نجحوا في مسعاهم، وعادت الخطبة لهم في تلك السنة. وابتهاجاً بهذا الانتصار العظيم قاموا بتوزيع الهدايا والأعطيات، وإغداق الهبات على أهل مكة [(١)].

ويبدو أن العباسيين قد أحجموا بعد ذلك عن إرسال الهبات والأموال إلى مكة، بعكس العبيديين الذين بدّلوا من طريقتهم المتشددة تجاه أمير مكة بعدما أيقنوا من عدم جدواها، حيث اتَّبعوا بعد ذلك سياسة اللين، ومعاملة عيسى بن جعفر بالتي هي أحسن، إضافة إلى توزيع الأموال والهدايا على أهل مكة، ولذا فإننا نلحظ اهتمامهم بقافلة الحج المتجهة إلى مكة سنة ٣٦٨هـ/٩٧٨م، حيث بعثوا معها الصلات للأشراف، وحمّلوها بالقمح والشعير والزيت، كما أرسلوا محراباً صنع من الذهب الخالص منقوش عليه اسم الخليفة العباسي لتأكيدِ سيادتهم على مكة [(٢)].

وبعد نجاح العبيديين في استرجاع نفوذهم على مكة بالطريقة السلمية استمروا بانتهاجها، فعاودوا في السنة التالية إرسال الهدايا والأموال وكسوة الكعبة، وزادوا فيها حتى بلغت مصروفاتهم في هذا الشأن حوالي مائة ألف دينار [(٣)]. وقد نتج

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٢٧٤ ؛ أحمد الزيلعي، مكة وعلاقاتها الخارجية، ص٤٥ .

(٢) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج١، ص٢٤٦ .

(٣) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج١، ص٢٥٢ .

عن ذلك سكون الأحوال في مكة، واستقرار الأوضاع الأمنية فيها قرابة عشر سنوات، إلى أن قام العباسيون بمحاولة التدخل مرة أخرى لزعزعة استقرار النفوذ العبيدي، فقاموا في سنة ٣٨١هـ/٩٩١م بمحاولة لقلب نظام الحكم في مكة، وذلك عندما كتب الخليفة العباسي القادر بالله (٣٨١ - ٤٢٢هـ/٩٩١ - ١٠٣٠م) إلى أبي الفتوح، شقيق أمير مكة عيسى بن جعفر كتاباً يستميله فيه، ويحرضه على إقصاء الوجود العبيدي والدعوة للعباسيين، مقابل تنصيبه أميراً على مكة، وقصر الإمارة على أبنائه من بعده[١]. غير أن أبا الفتوح رفض هذا العرض، وقام بخطوة أكثر جرأة وذلك عندما أطلع العبيديين على كتاب الخليفة العباسي، فما كان من الحاكم العبيدي العزيز إلا أن شكر أبا الفتوح على هذا الموقف الذي قوى من ثقته بولاء أمراء مكة تجاه الدولة العبيدية، وقابل ذلك الجميل بزيادة الصلات والهبات لأهل مكة، حتى أنفق ما مجموعه ثلاثمائة ألف دينار على الهدايا والكسوة والصلات[٢].

وكان من المتوقع بعد تلك الإجراءات أن تستقر الأوضاع في مكة، لكنها لم تسلم من الثورات الداخلية المخلة بالأمن، ففي سنة ٣٨٣هـ/٩٩٣م خرج على الأمير عيسى بن جعفر ثائر يدعى القاسم بن علي الرسي[٣]، لا يستبعد كونه مدعوماً من الدولة العباسية، يطلب الإمارة لنفسه، ويطمع في تولى الحكم في بلاد الحجاز. وقد شعر عيسى بن جعفر بخطر هذا الثائر، فاستنجد بالدولة

---

(١) العمري، مسالك الأبصار، ج٢٤، ص٣٨ ؛ الفاسي، العقد الثمين، ج٤، ص٧٧ ؛ المقريزي، المقفى الكبير، ج٣، ص٣٥٠ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٢١.

(٢) ابن ميسر، المنتقى، ص١٧١ ؛ الفاسي، العقد الثمين، ج٤، ص٧٧ ؛ المقريزي، المقفى الكبير، ج٣، ص٣٥٠ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٢١.

(٣) لم أعثر - بما توفر لدي من مصادر - على ترجمة لهذا الرجل.

العبيدية، التي أرسلت في السنة التالية حملة مكونة من ثلاثة آلاف وخمسمائة مقاتل لإعادة الاستقرار في مكة وتثبيت حكم أميرها عيسى بن جعفر. وقد نجحوا في ذلك دون حدوث أي اشتباكات عسكرية بين الطرفين، واستتب الوضع في مكة بالطريقة السلمية، بعد أن جنح الثائر القاسم بن علي الرسي [(١)] للصلح مع عيسى بن جعفر، متنازلاً عن طموحه في الإمارة [(٢)].

- في عهد الشريف أبي الفتوح الحسن بن جعفر (٣٨٤-٤٣٠هـ/٩٩٤-١٠٣٨م):

لما اعتلى أبو الفتوح سدة الحكم في مكة بدأت سلسلة جديدة من الأحداث والفتن المؤثرة على استقرار الأوضاع الأمنية، فقد عرف عنه طموحه في حب السيطرة والظهور، وأصبحت مكة تحت حكمه نقطة انطلاق لتنفيذ مخططاته الرامية للتوسع، فبدأ بالتحرك صوب المدينة، ولم يغب عن باله ما فعله أشرافها سنة ٣٦٣هـ/٩٧٣م من تدخل في شؤون مكة وإقصاء أشرافها. كما أشرنا إلى ذلك سابقاً، ووجدها فرصة للانتقام ورد الاعتبار خصوصاً بعدما لقي كل الدعم والتأييد من الحاكم بأمر الله العبيدي الذي شجعه على القيام بالهجوم على المدينة، وضمها إلى نفوذه، بعد أن خرج أمراؤها من بني مهنا الحسينيين عن سلطة العبيديين في تلك الفترة، وأخذوا يشككون في نسبهم ويقدحون بهم[(٣)]. ورغم أن أبا الفتوح نجح في ضم المدينة، إلا أنه عجز عن ضبط الأمن داخل مكة، والحد من التدخل العبيدي المستمر في الشؤون الداخلية لإمارته.

---

(١) لم أقف. فيما توفر لدي من مصادر. على ترجمة له.

(٢) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج١، ص٣٧٨ - ٣٧٩.

(٣) نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٢١؛ الجزيري، الدرر الفرائد، ج١، ص٥٣٢.

ففي سنة ٣٩٥هـ/١٠٠٥م استَعَرت بمكة فتنة عظيمة بسبب تصرفٍ غير محسوب العواقب من قبل العبيديين، وذلك عندما أرسل الحاكم بأمر الله العبيدي سجلاً يتضمن بين طياته شتماً لبعض الصحابة، وجرحاً لبعض أمهات المؤمنين رضوان الله عليهم، وطلب منه قراءته على الناس، غير أن أبا الفتوح كان متردداً في ذلك، لإدراكه ما قد يترتب على هذا الفعل من عواقب لا تحمد عقباها، لكنه في الوقت نفسه لا يستطيع رفض الطلب العبيدي، فأوكل تلك المهمة إلى قاضي مكة[1]، وسرعان ما انتشر الخبر بين الناس، فغضبوا لهذا العمل، وتكاتفت فئات عديدة من المجاورين والقاطنين بمكة لإنكار المنكر، وانضم إليهم بعض أبناء القبائل، واتجهوا للمسجد الحرام لمنع القاضي من قراءة السجل [2]، يقول البكري [3]مبيناً ما حصل: "فلما بلغ ذلك القاضي تثاقل عن الخروج وطال انتظار الناس له حتى قال قائل: قد صعد المنبر. فرماه الناس بالحجارة وزحفوا إليه فلم يجدوه عليه، فتكسر المنبر وصار رضاضاً. وكان يوماً عظيماً ومشهداً مهيباً، ولم يقدم أحد بعد ذلك أن يعلق بذلك المذهب".

وبعد هذه الحادثة سكنت الأحوال في مكة فترة قصيرة من الزمن إلى أن قامت ثورة أبى الفتوح الذي خرج على العبيديين وشق عصى الطاعة لهم، طمعاً في الرئاسة وحباً في الاستقلال. كما أشرنا إلى ذلك سابقاً. وعندما

---

(١) هو, قاضي الحرمين إبراهيم بن إسماعيل الموسوي , سمع ابن الأعرابي والآجوري, وحدث بمكة, وسمع منع عدد من طلاب العلم , تولى إمامة المسجد الحرام والقضاء بمكة , توفي في رمضان سنة ٣٩٩هـ.(الفاسي , العقد الثمين , ج٣, ص ٢٠٣- ٢٠٤).

(٢) البكري، المسالك والممالك، ج١،ص ٣٩٦ . ٣٩٧ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٣١.

(٣) المسالك والممالك، ج١،ص ٣٩٧.

لم يجد أبو الفتوح الأموال الكافية لدعم حركته لجأ بعد مشورةٍ من الوزير أبي القاسم المغربي إلى سلب أموال الكعبة، وتجريدها من أطواق الذهب والفضة التي كانت معلقة فيها، وضربها دراهم ودنانير سماها بالفتيحية[١]، نسبة إليه ، لتكون دليلاً ملموساً على استقلاليته التامة عن الدولة العبيدية.

وقد انعكست ثورة أبي الفتوح سلباً على استقرار الأوضاع في مكة حيث خرج منها قاصداً بلاد الشام، فاستغل العبيديون هذا الخطأ الفادح المتمثل بخروجه وترك مكة تحت إدارة نائب ضعيف لم يستطع الوقوف في وجه العبيديين الذين تمكنوا من إزاحته، وتنصيب داود بن عبد الرحمن الحسني، وهو أحد الأشراف من بني الطيب[٢]، كما قاموا بشراء ذمم بعض الأشراف الذين كانوا مؤيدين لثورة أبي الفتوح بالمال واستمالتهم لجانبهم[٣]، وذلك ليشعروا أبا الفتوح أنه بتصرفه هذا قد فقد منصبه في مكة، كما فقد مؤيديه من الأشراف فيها. وكان العبيديون قد عمدوا قبل ذلك إلى حصار مكة وعزلها عن بقية العالم الإسلامي، وأصدروا بذلك قراراً بمنع

---

(١) البكري، المسالك والممالك، ج١، ص٣٧٠ ؛ الفاسي، العقد الثمين، ج٤، ص٧٧ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٣٧ ؛ عز الدين ابن فهد، غاية المرام، ج١، ص٤٨٥ ؛ الجزيري، درر الفرائد، ج ١، ص٥٣٧ .

(٢) الطيبيون فرع من بني سليمان بن عبدالله بن موسى الجون، واصطلح المؤرخون الذين يقسمون تاريخ مكة على طبقات في تلك الفترة بأنهم يعتبرون الطبقة الثانية من طبقات الأشراف، ويطلق عليهم أيضاً لقب السليمانيون . انظر ؛ (أحمد الزيلعي، مكة وعلاقاتها الخارجية، ص٦٣) .

(٣) الروذراوري، ذيل تجارب الأمم، ج٣، ص٢٣٦ ؛ القلقشندي، مآثر الإنافة، ج١، ص٣٢٦؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٣٩ .

السفر إليها براً وبحراً، كما قاموا بقطع المعونات الغذائية الواردة من مصر عنها [(١)]، وذلك لردع كل من يفكر بتأييد مبدأ الاستقلال عن النفوذ العبيدي. وكان من نتيجة الإجراءات السابقة أن نجحوا في قمع حركة أبي الفتوح، ورده إلى الطاعة من جديد.

وفي الفترة المتبقية من حكم أبي الفتوح تعرضت مكة إلى حادثتين كان لهما الأثر الواضح في انفلات الأمن وزعزعة الاستقرار الداخلي، إحداهما: وقعت سنة ٤١٠هـ/١٠٢٠م وتمثلت بظهور رجل يدعى هادي المستجيش [(٢)] أخذ على عاتقه دعوة الناس إلى تقديس الحاكم بأمر الله العبيدي. إذ تذكر بعض المصادر أن هذا الرجل كان نازلاً عند أمير مكة أبي الفتوح، وأنه قام بأعمال منافية للدين، تمثلت في سب الرسول ﷺ، وإهانة المصحف الشريف، وقد شاع خبره في مكة، حتى علم به المجاورون، فقصدوا أبا الفتوح، وطالبوه بتسليم الرجل، ليقيموا عليه الحد، فرفض أبو الفتوح طلبهم، واحتج بأنه قد أعطاه الأمان، وأنه قد تاب، وندم على فعله. لكن المجاورين أصروا على تسليمه إليهم، وعدم قبول توبته مستشهدين بموقف الرسول ﷺ من عدم قبول توبة أبي خطل [(٣)]، ورغم ذلك فقد تمسك أبو الفتوح بموقفه الرافض

---

(١) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٩٠ .

(٢) ورد عند الفاسي بإسم هادي المستجيبين. وهو رجل ظهر بمكة في أيام الحاكم العبيدي. (الفاسي ، العقد الثمين ، ج٧ ، ٣٥٤ - ٣٥٥) .

(٣) هو عبدالعزى بن خطل وقيل هلال بن خطل وقيل عبدالله بن خطل، وكان ضمن التسعة نفر الذين استثناهم الرسول ﷺ، عندما أمَّن أهل مكة؛ حيث أمر بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة وهؤلاء التسعة هم : ابن خطل. وعبدالله بن أبي السرح وعكرمة بن أبى جمل والحارث بن نفيل ومقيس بن صبابة وهبار بن الأسود وقينتان لابن الأخطل وسارة مولاة بني عبد المطلب. (ابن هشام ، السيرة النبوية ، تحقيق، مصطفى السقى وآخرون ، بيروت: (د.ت)، ج٤، ص٤١١ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج١، ص٤٩٦ .).

تسليم الرجل، فضج الناس في نواحي مكة، واضطربت الأمور فيها، وكادت أن تقع الفتنة، فخاف أبو الفتوح من العواقب المترتبة على ذلك، فتنازل عن موقفه، وقام بتسليم الرجل وغلام مغربي كان معه إلى المجاورين الذين اقتادوهما إلى باب العمرة، حيث ضربت عنقيهما وصلبا، وأخذ الناس بعد ذلك برجمهما بالحجارة حتى سقطا على الأرض، فأحرقوهما، وانتهت بذلك هذه الفتنة(١).

وتمثلت الحادثة الأخرى باستهداف الكعبة عندما قام أحد الملحدين سنة ٤١٣هـ/١٠٢٣م بمحاولة تحطيم الحجر الأسود حيث دخل إلى الحرم ومعه سيف، وبيده الأخرى دبوس، وانتظر حتى فرغ الإمام من الصلاة (٢)، ثم اتجه صوب الكعبة موهماً الناس أنه يريد الطواف، فلما اقترب من الحجر الأسود ضربه ثلاث ضربات متتالية، وهو يقول بصوت مرتفع: "إلى متى يعبد هذا الحجر ومحمد وعلي فليمنعني مانع فإني أريد هدم البيت"، فتأثر الحجر من ذلك، وسقطت منه ثلاث شظايا، وهابه أكثر الناس وتراجعوا عنه، حتى كاد أن يفلت، إلى أن تجرأ بعض الرجال فطعنه بخنجر وأرداه قتيلاً(٣).

وترتب على هذه الحادثة فتنةٌ عظيمةٌ داخل مكة، اختل فيها الأمن ، فقد اتفقت بعض المصادر على أن هذا الرجل جاء من مصر، وأن الحاكم بأمر الله العبيدي هو من أغراه للقيام بذلك الفعل، وأمده ببعض الفرسان

---

(١) الفاسي، العقد الثمين، ج٧، ص٣٥٥ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج١، ص٤٤٥ ـ ٤٤٦، الجزيري، الدرر الفرائد، ج١، ص٥٤١ .

(٢) نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٨٨.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص١٥ ؛ السنجاري، منائح الكرم، ج٢، ص٢١٥ .

لحمايته. ولما علم أهالي مكة بذلك قاموا بتتبع المصريين والمغاربة يقتلونهم ويسلبون أموالهم رداً على قيام العبيديين بذلك الفعل الشنيع، وقد حاول أبو الفتوح التدخل لتهدئة الناس، وإنهاء الفتنة، لكنه فشل في ذلك، واشتعل فتيلها في اليوم التالي حتى استطاع أهل مكة في النهاية طرد كل من تأكد لهم صلته بتلك الحادثة من رعايا الدولة العبيدية، بعدما قتلوا منهم عشرين رجلاً[1]. ثم هدأت بعد ذلك الأوضاع وعاد الاستقرار ـ كما يبدو ـ إلى مكة، حتى توفي أبو الفتوح سنة ٤٣٠هـ/١٠٣٨م.

ـ في عهد الشريف شكر بن أبي الفتوح (٤٣٠ـ ٤٥٣هـ/١٠٣٨ـ ١٠٦١م):

تأزمت الأوضاع السياسية وتفاقمت المشاكل الأمنية في مكة بصفة خاصة وبلاد الحجاز بصفة عامة في عهد شكر بن أبي الفتوح ، وذلك بعد أن خرج فريق من الأشراف الموسويين عليه معارضين سياسته المتمثلة في موالاته المطلقة للدولة العبيدية، والخضوع الغير مبرر لهم، في ظل تقليصهم للمعونات المالية المعتاد إرسالها دورياً لأشراف الحرمين وأهل الحجاز [2]. ويرى الحزب المعارض لشكر أن عليه تغيير سياسته والاتجاه بالولاء للعباسيين إن استمر العبيديون في تحجيم المعونات، كذلك أخذوا عليه تصرفه المنافي للأعراف الدينية في منعه حجاج العراق من تأدية مناسك

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص١٥ ؛ الجزيري، الدرر الفرائد، ج١، ص٥٤٢.

(٢) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص١٦٣ ـ ١٦٤ ؛ أحمد الزيلعي، علاقات مكة الخارجية، ص٥٩ ـ ٦٠ ؛ بندر الهمزاني، علاقات مكة المكرمة الخارجية في عهد أسرة الهواشم . (رسالة ماجستير)، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى ١٤٠٩هـ، ص٥٢ .

الحج، إرضاء للعبيديين، ومخالفة صريحة لسياسة والده أبي الفتوح، الذي رفض في وقت سابق طلب الحاكم بأمر الله العبيدي منع الحجاج العراقيين من تأدية مناسك الحج، رغم ولاءه للدولة العبيدية ، والدعوة لها على منابر مكة في ذلك الوقت [١].

ومما زاد الأمور تعقيداً انضمام أهل المدينة وأشرافها إلى الحزب المعارض لسياسة شكر بن أبي الفتوح على الرغم من محاولته استمالتهم إلى صفه، وذلك باستدرار عواطفهم، وتذكيرهم بالمآسي التي حلت بالعلويين بسبب العباسيين، إلا أنه لم يجد منهم آذان صاغية [٢]، مما أجبره على اتخاذ موقف متشدد تجاههم فيما بعد.

وفي خضم المشاكل السياسية والانقسامات التي حلت بمكة وانصراف الدولة العبيدية عن التدخل لإيجاد حل لهذه المشاكل تعرضت بلاد الحجاز عامة، ومكة على وجه الخصوص لشح في الموارد الاقتصادية، ونقص في الغذاء والماء، وتدهورت فيها الأوضاع الأمنية، وانتشر في طرقاتها اللصوص، وعم فيها القتل والسلب، وقد وصف الرحالة ناصر خسرو الحالة التي كانت عليها مكة عندما حج سنة ٤٣٨هـ/١٠٤٦م، حيث قال [٣]: "... ولم يسافر إلى الحج في ذلك العام أي راكب، وكان الطعام شحيحاً،... وكان

---

(١) نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٢٤ ؛ أحمد السباعي، تاريخ مكة، ج١، ص١٨١ ـ ١٨٢ ؛ أحمد الزيلعي، علاقات مكة الخارجية، ص٥٩ ـ ٦٠ .

(٢) العمري، مسالك الأبصار، ج٢٤، ص٣٩ ـ ٤٠ .

(٣) رحلة ناصر خسرو ، ص٧٧ .

يوم عرفة هو يوم الاثنين، وكان الطريق مليئاً بالأعراب الخطرين الذين لا يتورعون عن القتل والسلب".

ويبدو أن الأوضاع الأمنية استمرت في التدهور، وظلت مكة تعاني من شدة القحط، ونقص المؤن، وصعوبة توفير الغذاء والماء، كما لم يحرك العبيديون ساكناً لتغيير الأوضاع في مكة حينذاك، مع أن الدعوة كانت لهم على منابرها، ومما زاد الأمور تعقيداً إصدار الحاكم العبيدي المستنصر بالله سنة ٤٣٩هـ/١٠٥٧م، وسنة ٤٤٠هـ/١٠٥٨م بياناً قرئ على الناس في مصر يأمر فيه بعدم الذهاب إلى الحج، معللاً ذلك بالقحط الشديد الذي حل في الحجاز، وهلك بسببه خلق كثير، واكتفى بإرسال كسوة الكعبة، فضلاً عن رواتب الأمراء والخدم[١]. ويفهم من خلال تتبع الأحداث أن القحط لم يكن السبب الوحيد في خوفه على المصريين، وربما ثمة أسباب أخرى؛ كعدم استقرار الأوضاع الأمنية في مكة، ووجود فريق معارض للعبيديين بسبب سياستهم المالية تجاه أهل الحجاز، وذلك في ظل ضعف مركز الأمير شكر بن أبي الفتوح، وعدم مقدرته توفير الحماية لنفسه وأتباعه فضلاً عن رعايا الدولة العبيدية.

وفي النهاية لابد للأمير شكر من إيجاد مخرجٍ لهذه الأزمة، وإلا سيتأثر مركزه كثيراً في ظل تدهور الأوضاع، ولذا فقد قرر الذهاب إلى مصر لمقابلة العبيديين والتباحث معهم حول المشاكل التي تحيط به ، وإيجاد حلول سريعة لها. وقد نجح شكر في انتزاع موافقة العبيديين بدعمه مالياً

---

(١) ناصر خسرو، رحلة ناصر خسرو، ص١١٩ ـ ١٢٣ .

ليستطيع بذلك تقوية مركزه السياسي، وتفريق كلمة خصومه، وتوطيد دعائم الأمن في مكة [1].

أما أهل المدينة الذين انقلبوا عليه وانضموا إلى خصومه - كما ذكرنا - فقد انتهج معهم الحل العسكري، فجرت بينه وبينهم حروباً كثيرة، إلى أن استطاع في النهاية التغلب عليهم، وضم المدينة لسلطته مرة أخرى [2]. واستقرت بعد ذلك الأوضاع حتى توفي شكر بن أبي الفتوح سنة ٤٥٣هـ/١٠٦١م.

ثانياً: الحالة الأمنية قبيل قيام حكم أسرة الهواشم.

أدت وفاة شكر إلى فراغ سياسي في مكة، حيث اتفقت أغلب المصادر على أن هذا الأمير لم يخلف ولداً يعقبه في الإمارة [3]، لذا قام أحد عبيده - كما أشرنا إلى ذلك سابقاً - بسد هذا الفراغ، وهذا ما يؤكد وجود انقسام حاد بين الأشراف، وعدم اتفاق بين أهالي مكة على شخصية معينة من هؤلاء لتولي الإمارة [4]. ولا شك أن ذلك كان نتيجة أسباب خلفتها المشاكل المتعددة بين الأشراف والتي ظهرت منذ بداية عهد شكر بن أبي الفتوح، هذا من جانب، ومن جانب أخر يجب أن لا نهمل أنه كان للعبيد بمكة وخصوصاً التابعين

---

(١) ناصر خسرو، رحلة ناصر خسرو، ص١٢٤ ؛ أحمد الزيلعي، علاقات مكة الخارجية، ص٦٠؛ بندر الهمزاني، العلاقات الخارجية لمكة في عهد أسرة الهواشم، ص٥٤ .

(٢) العمري، مسالك الأبصار، ج٢٤، ص٣٩ ؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج٤، ص١٣٢ ؛ الفاسي، شفاء الغرام، ج٢، ص٣١٠ .

(٣) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص٤٧ ؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج٤، ص١٣٢؛ ابن فضل الطبري، إتحاف فضلاء الزمن، ج١، ص١٠٠ .

(٤) أحمد السباعي، تاريخ مكة ، ج١، ص٢٣١ .

للأمير شكر بن أبي الفتوح دوراً سياسياً في تلك الفترة، حيث نجح بمعاونتهم أن يواجه خصومه من الأشراف، ويحد من سطوتهم [١].

ومن الطبيعي أن لا يقبل الأشراف بمكة أن يحكمهم أحد العبيد، فلم يقفوا مكتوفي الأيدي أمام هذا الوضع، مما حدا ببني الطيب السليمانيين بالتحرك لتغيير ذلك الوضع، واستطاعوا في النهاية من السيطرة على مقاليد الأمور بمكة، بعد طرد مملوك شكر منها[٢]. وبالرغم من ذلك فلم يتمكن بنو الطيب من توحيد صف الأشراف، وإيجاد حل للخلاف الدائر بينهم، كما أنهم لم يوفقوا في إدارة شؤون مكة، فعمّ السلب والنهب، وتعرضت مكة تحت حكمهم لأزمات اقتصادية خانقة تمثلت في ارتفاع الأسعار، وصعوبة في توفير الغذاء، خصوصاً بعدما فرضوا قيوداً مالية وضرائب عالية على التجار والحجاج القادمين إليها [٣]. ولم يعد للناس صبر على تحمل هذه الأوضاع المتردية، فانضموا للشريف أبي هاشم محمد بن جعفر الحسني الذي قاد ثورة الانقلاب على حكم بني الطيب، فقام ـ بعد أن دعمه أهالي مكة ـ بالاقتتال معهم، ولما أحس بنو الطيب بقرب هزيمتهم لاذوا بالفرار إلى بلاد اليمن، بعد أن اعتدوا على حرمة الكعبة، وجردوها من كسوتها، وسلبوا المال الذي بداخلها [٤]، آملين أن يكون هذا المال ـ

---

(١) جيرالد دو غوري، حكام مكة، ترجمة، محمد شهاب . القاهرة : ط١، مكتبة مدبولي، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، ص٦٠ .

(٢) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج٤، ص١٣٢ ؛ ابن فضل الطبري، إتحاف فضلاء الزمن، ج١، ص١٠٠.

(٣) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٩٠ .

(٤) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج٤، ص١٣٢ ؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٢٦٩ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٦٨ ؛ صبحي عبد المنعم، العلاقات بين مصر والحجاز، ص١١٥.

فيما يبدو ـ داعماً لهم في ترتيب صفهم، والعودة مرة أخرى إلى مكة، وإقصاء أبي هاشم منها.

وبعد هذه الأحداث رأت الدولة العبيدية أنَّ من مصلحتها التدخل عاجلاً لإقرار الأوضاع في مكة، حتى لا يستغل العباسيون هذا التدهور وذلك بمد نفوذهم إليها، وبالفعل تمكن العبيديون من ضبط الأمور الداخلية في مكة بعد أن توجه داعيتهم في اليمن علي بن محمد الصليحي إليها، وأقرّ فيها الأمن، وكف أيدي المعتدين على الحجاج [1]، وعمل على توفير الغذاء، فرخصت الأسعار [2]. واستطاع إقناع بني الطيب أن يردوا ما سلبوه من الكعبة، بعدما عرض عليهم المال مقابل ذلك [3]. إضافة إلى كل ما سبق فقد تمكن من جمع كلمة الأشراف تحت راية أبي هاشم، بعد أن عينه نائباً عنه في مكة، ودعمه بالمال، وأبقى معه حامية عسكرية تساعده على ضبط الأمن [4].

ثالثاً: الحالة الأمنية في مكة في عهد أسرة الهواشم.

ـ في عهد الشريف أبي هاشم محمد بن جعفر (٤٥٦ـ ٤٨٧هـ/١٠٦٣ـ ١٠٩٤م) :

يبدو أن موافقة الأشراف على تنصيب أبي هاشم نائباً على مكة لم يكن نابعاً عن قناعة تامة، فبمجرد أن خرج الصليحي سنة ٤٥٦هـ عائداً إلى

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٨، ص٩٦ ؛ الفاسي، شفاء الغرام، ج١، ص٣٦١ .

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٨، ص٩٦ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٦٩ ؛ عز الدين ابن فهد، غاية المرام، ج١، ص٥٠٩ ـ ٥١٠ ؛ يحيى بن الحسين، أنباء أبناء الزمن، ق٤٠ ؛ عبدالمنعم ماجد، السجلات المستنصرية، القاهرة : دار الفكر العربي، (د . ت)، ص٣٧ .

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٨، ص١٠٦ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص ٤٦٨ ؛ الصباغ، تحصيل المرام في أخبار البيت الحرام والمشاعر العظام ومكة والحرم وولاتها الفخام . تحقيق، عبد الملك بن دهيش، مكة المكرمة : ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م، ج٢، ص٧٣٥.

(٤) الفاسي، شفاء الغرام، ج٢، ص٣١٠ ـ ٣١١ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٦٩ ؛ عزالدين ابن فهد، غاية المرام، ج١، ص٥٠٩ ـ ٥١٠ .

اليمن انقلب بنو الطيب على أبي هاشم، وثاروا عليه، ونصَّبوا على الإمارة رجلاً منهم يدعى حمزة بن وهاس بن أبي الطيب [(١)]. ولكن أبا هاشم لم يقف أمام هذا التصرف مكتوف الأيدي، وإنما حاول جاهداً استعادة نفوذه، ولم ينجح[(٢)]، فاضطر للخروج إلى ينبع لحشد مزيدٍ من الأنصار والمؤيدين، ثم رجع إلى مكة وضرب عليها الحصار ومنع قوافل التجار من الدخول اليها، وجرت بينه وبين بني الطيب حروباً طاحنة، تمكن في نهايتها من التغلب عليهم، وتثبيت سلطته فيها [(٣)]. وقد تعرضت مكة خلال تلك الأحداث لعمليات سلبٍ ونهبٍ، وإخلالٍ بالأمن الداخلي، فضلاً عن انقطاع التموين الغذائي عنها عندما منع التجار من دخولها [(٤)].

ولم يكتف أبو هاشم بحكم مكة، بل طمع في استعادة جميع الأراضي التي كانت تابعة لإمارة مكة في عهد أسلافه، ومنها بعض المناطق التابعة حينذاك للحكم الصليحي في اليمن [(٥)]. كمنطقة حلي بن يعقوب[(٦)]. وما

---

(١) الفاسي، شفاء الغرام، ج٢، ص٣١١ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٦٩ ؛ الصباغ، تحصيل المرام، ج٢، ص٧٣٦.

(٢) أحمد زيني دحلان، خلاصة الكلام ، ص٣٢ .

(٣) نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٦٩ ـ ٤٧٠ ؛ الطبري، الأرج المسكي، ص١١٥؛ أحمد زيني دحلان، خلاصة الكلام، ص٣٢ .

(٤) الجزيري، الدرر الفرائد، ج١، ص٥٤٩ .

(٥) عبد المنعم ماجد، السجلات المستنصرية، ص٤٠ ؛ حسين الهمداني، الصليحيون والحركة الفاطمية، ص٩٣ .

(٦) مدينة تقع على ساحل البحر الأحمر وتبعد عن القنفذة التابعة لإمارة مكة ٦٠ كيلومترا, وسميت بذلك نسبة إلى ابن يعقوب مؤسس الأسرة الحاكمة بتلك المدينة , وتعرف اليوم باسم حلي قديم هاجر أكثر سكانها اليوم إلى القنفذة . (ابن عبد الحق , مراصد الإطلاع , ج١ , ص٢٠ ؛ عاتق بن غيث البلادي , بين مكة واليمن , ط١ , مكة ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م , ص ١٨٦).

أن علم الصليحي بتغير الأوضاع في مكة، وتعدي أبي هاشم على بعض ممتلكاته حتى قرر التوجه لتأديبه، واستأذن بذلك الدولة العبيدية، بعدما كتب إلى المستنصر كتاباً يطلب فيه التوجه إلى مكة، ومحاربة أبي هاشم، غير أن المستنصر رفض طلبه وحثه على التروي، وتلمس الأعذار لأمير مكة[1]، فما كان من الصليحي إلا أن قام بمنع أهل اليمن من التوجه إلى بلاد الحجاز، مما زاد من تأزم الأوضاع في مكة، يقول الفاسي [2]: "... ومنع الصليحي الحج من اليمن، فَعَلت الأسعار، وزادت البلية ".

وعندما قطع أبو هاشم الخطبة للعبيديين سنة ٤٥٨هـ/١٠٦٥م، وجدها الصليحي فرصةً لنيل مطلبه، والتوجه إلى مكة لتأديب أميرها، فكرر استئذانه للحاكم العبيدي المستنصر الذي قرر آنذاك قطع الميرة عن مكة غضباً من تصرف أبي هاشم [3] فأذن له بعد أن كتب له كتاباً يطلب فيه أن يقوم بمعالجة الأمور بحكمةٍ ورويةٍ, وأن يحرص على تجنب انتهاك الأماكن المقدسة وإراقة دماء العلويين , وأن يتجنب الفتنة ما استطاع إلى ذلك سبيلا، فتوجه إليها الصليحي سنة ٤٥٩هـ/١٠٦٦م، إلا أنه قُتل قبل أن يصلها، حيث قطع عليه سعيد الأحول النجاحي [4]الطريق، وقتله بمدينة

---

(١) عبد المنعم ماجد، السجلات المستنصرية، ص٤٠ .

(٢) الفاسي، شفاء الغرام، ج٢، ص٣١١ .

(٣) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج٤، ص١٣٢ ؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٢٧٥؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٧٠ . وقد ذكر ابن فهد أن قطع أبي هاشم الخطبة للعبيديين كان سنة ٤٥٧هـ .

(٤) هو ، سعيد بن نجاح الملقب بالأحول، ثاني حكام الدولة النجاحية التي حكمت منطقة زبيد وما حولها (٤٠٢ . ٥٥٣هـ/١٠١١ . ١١٥٨م)، وقد بدأ حكمه سنة ٤٥٢هـ/١٠٦٠م خلفاً لوالده الذي قتل مسموماً على يد الصليحي، وكانت فتره حكمه فترة صراع مع القوى المجاورة خاصة الدولة الصليحية . استمر حكمه حتى قتل سنة ٤٨١هـ/١٠٨٨م على يد الصليحيين . (الخزرجي، الكفاية والأعلام، ق٤٣أ ؛ ابن الديبع، قرة العيون بأخبار اليمن الميمون . تحقيق، محمد بن علي الأكوع، القاهرة : المطبعة السلفية ومطبعة السعادة، (د .ت)، ص٢٤٢ . ٢٤٣) .

المهجم[1]. ويظهر أن الإجراءات السابقة، فضلاً عن موقف أشراف مكة المعارض لعودة الخطبة للعباسيين قد أجبرت أبو هاشم فيما بعد على إعادة الخطبة مرة أخرى للعبيديين[2].

ومع ذلك فقد تكالبت على أبي هاشم الظروف بعد أن حلت بمصر الشدة العظمى، والتي استمرت لعدة سنوات، عانت خلالها مصر الكثير من المشاكل السياسية والاقتصادية، فأحجم العبيديون عن إرسال المعونات إلى الحجاز، وامتد أثر ذلك إلى مكة، ووقعت فريسة لهذه الأزمة، فعم فيها القحط، وانتشر الغلاء، وقد حاول أبو هاشم الخروج من هذا الوضع المتدهور، فقام بالاعتداء على حرمة الكعبة؛ وأخذ القناديل [3] المعلقة بها، ونهب ستورها، وقلع صفائح الباب، ثم قطع الخطبة للعبيديين، وخطب للقائم بأمر الله العباسي والسلطان السلجوقي، بعدما ما دعموه بثلاثين

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٨، ص١٠٦ ؛ الخزرجي، الكفاية والأعلام، ق٢٥ب، ٤٣أ ؛ العسجد المسبوك، ق٥٨ ـ ٥٩ ؛ ابن الديبع، قرة العيون، ص١٨١ ـ ١٨٢ . المهجم، بلدة يمنية قديمة الاختطاط، وهي من أعمال مدينة زبيد، وتقع في وادي سُرْدُد . جدد عمارتها خلال القرن الرابع الهجري الحسين بن سلامة وزير الدولة الزيادية . وقد خربت في القرن الثاني عشر الهجري، ولا تزال . (ياقوت الحموي، معجم البلدان ، ج٥، ص٢٢٩ ؛ إبراهيم أحمد المقحفي، معجم المدن والقبائل اليمنية. صنعاء : دار الكلمة، ١٩٨٥م، ص٤٢١) .

(٢) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج٤، ص١٣٢ ؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٢٧٥؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٧٢ .

(٣) القناديل: جمع مفردها قنديل , والقنديل أصغر من الثريا , وهو مصباح في وسطه فتيل يملأ بالماء والزيت ويشعل. (ابن منظور , لسان العرب , ج١١, ص ٥٧٠؛ رجب عبدالجواد ابراهيم , ألفاظ الحضارة في القرن الرابع الهجري (دراسة في ضوء مروج الذهب للمسعودي), بيروت: ط١ , دار الآفاق العربية ١٤٢٣هـ /٢٠٠٣م, ص ٣١٤).

ألف دينار[1]. ولا شك أن هذا التصرف من أبي هاشم يعد إخلالاً بالأمن الداخلي لمكة , وقد أثار ذلك الفعل سخط الأهالي، بما فيهم العلماء والمجاورين.

ولم يكتف أبو هاشم بذلك بل أقحم مكة في حروب ومشاكل خارجية[2] تمثلت بالهجوم على المدينة واحتلالها، بعد أن لقي دعماً من الدولة العباسية، يقول ابن خلدون [3]: "ثم جمع محمد بن جعفر أجناداً من الترك، وزحف بها إلى المدينة، فأخرج منها بني الحسين، وملكها".

وفي سنة ٤٦٧هـ/١٠٧٤م تلقى أبو هاشم تهديداً من قبل الدولة العبيدية بعد ما كتب إليه الوزير بدر الدين الجمالي[4], يتوعده بإبعاده عن إمارة مكة، وإحلال بني عمه من أشراف المدينة مكانه، ودعمهم بالمال والسلاح للوقوف ضده إن هو استمر بدعوته للعباسيين [5]، فاستشار أبو هاشم المقربين منه فأشاروا عليه بالعودة للعبيديين، وقد أعاد الخطبة لهم دون قناعة تامة بذلك، إذ سرعان ما أعاد في السنة التالية الخطبة

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٨، ص٦٢ ؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٩٥؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٧٢ ؛ العصامي، سمط النجوم العوالي، ج٤، ص٢١٤ ـ ٢١٥ .

(٢) أحمد الزيلعي، علاقات مكة الخارجية، ص٧٤ .

(٣) تاريخ ابن خلدون، ج٤، ص١٣٣ .

(٤) يرجع أصله إلى الأرمن , عمل حاجاً لصاحب دمشق فلما توفي قام بالأمور من بعده وتولى إمرة دمشق سنة ٤٥٥هـ/١٠٦٣م وانفصل عنها بعد عام ثم ولي الشام كله سنة ٤٥٨هـ/ ١٠٦٩م إلى أن استدعاه المستنصر العبيدي إلى مصر وولاه وزراة السيف والقلم , وأدار أزمة الأمور أيام الشدة العظمى التي حلت بمصر وأصبح قائد الجيش فيها , وكان عاقلاً كريماً محباً للعلماء توفي سنة ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م .(ابن كثير , البداية والنهاية , ج١٢ , ص ١٥٧ ؛ ابن خلدون , تاريخ ابن خلدون , ج٤ , ص٨١-٨٢).

(٥) محمد حمدي المناوي، الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي، القاهرة : دار المعارف، (د .ت)، ص٢١١.

للعباسيين [1]. فتسبب هذا التذبذب السريع في الولاء بين السلطتين العباسية والعبيدية إلى وقوع بعض المشاكل الأمنية في مكة، ومن أبرز ذلك ما حدث في سنة ٤٦٨هـ/١٠٧٥م من فتنة بين أمير الحج العراقي وعبيد مكة، حيث قام هؤلاء العبيد بالهجوم على أمير الحج العراقي في منزله بمكة، فهب لقتالهم، واشتبك الطرفان في معركة عنيفة امتد أثرها على الحجاج، وانتهت بهزيمة العبيد هزيمةً قاسية، بعد أن قُتل منهم عددٌ كبير[2]. ويبدو أن سبب قيام هؤلاء العبيد بالهجوم على أمير الحج العراقي عدم رضاهم عن إقامة الخطبة للعباسيين حينذاك، والرغبة في إعادتها للعبيدين.

ومن آثار تذبذب ولاء أبي هاشم ـ أيضاً ـ ما حدث في سنة ٤٧٠هـ/١٠٧٧م عندما ثارت فتنة بمكة، نتج عنها تكسير وإحراق المنبر الذي بعثه العباسيون لتقام عليه الخطبة لهم في الحرم المكي، وكان سبب ذلك عودة الخطبة للعبيدين بمكة[3].

كما استشرت الفتن المذهبية في مكة من جديد، حيث حدث في سنة ٤٧٢هـ/١٠٧٩م نزاع بين أهل السنة والروافض، زاد من حدته وقوف أمير مكة أبي هاشم بصف الروافض، فقام بضرب بعض علماء السنة ضرباً مبرحاً أفقد ثلاثة منهم حياتهم، وكان هيّاج بن عبد الله الحطيني[4] من أبرزهم[5].

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٧١ .

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص١٢٠ ؛ الفاسي، شفاء الغرام، ج٢، ص٣٦٣ .

(٣) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٩٠ ؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص١٢٥ ؛ الفاسي، شفاء الغرام، ج٢، ص٣٦٣ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٧٩.

(٤) هو فقية وخطيب شامي، جاور بمكة مدة ، وكان يفتي أهلها، وعرف عنه الزهد والاجتهاد بالعبادة عاش إلى ما بعد الثمانين وتوفي بمكة سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م.(ابن الجوزي , المنتظم , ج١٦ , ص ٢٠٩- ٢١٠؛ ابن كثير , البداية والنهاية , ج١٢ , ص١٢٨- ١٢٩).

(٥) ابن الجوزي، المنتظم، ج٨، ص٣٢٦ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٨٠.

وفي سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م أرسلت بغداد قوة عسكرية من التركمان لتأديب أبي هاشم، والاستيلاء على الحجاز واليمن، فدخلت جيوشهم إلى مكة، واشتبكت مع أبي هاشم في معركة عنيفة اختل على أثرها الأمن، وتدهورت بسببها الأوضاع، ولما أحس أبو هاشم بقرب هزيمته فرّ إلى بغداد علّه يسترضي الدولة العباسية، فتعيده إلى الإمارة من جديد [١].

ـ في عهد الشريف قاسم بن أبي هاشم (٤٨٧هـ ـ ٥١٨هـ/١٠٩٤ـ ١١٢٤م) :

استمرت مكة عرضة للتدخلات الخارجية، ففي بداية عهد قاسم بن أبي هاشم، الذي خلف والده على إمارة مكة، دخلها الجيش السلجوقي الذي قدم من العراق سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م بقيادة أصبهبذ بن سرتكين[٢]، لتأديب أميرها الذي استمر على سياسة والده المتقلبة في الولاء, وقد استطاع هذا الجيش دخول مكة عنوة، بعد أن أجبر أميرها وأتباعه من الأشراف وغيرهم على الفرار منها[٣]، واستمر فيها إلى شهر شوال من العام نفسه، ثم تمكن الأمير قاسم بن أبي هاشم من استعادة إمارته وطرد الجيش العراقي، بعد حرب طاحنة مع أصبهبذ دارت رحاها في عسفان[٤]، وانتصر فيها قاسم على خصمه[٥].

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٥٩ ؛ الفاسي، شفاء الغرام، ج٢، ص٣١٢ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٨٥ ؛ أحمد السباعي، تاريخ مكة، ج١، ٢٣٥ .

(٢) هو, قائد تركي تولى إمارة الحاج سنة ٤٨٩هـ- ٤٩٧هـ , ورد عند بعض المؤرخين بإسم أصبهذ بن ساوتكين.(الفاسي , العقد الثمين , ج٣ , ص ٣١٩).

(٣) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٢١٣ ؛ صبحي عبد المنعم، العلاقات بين مصر والحجاز، ص١٣٢ .

(٤) عسفان، منهلة من مناهل الطريق بين الجحفة ومكة، وسميت عسفان لتعسف السيل فيها. (ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص١٣٧) .

(٥) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٧٣ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٨٧ .

وفي سنة ٥١٤هـ/١١٢٠ وقعت مكة في ضائقة اقتصادية شديدة بعد أن أقدم العبيديون على قطع المعونات والإمدادات المعتادة عن أهلها، وذلك بسبب ما قام به الأمير قاسم من هجوم على التجار المصريين في عيذاب [١]سنة ٥١٢هـ/١١١٨م، وقتل عدداً منهم، وسلب ما كان بحوزتهم من أموال [٢].

وبعد الحادثة السابقة بسنةٍ تعرضت مكة لثورة داخلية حيث حاول رجل علوي ـ لم تذكر المصادر اسمه ـ انتزاع السلطة من الأمير قاسم بعد أن قوي أمره بتجمع الناس حوله، وقد نجح أمير مكة بدرء هذه الفتنة قبل استفحالها، حيث قبض على هذا الرجل، ونفاه عن بلاد الحجاز [٣].

ومما سبق يتضح لنا أن مكة قد عانت خلال فترة حكم قاسم بن أبي هاشم التي استمرت أكثر من ثلاثين عاماً، بعد أن عجز هذا الأمير عن إحكام السيطرة على الوضع العام في مكة، ويؤكد ذلك ما ذكره ابن خلدون من أن الشريف قاسم قد فشل في إقرار الأمن في مكة، والعمل على إصلاح شؤون الإمارة [٤].

---

(١) عيذاب، بليدة على ضفة بحر القلزم (الأحمر) وهي مرسى المراكب التي تقدم من عدن وتتجه إلى الصعيد. كانت مركزاً تجارياً مزدهراً. تعرضت للغزو الصليبي عام ٥٧٨هـ/١١٨٢م. هجرت واندثرت في القرن العاشر الهجري. وتلاشى طريقها التجاري وتحول عنها التجار والحجاج. (ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص١٩٣؛ نعيم زكي ، طرق التجارة ومحطاتها بين الشرق والغرب ، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م. ص ١٤٣ ـ ١٤٤).

(٢) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٥٨ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٩٧؛ الجزيري، درر الفرائد، ج١، ص٥٥٨ .

(٣) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٠٥ ؛ الفاسي، العقد الثمين، ج٧، ص٣٠ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٨٠ .

(٤) تاريخ ابن خلدون، ج٤، ص١٣٣ ـ ١٤٣ .

ـ في عهد بقية الأشراف الهواشم (٥١٨ ـ ٥٦٧هـ/١١٢٤ ـ ١١٧١م) :

تميز عهد الشريف فليته بن قاسم باستقرار الأوضاع الأمنية في مكة، بعد أن قام بإعفاء الحجاج والتجار عن دفع الرسوم، وأحسن معاملة أهل مكة والقادمين إليها[١].

ولم تسلم مكة من نشوب النزاعات بين أفراد الأسرة الحاكمة، فبعد وفاة فليته في سنة ٥٢٧هـ/١١٣٢م، نشب قتال عنيف فيها على الإمارة بين أبنائه، وبقي ذلك النزاع حتى تمكن هاشم بن فليته من الظفر بها [٢].

واتسم عهد هذا الشريف باختلال الأوضاع الأمنية في إمارة مكة، على العكس مما كانت عليه في عهد والده، نتيجة لخلافه مع العباسيين [٣]، فجرت بين الطرفين نزاعات أبرزها ما حدث في سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م عندما أوعز هاشم لبعض أتباعه بالهجوم على الحجاج العراقيين، وهم يصلون في المسجد الحرام، فسلبوا أموالهم، وضيقوا عليهم ، فهب أمير الحج العراقي لقتال أتباع هاشم وتحولت بذلك مكة إلى ساحة قتال فلم يأمن الناس على أرواحهم وأموالهم [٤].

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٢٢٦ ؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣١٤ ؛ الصباغ، ج٢، ص٧٣٧.

(٢) ابن عنبة، عمدة الطالب، ص١٠٦ ؛ الفاسي، العقد الثمين، ج٦، ص١٧٤ .

(٣) أحمد السباعي، تاريخ مكة، ج١، ص٢٣٨ .

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٢٣٥ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٥٠٨.

وبعد وفاة هاشم تولى الإمارة ابنه الأمير قاسم بن هاشم بن فليتة, وازدادت الأوضاع الأمنية سوءاً في مكة، حيث قام عبيده بعمليات سطو ونهب طالت الحجاج المصريين، وأثارت الفتنة بين الناس في مكة [١]. ولم تسلم مكة في ذلك الوقت من خطر القبائل المحيطة بها، حيث تعرضت لهجوم من قبل قبيلة هذيل[٢]، التي دخلت مكة سنة ٥٥٣هـ/١١٥٨م، وأعملت فيها السلب والنهب[٣]، مستغلة ـ فيما يبدو ـ ضعف الوضع الأمني داخل مكة آنذاك.

وفي سنة ٥٥٦هـ /١١٦٠م قام قاسم بن هاشم بالاعتداء على المجاورين والأعيان من أهل مكة، وصادر أموالهم، وذلك حينما أحس بالخطر المحدق به عندما علم بمسير الحاج العراقي إلى مكة، وكان على خلاف شديد مع العباسيين، وقد فرّ منها بعد أن أحدث إرباكا للأمن، ولم يستقر الوضع في مكة حتى دخلها ركب الحج العراقي، وأقرّ فيها الوضع، بعد أن نصَّب عيسى بن فليته أميراً عليها[٤].

ورغم ذلك لم تستقر الأوضاع داخل مكة، فلم تمض سنة على هذه الحادثة حتى قام قاسم بجمع قوات من مؤيديه، مع من أنضم إليه من الأعراب الذين

---

(١) عمارة اليمني، النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية، تحقيق، هرتويغ درنبرغ، القاهرة : ط٣، مكتبة مدبولي، ١٤١١هـ/١٩٩١م، ص١٢٣ ؛ الفاسي، العقد الثمين، ج٥، ص٤٦٠ .

(٢) قبيلة تنتسب لهذيل بن مدركة بن اليأس ، تسكن في الحجاز ، حول مكة ، ومنازلها في وادي نخلة ، قرب مكة على طريق الحاج ، وقد انتشرت بعد ظهور الإسلام في مناطق عديدة. (السمعاني ، الأنساب ، تحقيق ، عبد الله عمر البارودي ، بيروت : ط١ ، دار الجنان ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ، ج٥ ، ٦٣١ ؛ القلقشندي ، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب , بيروت: ط١, دا الكتب العلمية ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م ، ص٣٨٧) .

(٣) نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٥٢١ .

(٤) نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٥٢٣ .

أغراهم بالمال، ثم سار إلى مكة يريد قتال عمه عيسى، وإزاحته عن السلطة، ولما علم عيسى بهذا الخبر، فرّ من مكة، ودخلها قاسم بجموعه، وعاثوا فيها فساداً [1].

ثم تفاقمت الفتن في مكة فيما بعد عقب انقلاب الأعراب ضد قاسم الذي لم يلتزم بما كان قد وعدهم به من الأموال، ومما زاد الأمر سوءاً إقدامه على قتل أحد قادتهم. وقد نتج عن ذلك القضاء على قاسم، وعودة عيسى للسلطة مرة أخرى، بعد أن انضوى تحت لوائه أولئك الأعراب الذين كانوا مع قاسم بن هاشم[2].

ومع ذلك لم تستقر الأوضاع الأمنية في مكة بعد عودة عيسى للسلطة مرة أخرى حيث قام العبيد - وهم من أتباع قاسم فيما يبدو - بالهجوم على ركب الحج العراقي في منى سنة ٥٥٧هـ/١١٦١م، ووقعت بين الطرفين معركة قتل على أثرها عدد كبير من هؤلاء العبيد، ورجع من سلم منهم إلى مكة، فرتبوا صفوفهم من جديد، بعد أن انضمت إليهم بعض الجموع، ثم عاودوا الهجوم مرة أخرى، ونتج عن ذلك نهب وسلب لعدد كبير من الحجاج وأهل مكة، وعاد بعض الحجاج دون إكمال مناسك حجهم [3].

ولعل هؤلاء العبيد لم يكونوا راضين عن عودة عيسى للحكم خصوصاً وأنه كان المتسبب الأول في مقتل أميرهم قاسم ، أو أنهم كانوا ساخطين

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٧٧ ؛ الفاسي، العقد الثمين، ج٧، ص٣٥ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٥٢٤ .

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٧٧ ؛ الفاسي، العقد الثمين، ج٧، ص٣٥ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٥٢٤ - ٥٢٥

(٣) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٠، ص٢٠٢ ؛ ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٨٠ ؛ أبو الفدا، المختصر، ج٢، ص١١٣ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٢٢٥ .

على العباسيين الذين دعموا عيسى في حربه ضد قاسم , فقاموا بهجومهم السابق على حجاج الدولة العباسية.

وفي خضم النزاع المؤدي إلى اهتزاز الوضع الداخلي في مكة وقع بين عيسى بن فليته وأخيه مالك سنة ٥٦٥هـ/١١٦٩م تنافس على السلطة أدى إلى اضطراب الأمن، وعرقلة الحج، وذلك بعد أن منع مالك أخاه عيسى وأتباعه من الوقوف في عرفة. ثم زاد هذا الصراع بين الأخوين في السنة التالية، ففي يوم عاشوراء دخل مالك إلى مكة وجرى بينه وبين أخيه عيسى نزال، امتد إلى وقت الزوال، وانتهى بخروج مالك إلى بلاد الشام، بعد أن أحس بضعفه أمام أخيه، وعدم مقدرته على مجابهته [١].

ولم يلبث مالك أن عاود الكرة من جديد وذلك في أواخر سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م طامعاً بالإمارة ، فعسكر ببطن مرّ [٢] أياماً، ثم دخل مكة، ونزل الأبطح[٣]، وقبل ذلك كان قد سيطر على جدة، ليقطع التموين عن مكة، وقام بالتحالف مع قبيلة هذيل لنصرته، إضافة لكسب تأييد الأشراف المقيمين ببطن مرّ. وقد حاصر مكة عدة أيام، لكنه لم يستطع دخولها، حيث

---

(١) نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٥٣١ ـ ٥٣٢ ؛ عز الدين ابن فهد، غاية المرام، ج١، ص٥٣٢.

(٢) بطن مَرّ، من نواحي مكة، يقع إلى الشمال منها . تجتمع عند سيول وادي النخلتين فيصيران وادياً واحداً , ويسمى مر الظهران وهو من أكبر الأودية في مكة وسمي بذلك الأسم لمرارة مياهه, وأكثر سكانه من الأشراف من بني الحسن , ويعرف اليوم بوادي فاطمة (ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، ص٤٤٩ ؛ عاتق البلادي، معجم معالم الحجاز . مكة المكرمة , دار مكة ١٩٧٨ ـ ١٩٨٢م ج١، ص٢٣٤) .

(٣) الأَبْطَح، مكان بين مكة ومنى، ويقال أبطح مكة، وأبطح منى، وهو إلى منى أقرب، ويسمى المحصب، لأنه عبارة عن رمل منبسط من أثر السيول. (ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، ص٧٤ ؛ عاتق البلادي، معجم معالم الحجاز، ج١، ص٣١) .

تصدى له أخوه عيسى، ونجح في إبعاده عنها، بعد أن قتل جماعة من أتباعه، فاضطر مالك إلى العودة لبلاد الشام مرة أخرى [١].

(١) الفاسي، العقد الثمين، ج٥، ص٤٣٨، ج٦، ص٢٢ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٥٣٢ ؛ بندر الهمزاني، علاقات مكة الخارجية، ص١١١ .

المبحث الثاني: الحالة الأمنية في طرق الحج.

كان العباسيون يولون طرق الحج أهمية كبيرة طوال حكم دولتهم، غير أن هذا الاهتمام كان يشتد أحياناً ويضعف في بعض الأحيان وذلك تمشياً مع أوضاع الخلافة من حيث قوتها وضعفها على مر تاريخ الدولة العباسية, وكان اهتمامهم هذا منصباً على تأمين جميع الطرق وذلك في صدر الخلافة، بسبب وجود حكومة مركزية قوية في بغداد، وبعدما تراخت قبضة الخلافة في منتصف القرن الثالث الهجري واستقلت بعض الولايات عنها ضَعُفَ اهتمام الدولة بطرق الحج وتركت أمر حمايتها لحكومات تلك الولايات, واقتصر اهتمام العباسيين بعد ذلك على تأمين طريق الحاج العراقي, الذي يربط مركز الخلافة بالأراضي المقدسة (١).

وفي النصف الأول من القرن الثالث الهجري تبدلت سياسة العباسيين نحو العرب فعملوا على إقصاءهم و التقرب إلى الأتراك، وقد أدى ذلك إلى تذمر هؤلاء العرب وسخطهم على الدولة العباسية، كما اتخذت القبائل العربية الكبرى موقفاً عدائياً من العباسيين, وتولدت عندها حالة من الحقد والكراهية, نتيجة ضعف الإدارة في بغداد وفساد الحكم فيها وانشغال الخلفاء بأمورهم الخاصة عن متابعة الأحوال العامة لدولتهم، كما كان لتقاعس الخلافة العباسية في دفع ما كان يعطى لهذه القبائل من أعطيات دور سلبي في حالة البؤس التي وصلت لها تلك القبائل، والحاجة الماسة إلى الأموال, فأخذت تتصدى لقوافل الحج التي ترد إلى مكة لتقوم بنهبها والاستيلاء على ما يصحبها من أموال وأمتعة، وتزايدت هذه الهجمات من

---

(١) خالد الخالدي، تنظيمات الحج وتأثيراته، ص ٢٤١.

قبل الأعراب على قوافل الحج في مطلع القرن الرابع الهجري حيث سجلت لنا المصادر التاريخية أحداثاً مؤسفة واعتداءات متكررة تعرض لها الحجاج في طريق سيرهم نتيجة لما ذكرنا، وتراوحت هذه الأحداث ما بين بطلان الحج وإزهاق لأرواح الحجاج، و انتهاك لحرماتهم , وسلب لأموالهم، أو أخذ الضرائب الباهظة منهم نظير فتح الطريق لهم لإكمال سيرهم إلى مكة.

وشهدت فترة التنافس بين العباسيين والعبيديين على النفوذ في مكة اختلالاً واضحاً في أمن طرق الحج, حتى فاق ذلك ما كان عليه الوضع في الحقب السابقة , التي لم تخل من توتر أمني على هذه الطرق, ولا شك أن للتنافس الشديد بين العباسيين والعبيديين على مكة بصفة خاصة وبلاد الحجاز بصفة عامة أثرٌ واضح في تفاقم هذه الاعتداءات وزيادتها , ويعود ذلك ـ من وجهة نظرنا ـ إلى عدة أسباب:

- ما يتعلق بالناحية الاقتصادية: حيث نلحظ المبالغة الشديدة في رفع قيمة الأعطيات والهبات والخلع والأموال التي يقوم كل من العباسيين والعبيديين بإرسالها إلى الإشراف في مكة من أجل التقرب لهم وكسب ودهم والفوز بإعلان اسم هذا الخليفة أو ذاك على منابر مكة , وهذا ما جعل قوافل الحج المثقلة بتلك الأموال سواء القادمة من العراق أو مصر عرضة لقطاع الطريق من الأعراب الذين يزداد طمعهم كلما علموا بخروج قافلة محملة بتلك الأموال والأمتعة.

- ما يتعلق بالناحية السياسية: وذلك بعد انشغال كل من الدولتين العباسية والعبيدية بالصراع السياسي فيما بينهما من أجل الظفر بالنفوذ في مكة ـ آنذاك ـ ما تسبب في إهمال تلك الطرق , وصرف النظر عن تأمينها وإقامة المشاريع الإنمائية والإصلاحية فيها , فعم فيها الفساد واستشرت

الفتن، وزاد الأعراب من تحركات التمرد والعصيان التي يقومون بها على طول تلك الطرق، كما ظهرت خلال تلك الفترة بعض التحالفات والاتفاقات التي تعقدها إحدى الدولتين مع أولئك الأعراب، وجعلهم سلاحا لضرب الطرف الآخر، وإن كان ذلك على حساب أمن وسلامة حجاج بيت الله الحرام .

وسوف يتناول هذا المبحث في الفترة التي شهدت تنافساً بين العباسيين والعبيديين على بلاد الحجاز أبرز الأحداث الأمنية التي وقعت على طرق الحج التي تربط مكة ببعض الأقاليم الإسلامية كإقليم العراق والشام ومصر واليمن.

- الحالة الأمنية في طريق الحج العراقي:

ارتبط العراق بالحجاز بعدد من الطرق البرية القديمة ، من أشهرها الطريق الذي يخرج من الكوفة والمسمى بالطريق الكوفي ، وطريق آخر يخرج من البصرة يسمى بالطريق البصري(١)، ويعد هذان الطريقان من أهم طرق الحج والتجارة التي تربط العراق والمشرق الإسلامي بمكة ، وزاد من أهميتهما انتقال مركز الخلافة الإسلامية إلى العراق ، وذلك بعد قيام الدولة العباسية ، حيث أولى الخلفاء العباسيون عنايتهم لهذه الطرق (٢)

---

(١) الحربي ، المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة ، تحقيق ، حمد الجاسر ، الرياض : ط٢، دار اليمامة ١٤٢٠هـ/١٩٨٧م، ص٥٦ ؛ قدامة بن جعفر ، الخراج وصنعة الكتابة " المنزلة الخامسة "، تحقيق، طلال جميل الرفاعي، مكة المكرمة: ط١، مكتبة الطالب الجامعي ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص ٦٨.

(٢) فؤاد حمزة ، قلب جزيرة العرب ، الرياض: ط٢، مكتبة النصر الحديثة ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م ، ص٤٣.

والمتتبع للأحداث الأمنية على طرق الحج عامة يلحظ زيادة الحوادث التي طالت أمن الحجاج وتعددها على طريق الحج العراقي أكثر من غيرها , خصوصاً في هذه الفترة التاريخية التي تتناول الدراسة أحداثها , ولعل ذلك عائد لعدة أسباب نذكر منها :

- ما يتعلق باهتمام المؤرخين في تلك الفترة بتدوين حوادث ذلك الطريق أكثر من اهتمامهم بتدوين حوادث غيره بغيره من الطرق .
- يربط هذا الطريق عاصمة الخلافة بالحجاز ومن الطبيعي أن يكون مطمع للصوص والأعراب من قطاع الطريق أكثر من غيره من بقية الطرق, حيث وفرة الأمتعة والأموال التي تحمل عبره من عاصمة الخلافة بواسطة قوافل الحج والقوافل التجارية المتجهة الى الحجاز.
- ما يتعلق بسياسية اللين والمهادنة ودفع الأموال التي اتبعتها الدولة العباسية مع الأعراب القاطنين على طول الطريق الرابط بين العراق والحجاز , وعدم استخدام القوة معهم , وذلك اتقاء لشرهم , مما جعل أولئك الإعراب يفسرون ذلك بالضعف وعجز الخلافة عن الدفاع عن أراضي الدولة, فكثفوا من تحركاتهم وهجماتهم على الحجاج طلباً للمزيد من المال , مستغلين ذلك الضعف برأيهم .
- سخط القبائل العربية الكبرى في الجزيرة العربية على العباسين بسبب إقصائهم وإسقاطهم من ديوان العطاء واستبدالهم بالأتراك كما سبق وان ذكرنا .
- نجاح الدولة العبيدية في استخدام سلاح الأعراب وتسليطهم على طريق الحج العراقي في أكثر من حادثة , وذلك للتأثير على المصالح

العباسية وإحراجها أمام العالم الإسلامي, وإظهار عجزها في الدفاع عن رعاياها.

أما ما يتعلق بأول تهديد للأعراب على طريق الحج العراقي في هذه الفترة فيأتي متزامناً مع إعلان الأشراف استقلالهم بإمارة مكة ودعوتهم للعبيديين على منابرها, حيث ذكر السنجاري [1]أن الأعراب خرجوا في سنة ٣٥٨هـ/٩٦٨م يترصدون قدوم الحاج العراقي , وبطل الحج من جميع النواحي, غير أن الحجاج العراقيين استطاعوا الوصول إلى مكة للحج وذلك بعدما تم حمايتهم من قبل القرامطة الموالين للبويهيين والعباسيين في بغداد.

ولعل ذلك التحالف الذي تم بين العباسيين والقرامطة من أجل حماية الحجاج من رعايا الدولة العباسية لم يعجب الدولة العبيدية, فأوعزت إلى زعماء قبيلة بني هلال[2] باعتراض ركب الحاج العراقي[3], وذلك لإحراج

---

(١) السنجاري، منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم. تحقيق، جميل عبد الله المصري وآخرون, مكة المكرمة: ط١، مركز إحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ج٢، ص٢٠٤.

(٢) نسبة إلى هلال بن عامر، بطن من عامر بن صعصعة، وهم من العرب العدنانية، ويرجعون إلى قبيلة هوازن، وهي قبيلة كبيرة ينسب إليها كثير من العلماء، كسفيان بن عيينة، وأبو أحمد الهلالي، وكذلك زوج النبي صلى الله عليه وسلم زينب المعروفة بأم المساكين رضي الله عنها . وكانوا يقطنون بالحجاز ونجد ويتمركزون حول مكة وبسائط الطائف ثم رحلوا بعد ذلك إلى الشام ومصر والمغرب . (القلقشندي، قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان. تحقيق، إبراهيم الأبياري، ط١، دار الكتب الحديثة، القاهرة ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م، ص١١٧ - ١١٩ ؛ محمد رضا كحالة، معجم قبائل العرب القديمة والحديث، بيروت، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م، ج٣، ص٢٠٢).

(٣) نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤١٠.

الخلافة العباسية, وإظهارها بمظهر العاجز عن حماية الحجاج , وتوفير الأمن لهم وتشويه صورتها أمام الرأي العام في العالم الإسلامي , كما سبق وأن ذكرنا.

وبالفعل فقد نجح العبيديون فيما رموا إليه فخرج بنو هلال على الطريق سنة ٣٦١هـ[١], يرصدون قدوم الحجاج العراقيين, وقاموا باعتراضهم , ونهبوا أموالهم، وقتلوا منهم جماعة كبيرة، وقد تعثر سير الحج في هذه السنة، ولكنه لم ينقطع, حيث سلم بعض الحجاج - وهم قلة- وتمكنوا من مواصلة السير إلى مكة، وذلك بعدما غيروا مسار طريقهم, وسلكوا طريق المدينة، وذلك لتلافي خروج الأعراب عليهم مرة أخرى ، وأتموا حجهم لهذا العام[٢].

وكرر العبيديون فعلتهم السابقة في دفع بني هلال للخروج واعتراض الحجاج القادمين من العراق مرة أخرى وذلك سنة سنة ٣٦٣هـ/٩٧٣م ، حيث ذكر بعض المؤرخين أن الحاكم العبيدي المعز لدين الله قام بتسليطهم وجماعه معهم على الحجاج العراقيين, فقطعوا عليهم طريق الحج، كما قاموا بوضع السيف في رقابهم , وقتلوهم شر قتلة، و سلبوا أموالهم وأمتعتهم، وبطل الحج في هذه السنة لضيق الوقت، وقلة من نجى من الحجاج[٣].

---

(١) السنجاري، منائح الكرم، ج٢، ص٤٠٨ .

(٢) نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٠٩.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٥٨ ؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١١، ص٢٩٤ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ص٤١٠ ؛ الجزيري، الدرر الفرائد المنظمة، ج١، ص٥٢٦ .

وبهذا نجد أن العبيديين قد تمكنوا بالفعل من النجاح في تحريض بعض تلك القبائل, واستخدامهم كسلاح ضد المصالح العباسية , كما أنهم أعطوا بقية القبائل الأخرى القاطنة على طول طريق الحج العراقي الدافع الأكبر ليقوموا بممارسة الغزو والإغارة وقطع الطريق على الحجاج العراقيين وسلب ما يحملونه من مال ومتاع.

وخير دليل على ذلك ما حصل سنة ٣٦٤هـ/٩٧٤م عندما وصل الخبر للحجاج العراقيين أثناء عودتهم من مكة يخبرهم بوجود بعض القبائل المتربصة بهم من قطاع الطريق، فآثر الحجاج البقاء في مكانهم، ولم يكملوا السير إلى العراق حتى تأكدوا من سلامة الطريق إليها [(١)].

وفي سنة ٣٧٨هـ/٩٨٨م تعرض الحجاج العراقيون لمصاعب جمة , بعدما اعترض طريقهم زعيم بني الجراح المفرج بن دغفل ,وحاصرهم في مكان يعرف بواقصة [(٢)] وضيق عليهم الخناق ولم يخل سبيلهم حتى دفعوا له الأموال[(٣)].

ويبدو أن الأموال التي أخذها المفرج بن دغفل قد زادت من أطماعه ودفعته لأن يكرر فعلته السابقة، فقام في السنة التالية باعتراض الحجاج العراقيين

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص٢٣٦. ٢٣٧ ؛ ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٦٥ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤١١ . ٤١٢ ؛ الجزيري، الدرر الفرائد المنظمة، ج١، ص٥٢٧ .

(٢) واقصة, منزل بطريق مكة بعد القرعاء على النحو من مكة وقبل العقبة ، لبني شهاب من طيء ويقال واقصة الحزون وهي دون زبالة بمرحلتين, (ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج٤ ، ص٣٥٤).

(٣) نجم الدين ابن فهد ، إتحاف الورى ، ج ٢ ، ص٢٤ ؛ الجزيري ، الدرر الفرائد المنظمة ، ج١ ، ص٥٢٩ .

مرة أخرى، في مكانٍ بين سميراء [١] وفيد [٢] وحاصرهم ولم يخل سبيلهم حتى اتفق معهم على أن يدفعوا له ما قيمته ثلاثمائة ألف درهم، ثم طالبهم بالزيادة، ولم يكن معهم ، فسلب الكثير من متاعهم وثيابهم، وانصرف عنهم بعدما تركهم بلا مال أو متاع[٣].

ولم يكن زعيم بني الجراح المفرج بن دغفل وحده من تعرض للحجاج وكرر قطعة لطريق الحج العراقي بل تبعه في فعله ذلك عدد من زعماء القبائل منهم - على سبيل المثال - زعيم قبيلة المنتفق [٤] أحمد بن حنين بن حماد، المعروف بالأصيفر.

وكان الأصيفر قبل شروعه في مضايقة الحجاج وقطعه الطريق عليهم قد جمع حوله عدداً من الأعراب، ثم أرسل بعض رجاله إلى بغداد ليُخبر الخليفة العباسي أنه عازم على تأمين طريق الحج، كما قطع له الوعود

---

(١) سميرا، سميت بذلك باسم رجل من عاد يقال له سميرا، وهي منزل بطريق مكة بعد توز مصعداً وقبل الحاجر، وهي الآن قرية من قرى إمارة حائل وأكثر سكانها من بني تميم. (ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٢٠١؛ الجاسر، المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية ، الرياض: دار اليمامة ، (د.ت)، ج٢ ، ص٧٤٠) .

(٢) فيد، منزل بطريق مكة، وهي بلدة في نصف الطريق بين مكة والكوفة، وهي عامرة حتى الآن يودع فيها الحجاج أزوادهم وأمتعتهم. (ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٣، ص٣١٤) . ولمزيد من المعلومات عن هذه المدينة ومكانتها السياسية والحضارية في العصر العباسي، انظر (عبد العزيز بن راشد السنيدي، مدينة فيد : دراسة في تاريخها السياسي والحضاري حتى نهاية العصر العباسي . الرياض : ط١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م .

(٣) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص٣٣٧ ؛ ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٤٤٢ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٢٠.

(٤) المنتفق ، بطن من عامر بن صعصعة من العدنانية ، يسكنون جنوب العراق ، ومنازلهم بين الكوفة والبصرة ، تعرضوا للحاج وقطعوا طريقهم في بعض السنين.(القلقشندي ، نهاية الأرب، ص٧٥).

بمناصرة العباسيين وإعادة الخطبة لهم في اليمامة والبحرين والكوفة(١).
وبالفعل فقد أوفى الأصيفر بوعده المتضمن تأمين طريق الحج حيث نجح في إبعاد خطر القرامطة المتربصين بالحجاج القادمين من العراق، بعد أن قاتلهم، وذلك سنة ٣٨٠هـ/٩٩٠م, غير أنه طمع في الأموال التي يحملونها فطلب منهم أن يدفعوا له قيمة المال الذي كانوا يدفعونه للقرامطة قبل أن يقوم هو بحمايتهم، ، فاضطروا بعد إلحاح منه لتنفيذ مطالبه، وأعطوه الأموال بعد رجوعهم من مكة(٢).

وتعلق طمع الأصيفر بالمال الذي يدفعه الحجاج له, واستمر في مضايقتهم في سبيل الحصول عليه, فقام باعتراض طريقهم وهم متوجهون إلى مكة سنة ٣٨٣هـ/٩٩٣م, وطلب منهم تسليمه الأموال نظير أن يفتح الطريق أمامهم ليمروا بسلام، ولم يكن للحجاج بد من دفع المال له كرهاً حيث أن رفضهم لمطالبه سيفوت عليهم الحج، وبعد أن دفعوا له ما كان قد طلبه منهم, سمح لهم بالعبور إلى مكة دون أن يتعرضهم بأذى(٣).

وفي السنة التالية اضطر الحجاج العراقيون إلى الرجوع من حيث أتوا دون أن يتمكنوا من الوصول إلى مكة وتأدية فريضة الحج , ويعود السبب في ذلك لاعتراض الأصيفر الأعرابي طريقهم ومحاصرتهم في مكان يعرف بالهبير(٤)

---

(١) عبدالله أبو عزة، القرامطة وقبائل الأعراب البادية، مجلة المؤرخ العربي، ع٢٨، س١١، بغداد ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص٥٨ — ٥٩ .

(٢) نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٢١ ؛ الجزيري، الدرر الفرائد المنظمة، ج١، ص٥٢٩ . ٥٣٠ .

(٣) نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٢٢ . ٤٢٣ .

(٤) الهبير ، رمل قرب زرود ، في طريق مكة , حدثت فيها وقعه ابن أبي سعيد الجنابي في شهر محرم سنة ٣١٢هـ/٩٢٤م, وهي منهل لقبيلة شمر بمنطقة أمارة حائل تابع لمركز تربة.(ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج٥ ، ص٣٩٢ ؛ حمد الجاسر ، المعجم الجغرافي, ج٢ ، ص٦٨٠).

ومنعهم من مواصلة السير إلى مكة بحجة أن المال الذي دفعوه له عام أول كان مالاً مزيفاً[1].

وبعد هذه الحادثة تبين للحجاج مدى الخطر الذي يشكله الأصيفر بخروجه المتكرر عليهم وقطعه طريق الحج، فسعوا حثيثاً لتأمين المال في وقت مبكر ليدفعوه له حتى لا يفوتهم الحج [2]. وقد تكفل بدر الدين بن حسنويه[3]بدفع ما قيمته خمسة آلاف دينار سنوياً للأصيفر عوضاً عما كان يأخذه من الحجاج, مقابل أن لايتعرض لهم وأن يسعى في حمايتهم, فوافق الأصيفر على ذلك, إلا أنه بعد مدة طالب برفع قيمة الرسم حتى بلغ تسعة آلاف ومائتين دينار ، واستمر بأخذ ذلك المال إلى حين وفاة بدر الدين بن حسنويه سنة ٤٠٥هـ/١٠١٤م [4].

وعوداً إلى ما كان يمارسه العبيديون من تحريض للأعراب لقطع الطريق على الحجاج العراقيين فقد قام زعيم بني الجراح المفرج بن دغفل في سنة ٣٨٦هـ باعتراض قافلة الحج العراقية بعدما دفعه الحاكم بأمر الله العبيدي لذلك، غير أن الحجاج استطاعوا التأثير عليه بعد انبرى الشريف

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص٣٦٩ ـ ٣٧٠ ؛ ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص١٦٥ ؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١١، ص٣٣٣ ـ ٣٣٤ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٢٢ ـ ٤٢٣ .

(٢) عبدالله أبو عزة، القرامطة وقبائل الأعراب البادية، ص٥٩.

(٣) هو, بدر الدين بن حسنوية الكردي من أمراء الجبل بناحية الدينور وهمذان , كان كثير الإحسان والنفقة في طريق الحاج العراقي وأهل الحرمين.(ابن الجوزي , المنتظم , ج١٦, ص١٧٦ ؛ابن الأثير , الكامل في التاريخ ,ج٧, ص٢٧٢-٢٧٣).

(٤) نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٢٥ .

الراضي وأخوه المرتضى[١] لمناصحته وملاطفته بالكلام, فتأثر بهم واقتنع بكلامهم وأخلا سبيل الحجاج على ألا يعود لفعله[٢], غير أنه ندم بعد ذلك على ترك الحجاج دون أن يأخذ المال منهم فقرر الخروج عليهم مرة أخرى سنة ٣٨٩هـ/٩٩٨م؛ وبالفعل فقد تمكن من اعتراض طريقهم والظفر بهم، ثم قام باعتقال الشريف الرضي وأخوه المرتضى، ولم يخل سبيلهم حتى أجبرهم على أن يدفعوا له تسعة آلاف دينار[٣].

ولا نعلم سبباً واضحا في قيام زعيم بني الجراح باعتراض الحجاج في تلك السنة بعدما كان قد ندم على مضايقتهم في التي قبلها وتأثر بمناصحتهم , إلا أن يكون للعبيديين صلة في ذلك حيث تبين فيما سبق تورطهم لأكثر من مرة في تحريضه على قطع الطريق ومضايقة الحجاج العراقيين.

ثم تكرر قطعه لطريق الحج العراقي سنة ٣٩٩هـ/١٠٠٨م ، وخرج يرصد الحجاج , غير أنهم قد علموا بخروجه[٤] وكانوا قد وصلوا إلى الثعلبية[٥] فآثروا الرجوع إلى بغداد ولم يتمكنوا من الحج في ذلك العام[٦].

---

(١) الرضي هو, محمدبن الحسن بن موسى العلوي الحسني الموسوي , من أشعر الطالبيين, ولد في بغداد وانتهت إليه نقابة الأشراف فيها , وولي إمرة الحج في بعض السنوات , توفي في بغداد سنة ٤٠٦هـ. والمرتضى: هو علي بن الحسن أخو محمد ,تولى نقابة الطالبيين , وكان إماماً في علم الكلام والأدب والشعر , توفي في بغداد سنة ٤٣٦هـ .(ابن الجوزي , المنتظم ,ج١٥ , ص٢٨٦،٧٧؛ خير الدين الزركلي , الأعلام , بيروت : ط١١, لبنان ١٩٩٥م , ج٥،٦, ص٨٩ , ص ٢٢٩).

(٢) نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٢٩ - ٤٣٠ .

(٣) ابن الجوزي , المنتظم , ج١٥ , ٨٣ , ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٤، ص٢٠٠ .

(٤) نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٣٧ .

(٥) الثعلبية، من منازل طريق مكة من الكوفة بعد الشقوق وقبل خزيمة، وهي ثلثا الطريق تقريباً. والثعلبية لاتزال معروفة وتقع على طريق الحج الكوفي القديم شرقي زرود. (ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، ص٦١ ؛ الحازمي , الأماكن أو ما اتفق لفظه وافترق مسماه من الأمكنة , تحقيق , حمد الجاسر, الرياض: ط١ , دار اليمامة ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م ,ج١ , ١٣٢).

(٦) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص٦٧ - ٦٨ .

وكان لبني خفاجة [١] أثر واضح في الإخلال بأمن الطريق العراقي فكثيراً ما كانوا يستهدفون المنشآت والسبل على ذلك الطريق ويعمدون إلى تخريبها حتى يسهل عليهم بعد ذلك الظفر بقوافل الحج المحملة بالأموال, ففي نهاية القرن الرابع الهجري وتحديداً في سنة ٣٩٥هـ/١٠٠٤م عمد هؤلاء الأعراب على إنهاك الحجاج العراقيين والتضييق عليهم وذلك عندما أقدموا على تخريب موارد المياه في طريق الحج العراقي وقاموا بطمر بعض الآبار وإلقاء الحنظل في البعض الآخر, ثم شرعوا بعد ذلك بمحاصرة الحجاج ونهبوا أموالهم وممتلكاتهم، وهلك عدد كبير منهم من شده العطش[٢].

ومع بداية القرن الخامس الهجري اشتد خطر الخفاجيين وكثفوا من تحركاتهم على طريق الحج العراقي فقاموا باعتراض قافلة الحجاج سنة ٤٠٢هـ/١٠١١م عند عودتهم من مكة إلى العراق، ومنعوهم من العبور، وكانوا قبل ذلك قد قاموا بطمر الكثير من الآبار وإحراق مساحات شاسعة من المراعي والأعلاف وذلك لأنهاك الدواب وتعطيل سير الحجاج[٣]، وبعد ذلك تمكنوا من الحجاج , وتم لهم محاصرتهم وطالبوهم برسم من المال مقداره خمسين ألف دينار، فامتنع الحجاج عن دفع ذلك المبلغ [٤]، وحاولوا

(١) بنو خفاجة، بطن من بني عقيل بن كعب من قيس عيلان من العدنانية، وهم بنو خفاجة بن عمرو من قبيلة هوازن، كانوا يقطنون قبل الإسلام الجنوب الشرقي من المدينة، ثم انتشروا ما بين الجزيرة والشام، وهاجر بعضهم إلى العراق، وسكنوا بنواحي الكوفة، وملكوا أطرافها . (القلقشندي، قلائد الجمان، ص١٢٢ ـ ١٢٣ ؛ عمر رضا كحالة، معجم قبائل العرب، ج١، ص٣٥١- ٣٥٢).

(٢) نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٣٢ ؛ الجزيري، الدرر الفرائد المنظمة، ج١، ص٥٣٥ .

(٣) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص٨٥ ، ٩٠ ؛ ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٢٦٤.

(٤) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص٩٠ .

التصدي للخفاجيين ومقاومتهم لكنهم عجزوا عن ذلك، وكان مصيرهم الهلاك من جراء العطش واعتداء الأعراب من بني خفاجة عليهم، إضافة إلى ما تم نهبه وسلبه من أموالهم ، ولم يسلم منهم سوى القليل الذين عادوا إلى العراق على أسوأ حال[١]

ولم تقف بغداد مكتوفة الأيدي أمام ما حصل من اعتداء على رعاياها من قبل الخفاجيين , فسيرت جيشاً بقيادة علي بن مزيد الأسدي[٢] لقتالهم, وتمكنوا منهم ودار بين الطرفين قتال عنيف قرب البصرة كان الظفر بالنهاية حليف الجيش العباسي , الذي تمكن من رد اعتبار هيبة الدولة العباسية, وإرجاع أموال الحجاج التي كان الخفاجيون قد سلبوها منهم , كما نجحوا في أسر الكثير منهم واقتيادهم إلى بغداد حيث شهر بهم في الطرقات، وأودعوا السجون، كما ترك جماعة منهم على نهر دجلة وقوفاً لا يستطيعون الوصول إلى الماء حتى هلك معظمهم من العطش، وكان ذلك نكايةً بهم على ما فعلوه بالحجاج [٣].

ويتبين لنا من هذا أن رحلة الحج في هذه الفترة أصبحت مغامرة خطيرة بسبب ضراوة هجمات الأعراب على الحجاج, وأصبح الناس في العراق يخرجون للحج على فترات متقطعة ومتباعدة وكثيراً ما كانوا يطلبون

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص٨٥ ؛ ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٢٦٤ ؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١١، ص٣٧١ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٤١ ـ ٤٤٢ .

(٢) هو, علي بن مزيد الأسدي , أول الأمراء المزيديين أصحاب الحلة , وكانت إماراتهم في نواحيها , قلده فخر الدلوة البويهي أمر الجزيرة الدبيسية فقاتله مضر بن دبيس حتى انتزعها منه , توفي بالحلة سنة ٤٠٨هـ/١٠١٨م.(ابن الجوزي , المنتظم , ج١٥,ص٩٧؛ ابن الأثير , الكامل في التاريخ ,ج٧, ص١٨٦, ٢٣٢).

(٣) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص٩٠ .

الحماية من الأعراب مقابل دفع الأموال لهم [1]، كما كانوا في كثير من السنوات يضطرون إلى تغيير مسار الطريق تفادياً لخطر القبائل القاطنة على طول ذلك الطريق , ويدل على ذلك ما حدث سنة ٤١٤هـ/١٠٢٣م، حينما اضطر الحجاج العراقيون ، عند قدومهم من الحج إلى تغيير مسار الطريق , حيث توجهوا إلى العراق عن طريق الشام، خوفاً من قطاع الطريق الذين خرجوا يرصدون قدومهم[2].

و في سنة ٤٢٣هـ/١٠٢١م تعرض الحجاج القادمون عبر الطريق البصري لاعتداء من قبل الأعراب الذين كانوا قد أعطوهم الأمان قبل ذلك، فسلبوا أموالهم، ورواحلهم [3].

وتسببت بعض القبائل المحيطة بمكة والقاطنة على طول الطريق الذي يربط مكة بالمدينة بالعديد من المشاكل الأمنية التي استهدفت الحجاج وكانت تشكل خطراً عليهم , ومن أبرز هذه القبائل قبيلة زعب[4]، التي اعترضت الحجاج العراقيين سنة ٥٤٥هـ/١١٥٠م، بالطريق بين مكة والمدينة , وقد حاول الحجاج تفادي أولئك الأعراب فلم يفلحوا ووقعوا في قبضتهم وقتل منهم الكثير , وسلبت أموالهم وأمتعتهم وجميع ما كان معهم , وهام

---

(١) خالد الخالدي , تنظيمات الحج ، ص٢٧٢ .

(٢) نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٥١.

(٣) الجزيري، الدرر الفرائد المنظمة، ج١، ص٥٤٥.

(٤) بطن من سليم بن منصور من قيس علان العدنانية , ومنازلهم مع قومهم بني سليم جنوب المدينة , في سفوح حرة بني سليم , وتعرف اليوم بحرة رهاط. (القلقشندي , نهاية الأرب , ص ٢٩٤ ؛ عمر رضا كحالة , معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، ج٢ , ص٤٧٤).

بقية من نجى من الحجاج على وجوههم بالبرية وهلك معظمهم بعد ذلك بالجوع والعطش(١).

وفي السنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م قام بعض الأعراب أيضاً باعتراض الحجاج العراقيين، فوقع بينهم قتال عظيم استمر يوماً كاملاً (٢)، حتى بلغ أولئك الأعراب أن بيوتهم ومواشيهم تعرضت للنهب، فعادوا مسرعين لحمايتها، واستغل الحجاج ما حصل لأولئك الأعراب, فأكملوا طريقهم إلى مكة، وكان ذلك من لطف الله بهم(٣).

ويبدو أن الإجراء العسكري الذي اتخذته الدولة العباسية ضد بني خفاجة عندما تعرضوا للحجاج العراقيين سنة ٤٠٢هـ/١٠١١م هـ, لم ينفع معهم إذ عاد بنو خفاجة لقطع طريق الحج العراقي من جديد , حين بلغهم الخبر بخروج قافلة الحجاج من الكوفة سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م ,محملة بالأموال، فقاموا باعتراضها، وقتلوا أكثر الجنود المكلفين بحراستها، واضطر الحجاج للعودة إلى الكوفة بعد ما استحال عليهم مواصلة السير إلى مكة, وبعد هذه الحادثة رأت الدولة العباسية أن من واجبها اتخاذ موقف حازم ضد بني خفاجة، خصوصاً بعدما قاموا بالدخول إلى الكوفة ونهبوها وأحرقوا بعض الدور، وأشاعوا فيها الخراب ، فبعثت قوة عسكرية كبيرة نجحت في تأديبهم وإزالة خطرهم (٤)، وبعد هذا الإجراء الصارم من قبل العباسيين ضد بني

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص٧٧ ـ ٧٨ ؛ ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٢٧ ؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٢٤٣ .

(٢) الجزيري، الدرر الفرائد المنظمة، ج ١، ص٥٥٣ .

(٣) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٢٦١ .

(٤) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٣٠١ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٨٥.

خفاجة, اضمحل خطرهم, ووهنت عزيمتهم, ولم نلحظ لهم بعد ذلك دوراً في قطع الطريق على الحجاج في هذه الفترة.

وهكذا نرى أن صعوبة الطريق والأخطار المحيطة به وتربص القبائل بالحجاج تسببت بانقطاع الحج من العراق لسنوات عديدة , حتى بات من المألوف أن نقرأ في كتب التاريخ المهتمة بأخبار الطريق العراقي هذه العبارة " ولم يحج أحد من العراق في هذه السنة ".

واستمر الوضع كذلك إلى أن ضعفت الدولة العبيدية المنافس الأقوى والمحرض الأول للأعراب على قطع الطريق العراقي, كما كان لانحسار النفوذ السلجوقي في بغداد, دورٌ في عودة هيبة الخليفة, فأصبح الخلفاء العباسيون هم أصحاب القرار خصوصاً فيما يتعلق بشؤون الحكم , وترتيبات أمن الحج[1], واستمروا في اتخاذ سياسة القوة مع الأعراب على طرق الحج, وكثفوا من إرسال الجند مع قوافل الحج , فكان لذلك أثراً واضحاً في تقليل مصاعب الطريق والحد من خروج الأعراب على قوافل الحج العراقية.

- الحالة الأمنية في طريق الحج المصري والشامي:

ترتبط مصر بالحجاز بعدة طرق منها طريقان بريان وطريق بحري[2], وكانت الفسطاط[3] في مصر نقطة التقاء الطرق التجارية داخل مصر

---

(١) خالد الخالدي، تنظيمات الحج, ص٢٥٧.

(٢) ناصر خسرو, رحلة ناصر خسرو , ص ١٢٨.

(٣) الفسطاط, تعددت الآراء حول تسميتها , والمشهور الفسطاط , اختطها الصحابي الجليل عمرو بن العاص رضي الله عنه بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب سنة ٢١هـ, وفرغ من بنائها سنة ٢٢هـ, ثم اندمجت هذه المدينة بمدن أخرى وأصبحت تشكل قسمين , القسم الشرقي وهو الفسطاط الأصلية, والقسم الغربي ويعرف الآن بمصر القديمة .(ياقوت الحموي , معجم البلدان , ج٤ , ص٢٦١- ٢٦٦ ؛ صفى علي محمد , الحركة العلمية والأدبية في الفسطاط منذ الفتح العربي إلى نهاية الدولة الإخشيدية , القاهرة:الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م, ص٤٥- ٦٠).

ومحطة انطلاق قوافل الحج واستمرت كذلك حتى دخل العبيديون إلى مصر في سنة ٣٥٨هـ/٩٦٨م , وجعلوا من عاصمتهم القاهرة مركزاً لتجمع الحجيج من مصر و المغرب والأندلس وأفريقيا , ثم انطلاقها نحو الحجاز[١].

وكان الطريق البري ينطلق من القاهرة عبر سيناء حتى يلتقي بالطريق الشامي عند أيله[٢] ثم إلى حقل[٣] ومنها يتفرع الطريق إلى طريق ساحلي يحاذي البحر وآخر يتجه براً نحو المدينة [٤].

وقد خف طَرْقُ هذين الطريقين من قبل الحجاج , خصوصا بعدما سيطر الصليبيون على أجزاء من العالم الإسلامي وتحكموا في بعض الطرق التجارية , ففضل أكثر الحجاج القادمين من مصر استبدال الطريق البري بطريق آخر بحري ينطلق من جنوب القاهرة حتى يصل إلى عيذاب على ساحل البحر الأحمر ومنها عن طريق البحر يصل الحجاج إلى جدة ثم يكملون سيرهم إلى مكة[٥].

---

(١) صبحي عبد المنعم , العلاقات بين مصر والحجاز , ص ٢٨٨.

(٢) أيلة , أو العقبة حالياً , وتقع على الخليج المسمى باسمها الآن خليج العقبة الذي يقع في نهاية البحر الأحمر باتجاه بلاد الشام , وسميت بذلك لشدة مسلكها ووعورتها , وهي الآن الميناء الوحيد للأردن وتبعد عن حقل بحوالي ٢٦ كيلو متر .(ياقوت الحموي , معجم البلدان , ج١ , ص ٢٩٢؛ حمود ضاوي القثامي , شمال الحجاز, بيروت: ط٢ , دار العصر الحديث للنشر والتوزيع ١٤١٢هـ/١٩٩١م , ج١, ص٣٣٩).

(٣) حقل , قرية قريبة على بحر أيله المعروف حالياً بالعقبة, وتبعد عنها بنحو ٢٦ كيلو متر تقريباً , وهي الآن تابعة لمنطقة تبوك.(ياقوت الحموي , معجم البلدان , ج٢ ,ص٢٧٨؛ حمد الجاسر , المعجم الجغرافي , ج١ , ص٤٦٢).

(٤) قدامة بن جعفر , الخراج وصنعة الكتابة " المنزلة الخامسة ", ص ٢٩٨؛ ابن خرداذبة , المسالك والممالك , ص١٥٢.

(٥) ناصر خسرو , رحلة ناصر خسرو , ص ١٣٢ .

ولم يكن الطريقان المصري والشامي بأحسن حالا من الطريق العراقي حيث تعرض الحجاج عبرهما للعديد من الأخطار والمصاعب وحوادث قطع الطريق , ومن ابرز الاعتداءات التي طالت الحجاج على الطريق المصري في القرن الرابع الهجري ما حصل لقافلة المغرب ومصر والشام وذلك في أواخر سنة ٣٥٤هـ/٩٦٤م عندما اعترضتهم قبيلة بنو سليم , وكانت القافلة تضم بجانب الحجاج عدداً من التجار القادمين من الشام هرباً من الروم قاصدين مكة ومنها إلى العراق, , وقد تمكن بنو سليم منهم وأوقعوا بهم, واستولوا على جميع الأمتعة والأموال , وقتلوا أمير الركب , وهلك من الناس مالا يحصى وتفرقوا في البراري ولم يسلم إلا القليل ممن عاد إلى مصر والشام , وقد قدر ما كان بالقافلة من الأموال بعشرين ألف حمل [١].

واستمر بنو سليم بعد ذلك يتربصون بالحجاج القادمين من الشام ومصر, مستغلين بذلك موقع ديارهم القريب من ذلك الطريق الذي يصل تلك النواحي بالمدينة , كما كان بنو سليم وبسبب موقعهم القريب من المدينة أيضاً كثيراً ما يغيرون عليها أيام المواسم ويقومون بنهب أموال الحجاج القادمين لزيارة مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم [٢], ويتعدون على أموال التجار القاصدين أسواق المدينة , وقد وصفهم ابن خلدون[٣] بقوله:" أنهم شوكة بغي وفتنة ".

---

(١) ابن الأثير, الكامل في التاريخ , ج٧ , ص ٢٠ ؛ نجم الدين بن فهد , إتحاف الورى , ج٢ , ص٤٠٤؛ الجزيري , الدرر الفرائد المنظمة , ج١, ص٥٢٣- ٥٢٤ .

(٢) ابن كثير , البداية والنهاية ج١٠ , ص ٣٠٢ .

(٣) تاريخ ابن خلدون, ج٤, ص٢١١.

وفي خضم النزاع مابين العباسيين والعبيديين على مكة قام القرامطة بالسيطرة على دمشق , ثم أصبحوا يهددون الحجاج المتجهين من الشام ومصر إلى الحجاز , وشنوا عدداً من الغارات على رعايا الدولة العبيدية وذلك سنة ٣٦٤هـ/٩٧٤م, واستمروا على ذلك حتى استطاع المعز العبيدي بعدما اخضع القرامطة في بلاد الشام أن يطهر طريق الحج [١]ويؤمن الحجاج المصريين ويسير القوافل إلى مكة , وقد تحدث المقريزي[٢]عن ذلك فقال :"... وفي ذي القعدة (٣٦٤هـ/٩٧٤م) نودي لخمس خلون منه في الجامع العتيق :" الحج في البر" وكان قد انقطع منذ سنين " ثم قال عن عودة القافلة من مكة:" ولأربع خلون من صفر ورد حاج البر, وكان البر أقام سنين لم يسلك "[٣].

ولم يتورع الأعراب عن التعدي على مخصصات الكعبة , والهدايا التي تحملها قوافل الحج للمسجد الحرام, حيث قام جماعة منهم سنة ٣٨٦هـ/٩٩٦م باعتراض قافلة الحج القادمة من مصر وكانت تحمل الأموال وكسوة الكعبة وانتهبوها[٤].

وامتد خروج الأعراب المتكرر على طريق الحج المصري والشامي, وعندما تنجو قافلة الحجاج من اعتراضهم لها، يقومون بتتبع أثرها وملاحقتها حتى بعد دخولها إلى مكة، ثم يشرعون بعد ذلك بمساومة أميرها أو القائم عليها، ومن ذلك ما حدث سنة ٣٦٧هـ/٩٧٧م، عندما أفلتت من أيديهم إحدى

---

(١) ابن الأثير, الكامل في التاريخ , ج ٧, ص٢٣٣ .

(٢) اتعاظ الحنفا ,ج١ , ص ٢٢٣.

(٣) اتعاظ الحنفا ,ج١ , ص ٢٧٧.

(٤) نجم الدين بن فهد , إتحاف الورى , ج٢ , ص٤١٦.

قوافل الحج المصرية، فانطلقوا حتى دخلوا مكة، والتقوا مع أمير الركب المصري باديس بن زيري [1]، وصاروا يفاوضونه على أن يتركوا الحجاج وشأنهم، وألا يتعرضوا سبيلهم، ولا يقطعوا طريقهم مقابل خمسين ألف درهم يدفعها لهم[2]. فوافق على هذا , وكان يضمر في نفسه الانتقام منهم. وأمر أن يجتمعوا إليه في الغد، وشدد على أن لا يتخلف منهم أحد، فاجتمعوا وكانوا أكثر من ثلاثين رجلاً، ثم أتوه يطلبون ما اتفقوا عليه، فأمر بهم وقطعت أيديهم جزاء فعلتهم[3].

وهناك من يلمح أن للعباسيين دورٌ في تحريض بعض القبائل القاطنة على طريق الحج المصري والشامي , وذلك لتهديد القوافل العبيدية وقطع الطريق عليها [4], والرد بالمثل على ما كان يقوم به العبيديون من تحريض الأعراب على رعايا الدولة العباسية, ومن تلك الأحداث ما حصل في سنة٣٧٧هـ/٩٨٧م حينما ثار الأعراب القاطنين بوادي القرى [5]على السيادة العبيدية وخلعوا طاعتهم , وأخذوا يقطعون طريق القوافل القادمة من مصر والشام, وانتشر خطر تلك الثورة وعمت أجزاء واسعة من أرض الحجاز , لكنها في النهاية لم تصمد أكثر من سنة إذ استطاع العبيديون

---

(١) هو, باديس بن زيري الصنهاجي تولى إمارة الحج سنة ٣٦٧هـ , وكانت له وقفات مشهورة مع قطاع الطريق واللصوص الذين كانوا يهاجمون الحجاج , فتمكن من قتل عدد كبير منهم وأراح الحجاج منهم.(الرشيدي , حسن الصفا والابتهاج في ذكر من ولي إمارة الحاج, تحقيق, ليلى عبداللطيف أحمد , القاهرة: مكتبة الخانجي ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م, ص١١٠).

(٢) صبحي عبد المنعم، العلاقات بين مصر والحجاز، ص٨٨ .

(٣) نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج ٢، ص٤١٦ .

(٤) احمد الزيلعي , مكة وعلاقاتها الخارجية , ص٤٦.

(٥) وادي بين الشام والمدينة ، وهو بين تيماء وخيبر , فيه قرى كثيرة وبها سمي وادي القرى , وهو من منازل قضاعة وجهينة وعذرة وبلي , ويمر بها حاج الشام , وهو من المناطق التابعة للمدينة. (ياقوت الحموي , معجم البلدان ، ج٤ , ص٣٣٨- ٣٣٩).

القضاء عليها سنة ٣٧٨هـ/٩٨٨م [١]، ويبدو أن العباسيين لم يكن لهم القدرة على مجابهة القوة العسكرية العبيدية فلجئوا لهذا السلاح[٢].

ويشير ناصر خسرو[٣] إلى اعتداء وقع على قافلة الحجاج القادمة من المغرب سنة ٤٤٠هـ/١٠٣٨م عبر مصر قاصدين المدينة ، وكانوا قد اتفقوا مع الأعراب على مبلغ يدفعونه لهم مقابل أن يقوم الأعراب بحمايتهم ، وبعد وصولهم إلى المدينة وزيارتهم لمسجد الرسول صلى الله عليه وسلم قصدوا الخروج إلى مكة ولكنهم اختلفوا مع الأعراب في أجرة الحراسة، فما كان من هؤلاء الأعراب إلا أن اعتدوا عليهم ووقع بين الطرفين قتال عظيم وقتل من حجاج المغرب أكثر من ألفي حاج ولم يكتب للأحياء في تلك القافلة المغربية العودة لبلادهم .

ويذكر الجزيري[٤] أن الأعراب كانوا سبباً في تأخر الحجاج المصريين من القدوم إلى مكة سنة ٤٢٣هـ/١٠٢١م. كما أشار ـ أيضاً ـ إلى أن هؤلاء الأعراب القاطنين على طرق الحج قد زرعوا الخوف في قلوب المصريين، وكانوا سبباً في عدم مجيئهم للحج سنة ٤٢٥هـ/١٠٢٣م.

وتعرض الحجاج المصريين سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م إلى اعتداءٍ سافر من قبل بعض الأعراب الذين قطعوا عليهم الطريق، وسلبوا أموالهم ن وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وعاد من سلم منهم إلى ديارهم دون أن يتمكنوا من الحج في هذه السنة [٥].

---

(١) احمد الزيلعي ، مكة وعلاقاتها الخارجية ، ص٤٦.

(٢) محمد أمين الطويل ، تاريخ العلويين ، اللاذقية ١٩٢٤م، ص ٢١١.

(٣) ناصر خسرو، رحلة ناصر خسر ، ص ١٢٤.

(٤) الجزيري، الدرر الفرائد المنظمة، ج ١، ص٥٤٥.

(٥) نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٧٠ .

وفي سنة ٤٨٦هـ/١٠٩٣م قام أمير مكة أبو هاشم بإرسال رجاله ليقطعوا الطريق على حجاج الشام العائدين لبلادهم، فنهبوا أموالهم ومتاعهم ومواشيهم، وساقوها إلى أبي هاشم، وقد عاد الحجاج بما بقي معهم من أموال قليلة لم تسلم من نهب الأعراب الذين قطعوا عليهم الطريق، وقتلوا جماعة منهم، وهلك من بقي منهم بالضعف والانقطاع(١), وقد وصف ابن تغري بردي(٢)أبا هاشم فقال "... وكان ظالماً فاتكاً سفاكاً للدماء مسرفاً, وكان يقتل الحاج ويأخذ أموالهم".

ولم يسلم الحجاج والتجار الذين يسلكون الطريق البحري الذي يربط مصر بالحجاز حيث تعرض رعايا الدولة العبيدية فيه للاعتداء , و ذلك عندما ما قام قاسم بن أبي هاشم بالهجوم على الحجاج والتجار المصريين , وذلك بعدما قام بتسيير المراكب المشحونة إلى عيذاب لاعتراضهم في سنة ٥١٢هـ/١١١٧م ، وقام بسلب الأموال التي كانت بحوزتهم ، وحصلت بذلك معركة بين جنود قاسم وبين التجار المصريين, قتل على أثرها جماعة من هؤلاء التجار(٣).

ومن خلال هذا العرض يتبين للباحث أن الطريقين المصري والشامي لم يكونا بأحسن حالاً من الطريق العراقي حيث تعددت الأحداث المخلة بأمنهما وتنوعت اعتداءات القبائل وقطاع الطريق من الأعراب على قوافل الحج والتجارة , القادمة من مصر والشام إلى الحجاز عموماً, ومكة على وجه الخصوص .

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٦٨ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٨٦ - ٤٨٧ .

(٢) النجوم الزاهرة ,ج٥ ,ص١٤٠. ٤٨٧ .

(٣) الجزيري: الدرر الفرائد المنظمة ، جـ: ١ ، ص: ٥٥٨.

ـ الحالة الأمنية في طريق الحج اليمني:

تعد الطرق التي تربط اليمن بالحجاز قديمة ويرجع تاريخها إلى فترة ما قبل الإسلام [1]، غير أنها وفي القرون الإسلامية المبكرة غدت أكثر وضوحاً، وكانت الصلات بين أهل الحجاز واليمن مستمرة وذلك لوجود الطرق التي تربط حواضر الحجاز بحواضر اليمن[2].

وأشار بعض الجغرافيين والرحالة إلى وجود طريقين أساسيين يربطان بلاد الحجاز باليمن، أحدهما طريق ساحلي، والآخر طريق داخلي[3].

ويذكر ابن حوقل[4] أن طريق البوادي ـ الطريق الداخلي ـ أقرب إلى مكة من طريق الساحل، وأكثر استخداماً من قبل الحجاج والتجار والعساكر وموظفي الدولة، وذلك لكثرة المحطات والاستراحات ومصادر المياه في المناطق التي يمر بها، فضلاً عن أن الأرض التي يشقها هذا الطريق أرض زراعية تنتج المحاصيل التي يقتات منها المسافرون عبره[5].

ومن الناحية الأمنية فالطريق الداخلي يعد أقل خطورة، وذلك لأنه طريق مأهولٌ بالسكان وتكثر فيه الإصلاحات، لذا فإن أكثر من يسلكه

---

(١) الهمداني، صفة جزيرة العرب، تحقيق، محمد بن علي الأكوع الحوالي، إشراف حمد الجاسر، الرياض: دار اليمامة ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م، ص٣٣٩.

(٢) غيثان جريس، دراسات في تاريخ تهامة والسراة خلال العصور الإسلامية المبكرة والوسيطة، أبها، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ج ١، ص ١٨٠.

(٣) ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ليدن ١٨٨٩م، ص ١٣٤؛ الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص٣٣٧- ٣٤٠؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٤٥- ٤٨.

(٤) صورة الأرض، ص ٤٦- ٤٧.

(٥) غيثان جريس، دراسات في تاريخ تهامة والسراة خلال العصور الإسلامية المبكرة والوسيطة، ص٤٥.

أصحاب القوافل التجارية المحملين بالبضائع الثمينة والثقيلة , أما من يحملون السلع الخفيفة فتجدهم في الغالب يسلكون طريق الساحل[1].

ولعل ما دفع أصحاب السلع الثمينة والثقيلة لسلوك الطريق الداخلي هو انه أكثر أمناً ويندر فيه وجود اللصوص وقطاع الطريق , فضلاً عما ما يتوفر فيه من سبل الراحة , أما الطريق الساحلي وبسبب كثرة اللصوص حوله فيخشى حمل البضائع الثمينة والثقيلة أثناء سلوكه حتى لا تفقد أو تعيق عملية الفرار.

ومع أن طريق الحج اليمني ظل مسلوكاً إلا أن قوافل الحج اليمنية المتجهة إلى مكة لم تسلم من هجمات قطاع الطريق والقبائل المتربصة بهم على طول الطريق بين مكة واليمن , وإن كانت هذه الهجمات لا توازي بحجمها وعددها ونتائجها المترتبة عليها تلك الهجمات التي يتعرض لها الحجاج عبر طريق الحج العراقي أو طريق الحج المصري والشامي, فطريق الحج اليمني يعد آمناً نسبياً بالنسبة لهذه الطرق .

وفي الفترة التي نبحث أحداثها وتحديداً في منتصف القرن الخامس الهجري, استطاع علي بن محمد الصليحي أن يبسط نفوذه[2] على اليمن ويرسي قواعد الأمن على طول الطرق المؤدية إلى الحجاز كما استطاع أن

---

(١) با مخرمة, تاريخ ثغر عدن , ليدن ١٩٣٦ , ص ٢١٩.

(٢) تمكن الصليحي من توحيد اليمن وبسط نفوذه عليه وتأسيس دولة إسماعيلية فيه سنة ٤٢٩هـ/١٠٣٨م, وأقام الدعوة باسم المستنصر العبيدي , واستمر على ذلك حتى قتل سنة ٤٥٩هـ/١٠٦٧م, وتولى من بعده ابنه أحمد المكرم فانشغل في إعادة توحيد اليمن .(عمارة اليمني، النكت العصرية، ص٨٥- ١٣٦ ؛ سهيل زكار : أخبار القرامطة في الأحساء والشام والعراق واليمن , ص٣٨٢- ٣٨٤).

يمد نفوذه - باسم العبيدين - إلى مكة وذلك عندما دخلها سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٤م وضبط الأمور فيها.

وعقب وفاة الصليحي ضعفت الدولة الصليحية وقامت في اليمن دويلات مستقلة [١] فاضطربت الأمور الأمنية وانفلت زمام السيطرة على طرق الحج اليمينة وكثر المتربصين بالحجاج من القبائل واللصوص , حتى غدا الناس تحت رحمة تلك القبائل التي أثقلت العابرين لتلك الطرق بالإتاوات التي تفرضها عليهم[٢].

وكانت قبيلة بني شعبة[٣]من أشد القبائل خطورة على الحجاج القادمين إلى مكة عبر الطريق اليمني , وقد وصفهم ابن المجاور[٤] في قوله "ولم يكن في جميع العالم ... أجسر منهم في أخذ مال الحاج", وكانوا يطلقون على الحجاج مسمى (جفنة الله) ويترصدون لهم الطريق ويسلبون أموالهم أو

---

(١) من هذه الدويلات : الدولة النجاحية في زبيد ٤٠٣هـ/١٠١٢م- ٥٥٥هـ١١٦٠م , ودولة بني مهدي في زبيد أيضاً ٥٥٣هـ/١١٥٨م- ٥٩٦هـ/١١٧٤م , ودولة بني حاتم في صنعاء ٤٩٢هـ/١٠٩٩م- ٥٦٩هـ١١٧٤م, , ودولة بني زريع في عدن ٤٧٠هـ/١٠٧٧م- ٥٦٩هـ١١٧٤م.(ابن الحسين , غاية الأماني في أخبار القطر اليماني,تحقيق, سعيد عاشور ومحمد زيادة , القاهرة: ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م, ج١, ص١٤٣ ؛ جميل حرب محمود حسين، الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، ص٢٦).

(٢) الزيلعي , مكة وعلاقاتها الخارجية , ص١٠٧.

(٣) بنو شعبة بن مهلهل من تغلب العدنانية , تمتد ديارهم من شمال اليمن إلى جنوب مكة, وسكنوا الطائف , ولهم انتشار واسع في وادي آدام وما حولها من وادي الخضراء.(القلقشندي , نهاية الأرب , ص٢٧٩ ؛ عمر رضا كحالة , معجم قبائل العرب القديمة والحديثة , بيروت : ط٣ , مؤسسة الرسالة ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م , ج٢ , ص ٥٩٦).

(٤) المستبصر, ص٥٢.

يفرضون عليهم الضرائب الباهظة , وكانوا يقولون – كما قال عنهم ابن المجاور[1]"...إذا حضر جفنة الله أكل منه الصادر والوارد".

واستمر بنو شعبة في مضايقتهم للحجاج لمدة طويلة حتى بعد نهاية الصراع العباسي العبيدي على بلاد الحجاز , ولم يقتصر خطرهم على طريق الحج فقط بل كانوا في بعض الفترات يوسعون من هجماتهم حتى تشمل المشاعر المقدسة في منى وعرفات حيث كانوا يحبسون الماء عن الحجاج ويطلبون منهم المال لإجرائه لهم [2].

ومن خلال ما سبق ذكره يتضح أن الطريق اليمني في فترة الصراع بين الدولتين العباسية والعبيدية على النفوذ في مكة قد نعم بفترات استقرار, كما كان أقل خطورة مقارنة بالطريق العراقي أو الطريق المصري والشامي - كما ذكرنا - غير أن الحجاج لم ينعموا بالأمان كلياً إذ تخلل تلك الفترة فترات عصيبة تعرض خلالها حجاج اليمن للمصاعب والأخطار.

---

(١) المستبصر , ص٥٢.

(٢) ابن جبير , رحلة ابن جبير , ص١٠٢.

الفصل الثالث

الآثار السياسية والاقتصادية

المبحث الأول: الآثار السياسية.

- أثر الحالة الأمنية على سلطة أمير مكة.
- أثر الحالة الأمنية في السياسية الداخلية لإمارة مكة .
- أثر الحالة الأمنية على العلاقات الخارجية لإمارة مكة .
- أثر الحالة الأمنية في نفوذ القبائل.
- أثر الحالة الأمنية على التنظيمات الإدارية لإمارة مكة .
- أثر الحالة الأمنية على التنظيم العسكري لإمارة مكة.

المبحث الثاني: الآثار الاقتصادية.

- أثر الحالة الأمنية على الأسواق في إمارة مكة.
- أثر الحالة الأمنية على التموين الغذائي لإمارة مكة.
- أثر الحالة الأمنية على نشاط التجار في إمارة مكة.
- أثر الحالة الأمنية على المعابر التجارية لإمارة مكة.
- أثر الحالة الأمنية على الموارد المالية لإمارة مكة.

المبحث الأول: الآثار السياسية.

لم تمثل مكة منذ الفتح الإسلامي مركزاً سياسياً مهماً يوازي مركزها الديني، كما لم تكن بذات الأهمية السياسية التي كانت عليها المدينة باعتبارها عاصمة للدولة الإسلامية في عصر صدر الإسلام.

وعندما استقل الأشراف بمكة سنة ٣٥٨هـ/٩٦٨م لم يكن ذلك الاستقلال ذا أهمية سياسية معتبرة حيث كان متأثراً بنفوذ القوى الكبرى القائمة في ذلك الوقت والتي كانت تملي على أمير مكة سياساتها، بالإغراء المادي حيناً، وبالقوة العسكرية أحياناً أخرى، كما لم يكن عند الأشراف أثناء استقلالهم بمكة طموحاً لجعلها عاصمة للدولة الإسلامية، أو نقل مركز الخلافة إليها، كما فعل قبل ذلك عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما، عندما لم يعترف بخلافة يزيد بن معاوية (٦٠ - ٦٤هـ/٦٧٩ - ٦٨٣م)، واستقل بالحجاز محاولاً جعل مكة عاصمة لدولته الناشئة، ومركزاً لخلافته. ورغم أنه أحرز بعض النجاحات المؤقتة، وجمع لمكة السلطتين الدينية والسياسية، إلا أنه لم يستطع الصمود أمام القوة الأموية التي استطاعت في النهاية القضاء عليه، وإعادة بلاد الحجاز إلى نفوذها من جديد. [1]

ومنذ ذلك الوقت غُيِّبت مكة عن المشاركة الفاعلة بالأمور السياسية ومال بعض سكانها إلى حياة الترف والنعيم، مكتفين بالأموال التي كانت

---

(١) الطبري، تاريخ الأمم والملوك ج ٥، ٤٧٥- ٤٧٦؛ أحمد إبراهيم الشريف، دور الحجاز في الحياة السياسية العامة في القرنين الأول والثاني للهجرة، القاهرة: دار الفكر العربي (د.ت)، ص٤٣٧.

تأتيهم من مركز الخلافة [1]، فلم يعد لهم أهتمامات واضحة بالأمور السياسة والأحداث التي كانت تجري من حولهم في الأقاليم الإسلامية .

وفي الفترة الواقعة بين نهاية محاولة استقلال ابن الزبير في الحجاز وإعلان الأشراف استقلالهم بمكة سنة ٣٥٨هـ/٩٦٨م شهدت مكة عدة محاولات لم يكتب لها النجاح من جانب العلويين للاستقلال بها عن الدولة العباسية، كما تطرقنا إلى ذلك سابقاً.

ويرجع فشل تلك الحركات الرامية للاستقلال بمكة إلى كونها لم تكن مدعومة من قوى كبرى تقف بجانبها وتقوي مركزها لمجابهة خصومها، ويؤكد هذا الرأي ذلك النجاح الذي أحرزه جعفر بن محمد الحسني في استقلاله بمكة عندما وجد دعماً قوياً من العبيديين لحركته سنة ٣٥٨هـ/٩٦٨م، مما جعل العباسيين يرضخون أمام الأمر الواقع، بعد أن فشلوا في التصدي لهذا الاستقلال، واعترفوا ضمناً بشرعية جعفر بن محمد أميراً علوياً على مكة. ومنذ ذلك التاريخ أصبح لزاماً على العباسيين أن يدخلوا في منافسة شديدة مع الدولة العبيدية التي استطاعت التأثير على شرعيتهم في الخلافة بعد فرض نفوذها على الحجاز.

- أثر الحالة الأمنية على سلطة أمير مكة :

كان للصراع بين العباسيين والعبيديين أثرٌ واضحٌ في إحداث الفوضى والفتن التي ألقت بظلالها على سياسة الأشراف، فأصبحت مكة مركز صراع سياسي بين القوى المتنافسة في بغداد والقاهرة منذ إعلان أشراف مكة الاستقلال، وتحولت من إقليم تابع للخلافة ومن سياسة ثابتة لطرف واحد، إلى إمارة

---

(١) أحمد إبراهيم الشريف، دور الحجاز في الحياة السياسية العامة، ص٤٠٤.

مستقلة، وسياسة ولاء متقلبة، توالي أحد الأطراف تارة، ثم تنقض ذلك لتنصرف للطرف الأخر، وقد أدى هذا التذبذب الذي انتهجه حكام مكة منذ استقلالهم إلى انعدام الاستقرار السياسي فيها، فانعدم معه الأمن، وعمت الفوضى. ومن المرجح أن مكة لم تمر بفترة تقلب سياسي. سواء من حيث طول الفترة الزمنية، أو سرعة تذبذب الولاء. مثلما مرت به في فترة الدراسة, حيث لم يرسم الأشراف منذ استقلالهم سياسة خارجية أو داخلية ثابتة يتعاملون من خلالها مع الدول الإسلامية في العراق ومصر أو مع المتطلبات السياسية داخل إمارتهم ، فأصبحت سياستهم متأرجحة بحسب المصالح العائدة عليهم بالمكاسب الاقتصادية أحياناً، وبالدعم السياسي حيناً أخر، بعد أن أدركوا حدة التنافس بين العباسيين والعبيديين، وحرص كل من القوتين على بسط نفوذها في مكة بشتى الطرق الممكنة. وبقدر ما تمتع به الأشراف من جراء هذه السياسة وذلك بتوارث السلطة في مكة، إلا أنهم واجهوا صعوبات تمثلت بالتهديد بقلب نظام الحكم، مثلما فعل العباسيون عندما ساءت علاقتهم مع أمير مكة عيسى بن جعفر فقاموا بمكاتبة أخيه وولي عهده الشريف أبي الفتوح لإحلاله مكان أخيه في مكة[1]. وقد يتطور الأمر في بعض الأحيان إلى تنفيذ ذلك التهديد فيتم إقصاء الأمير وإحلال آخر بدلاً منه كما حدث عندما حاول أبو الفتوح الاستقلال ببلاد الحجاز عن العبيديين، فتم خلعه من قبلهم وإبعاده عن الإمارة وإعلان ذلك على الملا بمكة، وتعيين الشريف داود بن عبد الرحمن الحسني مكانه [2], كما سبق وأن بيّنا ذلك.

---

(١) العمري، مسالك الأبصار، ج٢٤، ص٣٨ ؛ الفاسي، العقد الثمين، ج٤، ص٧٧ ؛ المقريزي، المقفى الكبير، ج٣، ص٣٥٠ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٢١.

(٢) الروذراوري، ذيل تجارب الأمم، ج٣، ص٢٣٦ ؛ القلقشندي، مآثر الإنافة، ج١، ص٣٢٦؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٣٩ .

وقد نتج عن تدهور الأوضاع الأمنية في مكة أن أصبح عامة الأشراف يتدخلون في قرارات أميرها، ويمارسون عليه ضغوطاً شتى لتحقيق مطالبهم التي تصل في بعض الأحيان إلى إجباره على تغيير سياساته تجاه إحدى القوى المتنافسة، ومن ذلك ـ مثلاً ـ وقوف أشراف مكة نداً قوياً ضد استعادة العبيديين سلطتهم على مكة سنة ٣٦٠هـ/٩٧٠م [١]، وكذلك ما حدث ـ أيضاً ـ للأمير شكر بن أبي الفتوح عندما رضخ لمطالب معارضيه عندما خرج إلى مصر ناقلاً معه مطالب الأشراف فيما يخص زيادة المخصصات المالية التي تقاعس العبيديون في إرسالها إلى أشراف مكة[٢].

من جانب أخر فقد تدخل الأشراف في بعض الأوقات لحل بعض المشاكل والأزمات التي تتعرض لها مكة، كما عمدت بعض القوى للتفاوض معهم، ومن ذلك ـ مثلاً ـ قيام الوزير العبيدي الأفضل بن بدر الجمالي بمخاطبة كبار أشراف مكة للتدخل في حل الأزمة التي وقعت عقب نهب الأمير قاسم بن هاشم للتجار المصريين في ميناء عيذاب وإقناعه برد الأموال التي سلبها قبل أن يقدم على تنفيذ قراره وذلك بإرسال قوة عسكرية كبيرة لتأديب قاسم على فعله، وقد نجح هؤلاء الأشراف في ثني أمير مكة، وإجباره على الموافقة على رد ما أخذ من التجار المصريين [٣].

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٢٧٣ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٠٨ . وقد ذكر نجم الدين بن فهد هذه الحادثة في سنة ٣٦١هـ .

(٢) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص١٦٣ ـ ١٦٤ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٢٤ ؛ أحمد السباعي، تاريخ مكة، ج١، ص١٨١ ـ ١٨٢ .

(٣) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٥٨ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٩٧ ؛ الجزيري، درر الفرائد، ج١، ص٥٥٨ .

وأحياناً تسفر المعارضة الداخلية لأمير مكة عن نشوب نزاعات عسكرية تمتد لفترة طويلة من الوقت، كما حدث بين أبي هاشم وبني الطيب من حروب متعددة نشبت بسبب معارضتهم لسياسته وعدم قبولهم به أميراً عليهم[١].

ومما ترتب على الضغوط التي مارستها القوى المتنافسة على مكة اضطرار أميرها لإشراك الأشراف في رسم سياسته الخارجية في بعض الأحيان، خاصة عندما تتأزم عليه الأمور، كما فعل أبو هاشم عندما استشار الأشراف في مسألة قطع الخطبة للعباسيين وإعادتها للعبيديين[٢].

ويدفعنا ذلك كله إلى القول بأن هناك حركة سياسية نشطة داخل مكة، نتج عنها نشوء أحزاب سياسية مختلفة التوجهات، ولكن من الملاحظ أن هذه الأحزاب لم تقم وفق تنظيم معين، أو تخطيط مسبق، وإنما فرضتها الأحداث القائمة.

ومع هذا الانقسام الواضح بين أشراف مكة واختلافهم الشديد فيما بينهم خصوصاً في ما يتعلق بالأمور السياسية والوصول لكرسي الإمارة إلا أننا نلحظ في بعض المواقف اتفاقاً لهؤلاء الأشراف حيث تتحد كلمتهم ويتفق رأيهم ضد القوى الخارجية أحياناً خصوصاً عندما تتأزم الأوضاع في مكة، أو يشعروا بالخطر من ضياع استقلالهم بها ولكن سرعان ما ينشب الخلاف بينهم عندما يزول الخطر عنهم، ومن ذلك انقلابهم على أبي هاشم الذي نُصَّب أميراً على مكة برضى منهم، بعد اتفاقهم على خروج

---

(١) الفاسي، شفاء الغرام، ج٢، ص٣١١ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٦٩ ؛ الصباغ، تحصيل المرام، ج٢، ص٧٣٦.

(٢) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٧١ ؛ محمد حمدي المناوي، الوزارة والوزراء ، ص٢١١ .

الصليحي منها عام ٤٥٦هـ/١٠٦٣م وذلك عندما أحسوا بخطورة بقائه في مكة على استقلالهم في حكمها, وما أن خرج الصليحي من مكة بعد إقراره للأمور فيها حتى عاد هؤلاء الأشراف للانقسام والحروب فيما بينهم من جديد [١].

ـ أثر الحالة الأمنية في السياسية الداخلية لإمارة مكة:

من أبرز الآثار التي خلفتها الحالة الأمنية المتردية في مكة والتي تمخضت عن التنافس الطويل بين العباسيين والعبيديين على بسط النفوذ فيها ازدياد تدخل بعض فئات المجتمع في شؤونها السياسية آنذاك، من ذلك مشاركة أصحاب الشريف ممن يعرف بـ(العبيد) بفعالية في السياسة داخل مكة، حيث وصلوا ـ على سبيل المثال ـ إلى مرتبة الإمارة، كطراد بن أحمد الذي تولى السلطة في مكة بعد وفاة شكر بن أبي الفتوح[٢]. كما كان هؤلاء محل اعتبار لدى القوى المتنافسة على مكة، يخطبون ودهم، ويدفعون لهم الأموال لإرضائهم، مثلما حدث في سنة ٤٦٦هـ/١٠٧٣م عندما أخذ أمير الحج العراقي مبالغ مالية ليدفعها لأولئك العبيد[٣].

من جانب أخر فقد كانت هذه الفئة سنداً لبعض حكام مكة في عدد من المواقف، فكان أمراء مكة يعتمدون عليهم ـ في بعض الأحيان ـ في تثبيت

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٨، ص٩٦ ؛ الفاسي، شفاء الغرام، ج٢، ص٣١٠ ـ ٣١١ ؛ عز الدين ابن فهد، غاية المرام، ج١، ص٥٠٩ ـ ٥١٠ .

(٢) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص٤٧ ؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج٤، ص١٣٢؛ ابن فضل الطبري، إتحاف فضلاء الزمن، ج١، ص١٠٠ .

(٣) نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٧٥ .

نفوذهم داخل أمارة مكة، بعد أن تكاثرت أعدادهم لدى هؤلاء الأمراء [1]. ومن هذه الأدوار التي قام بها هؤلاء العبيد انضمام ألف فارس منهم إلى أبي الفتوح عندما خرج ثائراً على العبيديين [2]. وكذلك قيامهم بالتجسس لمصلحة أمراء مكة مثلما حدث عندما أرسل أبو الفتوح أحد هؤلاء العبيد إلى مصر ليتقصى له بعض الأخبار عن تحركات العبيديين ضده، غير أن العبيديين اكتشفوا أمره وهو في مصر، فقتلوه [3].

بل وصل الأمر بهؤلاء العبيد إلى قيامهم بإثارة الفوضى في مكة في بعض الأحيان، وإيقاع بعض الفتن فيها خصوصا في أوقات مواسم الحج ، كما حدث سنة ٤٦٨هـ/١١٧٢م عندما ثاروا بمكة على حجاج العراق، معترضين على سياسة العباسيين في تولية أمير تركي على ركب الحج، التي كان يتولها في الغالب أمير علوي[4]. وعندما أرسل العباسيون في سنة ٤٧٠هـ/١٠٧٧م منبراً إلى مكة ليكون رمزاً يدل على سيادتهم عليها، احتج العبيد على ذلك فقاموا بتكسير المنبر وإحراقه، محدثين بذلك فوضى عارمة داخل مكة [5].

وتعد فئة المجاورين من أبرز الفئات التي سجلت حضوراً سياسياً بمكة في تلك الفترة حيث ازداد نفوذهم وأصبح لهم تأثيراً واضحاً على سياسة أميرها

(١) أحمد زيني دحلان، خلاصة الكلام، ص٦٤ ؛ خالد الخالدي، تنظيمات الحج، ص٤٣٥ .

(٢) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٦٤ ؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٦٨ ؛ الفاسي، العقد الثمين، ج٤، ص٧١ ؛ جيرالد دو غوري، حكام مكة، ص٦٠ .

(٣) نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٤١ .

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص١٢٠ ؛ الفاسي، شفاء الغرام، ج٢، ص٣٦٣.

(٥) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٩٠ ؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص١٢٥ ؛ الفاسي، شفاء الغرام، ج٢، ص٣٦٣ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٧٩ .

بعد أن وجِدَ لهم عدة فرص لإبداء رأيهم [١]، خاصة فيما له علاقة ومساس بالدين [٢]، ومن أمثلة ذلك تزعمهم للمعارضة التي تصدت لمحاولة قراءة السجل الذي أرسله الحاكم العبيدي لأبي الفتوح، المتضمن بين طياته قدحاً لبعض الصحابة وأمهات المؤمنين رضوان الله عليهم، حيث أجبروا في نهاية المطاف أبا الفتوح على الرضوخ لمطلبهم بعدم قراءته [٣]. وكذلك عندما حاصروا دار أبي الفتوح مطالبين بتسليمهم هادي المستجيش الذي أحدث الفتنة في مكة وقام بأعمال منافية للدين [٤]، كما سبقت الإشارة إليه، واحتجوا بغضب على سياسة اللين التي انتهجها أبو الفتوح مع ذلك الرجل ، حتى استطاعوا في النهاية من فرض رأيهم وإجبار أمير مكة للنزول عند مطلبهم بتسليم ذلك الرجل.

كما كانت بعض قبائل الحجاز من أبرز القوى التي تدخلت في الشؤون السياسية الداخلية لمكة، فكان لهذه القبائل دور في دعم بعض الأشراف وإيصالهم للحكم وهو ما جرى ـ على سبيل المثال ـ لقاسم بن هاشم الذي سانده الأعراب في ثورته ضد عمه عيسى بن فليته، حيث نجح بمساعدتهم في الوصول إلى السلطة في مكة وإزاحة عمه عنها [٥]. كما دعم هؤلاء الأعراب الأمير قاسم بن هاشم في حربه ضد أمير الحج العراقي أصبهذ بن

---

(١) صبحي عبد المنعم، العلاقات بين مصر والحجاز، ص٢٣٥ .

(٢) عطية طه إبراهيم، الحياة الاقتصادية الاجتماعية، ص٢٧١ .

(٣) البكري، المسالك والممالك، ج١،ص ٣٩٦ ـ ٣٩٧ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٣١.

(٤) الفاسي، العقد الثمين، ج٧، ص٣٥٥ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج١، ص٤٤٥ ـ ٤٤٦، الجزيري، الدرر الفرائد، ج١، ص٥٤١ .

(٥) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٧٧ ؛ الفاسي، العقد الثمين، ج٧، ص٣٥ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٥٢٤ .

سرتكين [١]. وقد قامت قبيلة هذيل بالوقوف بجانب مالك بن فليته في صراعه ضد أخيه عيسى، ومساعدته في حصار مكة سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م[٢].

إضافة إلى ذلك فقد استغلت بعض القبائل تدهور الوضع الأمني في مكة، لتقوم بالهجوم عليها، وإعمال السلب والنهب فيها، مثلما حدث من قبل مجموعة من قبيلة هذيل الذين دخلوا مكة سنة ٥٥٣هـ/١١٥٨م، لغرض السلب والنهب [٣].

ـ أثر الحالة الأمنية على العلاقات الخارجية لإمارة مكة :

لقد نتج عن التنافس بين القوتين العباسية والعبيدية على مكة أن ازدادت مكانتها السياسية، كما زادت رقعتها الجغرافية واتسعت لتضم مناطق لم تكن تابعة لها من قبل ، ومن ذلك ما قام به أبو الفتوح عندما وحّد بلاد الحجاز قبل أن ينقلب على العبيديين ويعلن قيام خلافته [٤]، وكذلك ما حدث لشكر بن أبي الفتوح الذي أصبح حاكماً على بلاد الحرمين، بعد حروبه الكثيرة مع أمراء المدينة، والتي نجح بعدها في التغلب عليهم وضم المدينة لمكة[٥]. بل كانت القوى المتنافسة خير معين في بعض الأوقات على توسع سلطة إمارة مكة، ومن ذلك ما جرى سنة ٤٦٥هـ/١١٦٩م عندما قام أمير مكة أبو هاشم وبمساعدة من العباسيين الذين دعموه بجند من الأتراك ببسط نفوذه على المدينة، وتلقب

(١) جميل حرب محمود حسين، الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، ص٢٦ .

(٢) الفاسي، العقد الثمين، ج٥، ص٤٣٨، ج٦، ص٢٢ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٥٣٢ ؛ بندر الهمزاني، علاقات مكة الخارجية، ص١١١ .

(٣) نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٥٢١ .

(٤) نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٢٦ ـ ٤٢٧ ؛ الجزيري، الدرر الفرائد، ج١، ص٥٣٢ .

(٥) الفاسي، العقد الثمين، ج٥، ص١٤ ـ ١٥ .

بأمير الحرمين[1]. بل أن طموح هذا الأمير كان أبعد من ذلك حيث طمع في سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٣م للوصول إلى بلاد اليمن، وسيطر على مدينة حلي بن يعقوب، بعد أن دخل في صراع مع الصليحيين على ذلك [2].

ومن أشراف مكة الذين تعدى طموحهم محيط بلاد الحجاز، ، الشريف قاسم بن أبي هاشم الذي قرر أخذ مناطق تابعة لمصر فقام بشن غارات حربية بحرية على المراكب الراسية في ميناء عيذاب سنة ٥١٢هـ/١١١٨م، وقام بنهب ما فيها من بضائع وأموال متنوعة، كما قتل عدداً من التجار المصريين [3]. ورغم أن هذه المحاولة لم تسفر عن سيطرة تامة للشريف قاسم على ميناء عيذاب، كما أعقبها تهديد شديد لهذا الشريف أصدره الوزير العبيدي الأفضل بن بدر الجمالي الذي اعتبر ذلك انتهاكاً سافراً للممتلكات العبيدية، وأعيد على أثر ذلك جميع ما أخذ من تجار مصر [4]، إلا أنها تؤكد علو طموح حكام مكة وخططهم التوسعية، ورغبتهم في مدّ نطاق إمارتهم وتوسيع رقعتها الجغرافية.

واستقراءً لما مضى نلحظ أن أمراء مكة تقريباً قد نهجوا طريقين في سياستهم الرامية لتوسيع نطاق أمارتهم . فمنهم من سعى إلى توسيع سلطانه متماشياً بذلك مع خطة مرسومة تهدف إلى مد نفوذه وبناء زعامة حقيقية في مكة وما حولها والاستقلال بها. وقد يتعدى ذلك الطموح في

---

(١) الأصفهاني، تاريخ دولة آل سلجوق، ص٣٨ ؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج٤، ص١٣٣.

(٢) عبد المنعم ماجد، السجلات المستنصرية، ص٤٠ ؛ حسين الهمداني، الصليحيون والحركة الفاطمية، ص٩٣ .

(٣) الفاسي، العقد الثمين، ج٧، ص٢٨ ـ ٢٩ ؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٥٨ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٩٧ .

(٤) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٥٨ .

بعض الأحيان إلى أبعد من ذلك ليصل إلى زعامة العالم الإسلامي , وخير من يمثل هذا النهج الأمير أبو الفتوح , وذلك عندما استغل الظروف من حوله وحاول الاستقلال بالحجاز ثم أعلن نفسه خليفة للمسلمين .

وهناك من سعى جاهداً إلى الاستقلال دون أن يملك لذلك خطة واضحة وإنما يأتي تفكيره وممارساته أشبه ما تكون لممارسات رؤساء العصابات وقطاع الطرق ونجده متردداً حتى في إعلان استقلاله وفي النهاية يرضخ لسياسات القوتين المتنافستين على إمارته , ويعد أبو هاشم محمد بن جعفر وكذلك الأمير قاسم أوضح مثالين على ذلك.

ـ أثر الحالة الأمنية في نفوذ القبائل :

نتج عن شدة التنافس بين العباسيين والعبيديين على السلطة في مكة أن أصبح للقبائل العربية القاطنة حول مكة وعلى طول طرق الحج دور سياسي خطير خصوصا بعد أهملت كل من الدولتين المتنافستين شأن طرق الحج وأمنها وانشغلت في الصراع فيما بينها، حيث لاحظنا من خلال الحديث عن الحالة الأمنية على طرق الحج انتشار الفساد في هذه الطرق ، وتسلط القبائل وازدياد حركات التمرد والعصيان من قبلها ، وتكرر قطعها للطريق ، والاعتداء على الحجاج. ومن المفترض أن تقوم هذه القوى المتنافسة بقمع أولئك الأعراب، والحد من تسلطهم، والسعي في سبيل تأمين الطرق، إلا أننا نلحظ ـ وللأسف الشديد ـ أن هذين الطرفين قد زادا من تطور الخطر الذي تشكله تلك القبائل على طرق الحج فالدولة العباسية ـ كما مر بنا ـ كانت تستخدم معهم سياسة لينه في أول الأمر حيث كانت تدفع لهم الأموال لتفادي شرهم , بعكس الدولة العبيدية الحريصة آنذاك على إرفاق الجند والحرس مع قوافلها المتجهة إلى مكة في كل موسم حج لحماية رعاياها من خطر القبائل , ثم تطور الأمر ـ خصوصاً بعدما زادت حدة

التنافس بين الدولتين . وذلك بجعل هذه القبائل ورقة سياسية يستغلونها كسلاح ضد بعضهم البعض للتأثير على موقف الطرف الأخر وإحراجه أمام أتباعه، مما أعطى لتلك القبائل قيمة سياسيةً وتأثيراً واضحاً في معادلة الصراع بين الدولتين العباسية والعبيدية.

وقد تفوق العبيديون على العباسيين في قضية استخدام سلاح القبائل على طرق الحج وتوجيههم لخدمة مصالحهم حيث دأبوا على استخدام هذا السلاح أكثر من مرة . كما سبق وأن مر بنا. ومثال على ذلك ما حدث سنة ٣٦٣هـ/٩٧٣م عندما حرّض الحاكم العبيدي المعز لدين الله أعراب بني هلال وغيرهم على حجاج العراق، فقطعوا عليهم الطريق، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، ولم يتمكن من سلم من تأدية الحج لضيق الوقت [١]. الجدير بالذكر أن استخدام العبيديين للقبائل ضد خصومهم لم يكن وليد تنافسهم مع العباسيين على مكة، بل كان لهم سابقة في إثارة بعض القبائل الحجازية ضد الإخشيديين عندما حرضوا قبائل بني سليم[٢], الموالية لهم آنذاك [٣]. ضد الحجاج من أتباع الدولة الإخشيدية سنة ٣٥٥هـ/٩٦٥م، فقاموا بنهبهم،

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٥٨ ؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١١، ص٢٩٤ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢ ، ص٤١٠ ؛ الجزيري، الدرر الفرائد، ج١، ص٥٢٦.

(٢) إحدى القبائل المضرية , وتنسب إلى سليم بن منصور بن عكرمة ولد عيلام بن مضر , وكانت لهم ديار واسعة وعشائر متعددة , ولها عدة بطون منهم , ذكوان , وبنو مطرود , وغيرهم , وتمتد ديارهم على مشارف تهامة بين مكة والمدينة , وكان لهم دور بارز في الفتوحات الإسلامية في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين. (القلقشندي , نهاية الأرب, ص٢٧١- ٢٧٢؛ عاتق غيث البلادي, معجم قبائل الحجاز, مكة المكرمة : دار مكة , ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م, ص٢٢٦- ٢٢٩).

(٣) أحمد الزيلعي، مكة وعلاقاتها الخارجية، ص٣٧ .

وتشريدهم، وقتل أعداد كبيرة منهم (١). كما قام العباسيون بالسير على هذه السياسة عندما حرضوا . على سبيل المثال . الأعراب القاطنين في وادي القرى(٢)ضد العبيديين سنة ٣٧٧هـ/٩٨٧م (٣).

كما لم يقف تعاظم نفوذ بعض القبائل واقتصارها على لعب دور سياسي على طرق الحج , بل وصل الأمر أن أصبحت بعض هذه القبائل طرف ثابتا في معادلة الصراع الذي يحدث بين الأشراف على السلطة في مكة, وأن يكون لها دورٌ مؤثرٌ في وصل هذا الأمير أو ذاك إلى كرسي الحكم, كما حدث عندما اشتد النزاع على السلطة بين الأمير قاسم بن هاشم بن فليته وعمه عيسى بن فليته فتدخلت بعض القبائل في ذلك النزاع لصالح الأمير قاسم بن هاشم, ثم انقلبوا عليه لينظموا إلى عمه الشريف عيسى بن فليته, وكان لتدخلهم دورٌ كبيرٌ في وصول عيسى للحكم بعد أن قاموا بالقبض على الشريف هاشم وقتله.

ـ أثر الحالة الأمنية على التنظيمات الإدارية لإمارة مكة :

وقفت الحالة الأمنية غير المستقرة في مكة أثناء التنافس بين الدولتين العباسية والعبيدية عائقاً أمام حكامها للقيام بتنظيم إداري أو مالي في إمارتهم، حيث نلحظ قلة المعلومات التي تفيد بوجود أي تنظيمات خاصة أو

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص١٧٤ ؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٧، ص٢٠ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٠٤ .

(٢) وادي بين الشام والمدينة ، وهو بين تيماء وخيبر , فيه قرى كثيرة وبها سمي وادي القرى , وهو من منازل قضاعة وجهينة وعذرة وبلي , ويمر بها حاج الشام , وهو من المناطق التابعة للمدينة. (ياقوت الحموي , معجم البلدان ، ج٤ , ص٣٣٨- ٣٣٩).

(٣) أحمد الزيلعي، مكة وعلاقاتها الخارجية، ص٤٦ .

عامة قام بها حكام مكة تعنى بالأمور الإدارية والمالية أو القائمين عليها أثناء فترة النزاع بين العباسيين والعبيديين على النفوذ في بلاد الحجاز، وذلك مقارنة بما جاء عن أصحاب الوظائف الدينية؛ كالقضاة، وبعض أئمة الحرم، والمؤذنين، والمدرسين، وغيرهم. ولا شك أن لهذا التقصير في التنظيم الإداري والمالي عدة أسباب ، منها:

- عدم الاستقرار السياسي داخل مكة وانشغال حكامها في الصراع الدائر بين الدولتين العباسية والعبيدية على مكة، وتذبذب ولائهم بين هاتين الدولتين .

- قلة موارد مكة واعتمادها اقتصادياً على ما يرد إليها من الدول والأقاليم المجاورة وعدم انتظام الأعطيات والأموال التي كانت تصل إليها من العباسيين والعبيديين مما أثر سلباً على العاملين بالقطاعات الإدارية وذلك لتأخر دفع مرتباتهم أو انقطاعها في بعض الأحيان.

- انصراف أغلب الناس - ومنذ القدم - في مكة إلى التجارة أو الانقطاع للعلم وعدم إعارتهم أي اهتمام للأعمال الإدارية.

- تماشي أمراء مكة في تدبير شؤون إمارتهم كما ذكر القلقشندي[1] وفق النظام القبلي، الذي لا يعير بالاً للتنظيم والترتيب الإداري المحكم كما هو معروف , زد على ذلك نقص المهارات الإدارية والمالية والسياسية أو الجهل بها لدى الكثير من هؤلاء الأمراء.

- أثر الحالة الأمنية على التنظيم العسكري لإمارة مكة :

(١) صبح الأعشى . ج٤، ص٣٤٢.

لم يكن التنظيم العسكري في إمارة مكة خلال فترة التنافس بين العباسيين والعبيديين عليها بأحسن حال من التنظيم الإداري، فكان تدهور الحالة الأمنية سبباً أدى إلى سهولة الاستيلاء عليها(١) من قبل بعض القوى المتنافسة ووقوفها عاجزة عن حماية نفسها(٢). ولا شك أن كثرة التدخلات الخارجية في شؤون مكة قد أفقدت حكامها القدرة على تكوين قوى عسكرية منظمة، تحفظ الأمن داخل الإمارة، وتدافع عنها في وقت الحاجة. كما أن عدم وجود مورد منتظم للدخل قد حرم ـ بلا شك ـ هؤلاء الأمراء من تخصيص رواتب للجند وتنظيم فرق عسكرية مدربه. وعندما نستعرض الأحداث والمشاكل التي تعرض لها أمراء مكة نلحظ أن اعتمادهم ـ غالباً ـ في الدفاع عن أنفسهم وإمارتهم ينصب على بعض الفئات التي لا توحي بأنها قوات منظمة تسير وفق أوامر معينة، فكان أغلب القوات التي يعتمدون عليها لا تعدو كونها بالأصل أفراداً أو حراساً لهذا الأمير أو ذاك ومثال على ذلك ما حدث مع أبي الفتوح عندما انشق عن العبيديين وأعلن قيام خلافته، حيث أعتمد في حركته تلك على

---

(١) لم يكن الضعف العسكري الذي انتاب إمارة مكة وسهولة الاستيلاء عليها وليد فترة التنافس بين العباسيين والعبيديين عليها , بل يرجع ذلك لفترات متقدمة من التاريخ الإسلامي ومثال على ذلك ما حصل سنة ١٢٩هـ/٧٤٦م , عندما استطاع أبو حمزة الخارجي دخولها والاستيلاء عليها بجيش لا يتعدى سبعمائة رجل وطرد عامل الأمويين عليها عبدالواحد بن سليمان بن عبد الملك منها . (خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة بن خياط ، ص٣٨٤ ـ ٣٨٥ ؛ اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص٣٣٩) .

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٢٨١ .

حوالي ألف فارس من الأشراف وألف عبد من حراسه الذين ساروا معه إلى بلاد الشام للقاء بني الجراح(١).

ومن الواضح أن عبيد الأشراف في مكة كانوا القوة الفعلية التي يعتمد عليها أمراؤها في كثير من المواقف وإن كانوا في الغالب يقفون وراء تدهور الأوضاع الأمنية داخل مكة خصوصا عندما يستخدمهم أميرهم لمصالحة الشخصية في تحقيق أطماعه كما فعل أبو هاشم عندما أمر مجموعة من العبيد وغيرهم لنهب الحجاج الشاميين أثناء عودتهم من حج سنة ٤٨٦هـ/١٠٩٣م (٢).

وفي بعض الأحيان يعتمد الأشراف على قوات خارجية تدخل إلى مكة لمساندة أميرها ضد طرف آخر يقف وراءها أحياناً أحد القوى المتنافسة على النفوذ في مكة لدعم بعض المواقف وتنفيذ بعض السياسات، ومثال على ذلك تقدم قوات من القرامطة لدعم أمير مكة جعفر بن محمد سنة ٣٦١هـ/٩٧١م للتصدي لجيش أرسله العبيديون لإقامة الخطبة لهم في مكة(٣)، ومثال آخر تلك القوات التي دفع بها العباسيون لمساعدة أمير مكة أبي هاشم محمد بن جعفر للسيطرة على المدينة وإخضاعها للعباسيين (٤).

وتشارك بعض القوى الخارجية أحياناً في النزاعات التي تنشب بين الأشراف وبعد التوصل لحل تلك النزاعات تخرج من مكة بعدما ترك فيها

---

(١) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٦٤ ؛ الفاسي، العقد الثمين، ج٤، ص٧١ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٣٨ .

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٦٨ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٨٦ . ٤٨٧ .

(٣) نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٠٨ ؛ العصامي، سمط النجوم العوالي، ج٤، ص٢١٠ .

(٤) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج٤، ص١٣٣ ؛ أحمد الزيلعي، علاقات مكة الخارجية، ص٧٤ .

حامية عسكرية فيها لتعين الأمير على ضبط الأمن والتصدي لخطر المعارضين، مثلما فعل علي بن محمد الصليحي عندما ترك في مكة حامية عسكرية سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٣م لحماية الشريف أبي هاشم محمد بن جعفر والحفاظ على تبعيتها للعبيديين [١].

ومما يؤكد عدم وجود جيش منظم في إمارة مكة حينذاك استعانة حكامها في حروبهم ببعض القبائل، حيث يقومون عند الحاجة بجمعها والتحرك بها نحو أهدافهم، ومن ذلك . على سبيل المثال . ما قام به أبو الفتوح من جمع بعض القبائل والتحرك بها نحو مدينة حلي، التي استولى عليها [٢]. وكذلك تحالف مالك بن فليته مع قبيلة هذيل لنصرته وأخذ إمارة مكة من أخيه عيسى سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م[٣]. ولا شك أن هذه القبائل تمثل المنظومة العسكرية غير النظامية التي كانت تساند حكام مكة عن طريق التحالفات أو غيرها من الأساليب [٤].

الجدير بالذكر أن عدم وجود قوة منظمة لحكام مكة قد أضعفت من سلطتهم وأجبرتهم للخضوع شبه التام للقادة الذين كانت ترسلهم الدول المتنافسة لإقرار الأوضاع وتثبيت النفوذ، مثلما حدث لأمير مكة قاسم بن هاشم الذي سعى

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٨، ص٩٦ ؛ الفاسي، شفاء الغرام، ج٢، ص٣١٠ . ٣١١ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٦٩ ؛ عز الدين ابن فهد، غاية المرام، ج١، ص٥٠٩ . ٥١٠ .

(٢) نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٤٦ .

(٣) الفاسي، العقد الثمين، ج٥، ص٤٣٨، ج٦، ص٢٢ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٥٣٢ ؛ بندر الهمزاني، علاقات مكة الخارجية، ص١١١ .

(٤) ذيبان هادي ذيبان، مكة في عهد أبي الفتوح الحسني دراسة سياسية وحضارية (٣٨٤ . ٤٣٠هـ/٩٩٤ . ١٠٣٨م) . (رسالة ماجستير)، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الملك عبد العزيز، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، ص١١٠ .

لاستقبال الجيش العباسي وخطب ودّه واسترضائه, خوفاً من غضب الخلافة وانتقامها، بعد حوادث اعتداءٍ من عبيده على مكة سنة ٥٥٧هـ/١١٦١م[١].

ولا نستبعد أن سياسة الأطراف المتنافسة على مكة كان من مصلحتها تجريد أمراءها من أي قوة قد تساعده على منع التدخل العسكري لتلك القوى في مكة أو السيطرة عليها, وكذلك لإضعاف أولئك الأمراء حتى يبقوا على الدوام بحاجة ماسة لهم فلا يتمكنوا في المستقبل من تكوين قوات منظمة ومدربة تساعدهم على الاستقلال الفعلي مع مرور الزمن .

وقد يترتب على اختلال الأمن في مكة والحاجة لإقرار الوضع فيها قيام القوى المتنافسة على النفوذ فيها بإرسال قوات عسكرية في أوقات مختلفة بهدف تأكيد ذلك النفوذ، وإرساء قواعد الأمن في مكة، فضلاً عن ما يرسل بصحبة وفود الحجيج من جنود لحمايتهم أثناء الطريق وعند تأدية المناسك، ومر بنا خلال الحديث عن الحالة الأمنية في مكة كيف تكرر إرسال الجيوش من العراق أو مصر إلى بلاد الحجاز، وكيف ساعدت هذه الجيوش في بعض الأحيان على ضبط الأمور وإقرار الأوضاع السياسة في مكة. ومن جهة أخرى فقد تعرضت مكة من جراء إرسال هذه الجيوش إلى بعض المشاكل السياسية، فكانت ضحية لما توقعه هذه الجيوش فيها من ضنك العيش وكبت للحريات على أثر الحصار الذي تفرضه هذه الجيوش عليها والذي يستمر في بعض الأحيان لأيام طويلة، وأحياناً عدة أشهر , وكثيراً ما تقف هذه القوى العسكرية وراء أسباب تفاقم الأوضاع وتوتر الحالة السياسية والأمنية في مكة بسبب الاختلاف الذي غالباً ما يقع بينها وبين أمير مكة أو أتباعه من الأشراف والعبيد وغيرهم.

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٠، ص٢٠٢ ؛ ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٨٠ ؛ أبو الفدا، المختصر، ج٢، ص١١٣ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٢٢٥ .

المبحث الثاني: الآثار الاقتصادية.

رغم طبيعة أرض مكة القاحلة وفقر مواردها نظراً لكونها بلد غير ذي زرع، إلا أن موقعها قد أكسبها أهمية تجارية كبيرة , حيث يمر بها أهم طريق تجاري يربط الشام باليمن، فتحولت مكة بفضل هذا الطريق إلى بلدة تجارية مهمة, و نقطة التقاء القوافل التي تقوم بنقل البضائع والسلع بين هذين القطرين، وقد انفردت بهذه الميزة عن غيرها من البلاد فصار أهلها ينظمون لأنفسهم الرحلات التجارية، ولعل من أبرز تلك الرحلات ما عرف في التاريخ باسم رحلتي الشتاء والصيف. (١)

ومن جانب آخر فإن قرب مكة من البحر الأحمر قد أعطاها ميزة أخرى, حيث استطاع المكيون الاتصال ببلاد الحبشة والنوبة وغيرها من البلاد الإفريقية اتصالا تجارياً عبر المؤانىء المقامة على ساحل ذلك البحر كمينائي جدة , والسرين(٢)، وأصبحوا يتبادلون السلع التجارية مع سكان هذه البلاد فانتعش بذلك الاقتصاد المكي وتنوعت فيها المتاجر والأسواق.

---

(١) محمد حسن العمادي , التجارة وطرقها في الجزيرة العربية بعد الإسلام حتى القرن ٤هـ , إربد : مؤسسة حمادة للخدمات والدراسات الجامعية (د.ت) , ص٢٣.

(٢) السَّرين , من أعمال مكة على ساحل البحر قريبة من جدة , تصلها المراكب التجارية المحملة بالمتاجر من اليمن , وتعد الواجهة البحرية الثانية لمكة بعد جدة وتقع بالجنوب منها, واستمرت السرين تلعب دوراً بارزاً في الحياة الاقتصادية لمكة حتى بدأت تتلاشى وتزول من خارطة الأحداث التاريخية منذ القرن الثامن الهجري, ولعل ذلك عائد لجملة أسباب منها اضطراب الأمن في المنطقة الحجازية وكثرة الحروب بين أمراء مكة في تلك الفترة.(ياقوت الحموي , معجم البلدان ,ج٣, ص١٩٦؛ محمد حسين الحارثي , الثغور البحرية الحجازية من البعثة النبوية إلى نهاية العصر المملوكي(رسالة ماجستير) , مكة المكرمة : كلية الشريعة, جامعة أم القرى ١٤٢٢هـ, ص١٢٥).

وبعد مجيء الإسلام أصبحت مكة مركزاً اقتصادياً مهماً بجانب أهميتها الدينية التي لا تخفى على أحد، حيث غدت مكان التقاء للمسلمين الذين يفدون إليها في كل عام من كافة الأقاليم الإسلامية , فيؤدون مناسكهم, ويتبادلون مع أهلها ومن جاء إليها المصالح التجارية المختلفة.

وبعد تفاقم الأوضاع السياسية وزيادة حدتها وذلك نتيجة الفتن والثورات العلوية المتعددة التي ناوءت الأمويين والعباسيين على حد سواء واتخذت من مكة مقراً لانطلاقها أو هدفاً للجوء بها, أصبح لذلك تأثيراً واضح على الأوضاع الاقتصادية في مكة ووضح هذا التأثير أكثر من ذي قبل بعد هجوم القرامطة الشهير عليها سنة ٣١٧هـ/٩٢٩م, وسلبهم لخيراتها ومقدراتها.

وفي النصف الثاني من القرن الرابع الهجري تعرض العالم الإسلامي لتحولات سياسية عدة, كان من أبرز ها تمكن العبيديون من السيطرة على مصر سنة ٣٥٨هـ /٩٦٨م ومتاخمة حدودهم لأراضي الدولة العباسية, مما ولد بين الطرفين نزاع سياسي زاد من حدته تمكن العبيديون من مد نفوذهم إلى الحجاز , الذي يعد أهم إقليم من أقاليم الدولة الإسلامية, ثم نجاحهم بعد ذلك بانتزاع الخطبة من العباسيين وتحويلها باسمهم , فأصبحت مكة بعد ذلك نقطة الصراع المباشر بين أكبر قوتين في العالم الإسلامي آنذاك.

ورغم بعض المكاسب الاقتصادية التي نالتها مكة بسبب التنافس بين العباسيين والعبيديين, من حيث الانفتاح على مصر واستفادتها من خيراتها المتنوعة أكثر من ذي قبل، وتسابق القوى في خطب ودّ أهل مكة وأشرافها وإغداقهم بالمال والأعطيات . كما أشرنا إلى ذلك سابقاً . إلا أن تذبذب الأوضاع الأمنية الناتجة عن ذلك الصراع , و تأثيراتها السلبية المتعددة

على الجوانب الاقتصادية المختلفة في مكة كان لها معظم الأثر في تردي الاقتصاد المكي مقارنة بالحقب السابقة.

وسوف يتناول هذا المبحث تأثيرات الأوضاع الأمنية على بعض أهم ركائز الاقتصاد المكي , في الفترة التي كانت فيها مكة محط أنظار القوى المتعددة في العالم الإسلامي, ومركزاً لتجاذب النفوذ بين تلك القوى.

أثر الحالة الأمنية على الأسواق في إمارة مكة.

عرفت أرض الحجاز عامة ظاهرة انتشار الأسواق منذ عهد قديم, وكانت التجارة تمارس فيها بشتى أنواعها, وانتشر العديد منها حول مكة ، وقد كان هناك عدة عوامل ساعدت على انتشار الأسواق في مكة والقرى المحيطة بها , ويعد العامل الديني والجغرافي من أهم تلك العوامل:

ويتلخص العامل الديني في مقدم العديد من المسلمين إلى مكة لأداء فريضة الحج أو العمرة حيث كانوا ينتفعون - بعد العبادة - بالمتاجرة بيعاً وشراءً[1].

أما العامل الجغرافي فيرتبط بالموقع الفريد الذي تتميز به بلاد الحجاز عامة ومكة على وجه الخصوص حيث ملتقى الطرق التجارية المتصلة بين بلاد الشرق والغرب, مما ساعد على نشؤ الأسواق الدائمة التي يحتاجها التجار لعرض تجاراتهم المحلية والعالمية [2].

---

(١) سعاد إبراهيم الحسن, النشاط التجاري في مكة المكرمة في العصر المملوكي(٦٤٨هـ - ٩٢٣م), (رسالة ماجستير) , مكة المكرمة: كلية الشريعة والدراسات الإسلامية , جامعة أم القرى , ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، ص ٢٧٦.

(٢) محمد حسن العمادي: التجارة وطرقها في الجزيرة العربية، ص ٥٦.

وفي العصر الإسلامي اشتهرت مكة بكثرة أسواقها وتعدد مهامها، منها ما هو على شكل سوق عام يحوي بضائع وسلع متنوعة، ومنها ما تخصص بتسويق نوع معين من السلع فقط، وقد شهدت مكة في القرون الهجرية الأولى زيادة ملحوظة في عدد أسواقها, وتنوع تخصصات تلك الأسواق بحسب السلع التي تباع فيها. (1)

وكانت هذه الأسواق تشهدُ حركةً تجاريةً كبيرةً خصوصاً في مواسم الحج والعمرة ، حيث يستغل التجار المكيون تجمع المسلمين من أصقاع مختلفة من العالم الإسلامي, ويجدونها فرصة لتبادل البضائع والسلع معهم.

واستمرت الأسواق المكية في الازدهار لفترة طويلة , إلا أنها كانت تتأثر من حين إلى آخر بما يطرأ على العالم الإسلامي من تغيرات سياسية ينتج عنها فتن وثورات خطيرة تؤثر في النهاية على الاقتصاد في مكة, ولعل من أبرزها تلك الثورات العلوية المتكررة على الدولة العباسية, والتي قام معظمها في بلاد الحجاز وطال مكة منها الشيء الكثير.

وفي النصف الثاني من القرن الرابع الهجري زار المقدسي مكة وأشار إلى وجود عدد من الأسواق فيها آنذاك، وخاصة في الجهتين الشرقية والجنوبية (2)، وقد تحدث المقدسي (3) عن الأسواق المتخصصة في مكة حينذاك، كما ذكر عدداً من الأسواق العامة سواها.

---

(1) الفاكهي، أخبار مكة، ج2، ص203-208.

(2) عبد العزيز السنيدي، مكة في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، ص77-79 .

(3) أحسن التقاسيم، ص76 .

وأشار ناصر خسرو[1] عندما زار مكة سنة ٤٤٢هـ/١٠٥٠م إلى كثرة الأسواق فيها فقال:" تحيط بالمسجد الحرام أسواقٌ كثيرةٌ ودروب ضيقةٌ تزدحم بالمتاجر ... ويقع في الجانب الشرقي من الحرم سوقٌ كبيرة تمتد من الشمال إلى الجنوب ويقع مدخل تلك السوق الرئيسي في الجهة الجنوبية التي في سفح أبي قبيس".

ورغم ما ذكره المقدسي وهو الذي زار مكة في أوائل فترة التنافس بين العباسيين والعبيديين عليها, وكذلك ما ذكره ناصر خسرو الذي قدم إلى مكة إبان فترة حكم الشريف شكر بن أبي الفتوح من تنوع في أسواقها وتعدد فيما يباع فيها من بضائع وسلع , إلا أننا إذا قارنا ما تحدثا عنه بما كانت عليه الأسواق في مكة في الفترة المتقدمة, فإننا نلحظ تقلصاً كبيراً في عدد الأسواق في هذه الفترة مقارنة بالفترات التي سبقتها, حيث جاء وصفهما لتلك الأسواق بأنها متركزة حول المسجد الحرام فقط، ولم يشر أحدٌ منهم إلى انتشارها في أنحاء مكة, أو تعدد تخصصات تلك الأسواق كما كانت عليه قبل ذلك , فضلاً عن اقتصار نشاطها - في الغالب - على المواسم.

ولعل ما حدث في العالم الإسلامي من تغييرات سياسية في القرنين الرابع والخامس الهجريين, وأبرزها ذلك الصراع الذي نشب بين العباسيين والعبيديين من أجل بسط النفوذ في مكة, كان له عظيم الأثر في تقلص تلك الأسواق واندثار الكثير منها , حيث انعكست تداعيات ذلك الصراع سلباً على الاقتصاد المكي وتأثرت بذلك الأسواق المكية التي تعتمد في الغالب في تسويق ما تحويه من بضائع وسلع على الحجاج, حيث أن بقاء نشاطها مرهونٌ باستمرار توافد الناس على مكة.

---

(١) رحلة ناصر خسرو، ص١٣٧ - ١٣٨ .

وقد تعرضت الأسواق المكية خلال فترة الدراسة للكثير من المعوقات التي تصل في بعض الأحيان إلى إغلاق بعضها، وكان لتفاقم الأوضاع الأمنية في مكة واستشراء الفتن فيها في تلك الفترة أكبر الأثر في ذلك حيث لاحظنا ما تعرضت له مكة من تعدد للحصارات التي ضربت عليها من قبل جيوش الدولتين المتنافستين من أجل بسط النفوذ فيها, وما سببه ذلك من نقص حاد في التموين الغذائي والسلع التي تقوم عليها تلك الأسواق .

كما أن بقاء تلك الأسواق وازدياد نشاطها مرهونٌ بعدة عوامل من أهمها الاستقرار السياسي, الذي غاب عن مكة في أغلب فترات ذلك الصراع, حيث كان التدهور السياسي وانفلات الأمن في مكة هو السمة الغالبة في تلك الحقبة التي امتدت لأكثر من قرنين.

كما كانت الأسواق المكية في تلك الفترة تتأثر بهجمات الأعراب على مكة خصوصاً تلك القبائل المقيمة حولها والمحيطة بها, من ذلك . مثلاً . ما حدث سنة ٥٥٣هـ/١١٥٨م عندما نفذت قبيلة هُذيل هجوماً على مكة، وأعملت في أسواقها السلب والنهب,(١) محدثة فيها هزة اقتصادية أثرت على الحركة التجارية لتلك الأسواق.

وكنت قبيلة بني شعبة أيضاً كثيراً ما تغير على مكة خصوصاً أيام المواسم, عند مقدم الحجاج والتجار إليها (١), كما كان لهم قبل ذلك عدة هجمات على قوافل الحج والتجارة المحملة بالبضائع والسلع الواردة من اليمن إلى أسواق مكة.

---

(١) ابن المجاور، المستبصر ، ص٥٢ .

(١) سعاد الحسن, النشاط التجاري في مكة المكرمة في العصر المملوكي ، ص ٢٧٦.

أثر الحالة الأمنية على التموين الغذائي لإمارة مكة :

سبقت الإشارة إلى أن طقس مكة تغلب عليه الحرارة العالية, وأن أرضها تعتبر شبه جرداء, وغير منتجة إلا ما ندر, في بقاع خصبة متفرقة فيها, مما لا يوفر لأهاليها كفايتهم من المنتجات الغذائية والمستلزمات الضرورية , ومع هذا فإنها تُعد من أغنى بقاع الأرض تجارةً وأوفرها بضائع وسلعاً، كما أن أسواقها تغصُ بالعديد من المنتجات الزراعية, التي لا تنقطع عنها صيفاً وشتاءً[١] ، ويعزى هذا الأمر إلى الارتباط التجاري الوثيق وشبه الدائم بين الأسواق المكية وغيرها من الأسواق في داخل الإقليم نفسه أو خارجه , والتي بدورها تصدر إليها الكثير والجديد مما تنتجه أرضها حيث تلقى تلك السلع رواجاً كبيراً خصوصاً في أيام الموسم .

وما خص الله به أرض الحجاز من توافر الغلال والسلع والمتاجر إنما جاء استجابة لدعوة أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام, قال تعالى: رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾ [٢] ، وقال تعالى : وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٧﴾[٣].

---

(١) ناصر خسرو: رحلة ناصر خسرو، ص١٤١.

(٢) سورة إبراهيم ، الآية ٣٧.

(٣) سورة القصص ، الآية ٥٧ .

وعلى الرغم من توفر الكثير من السلع وأصناف الطعام في مكة نظراً لما تشهده أسواقها من نشاط تجاري خصوصا أيام مواسم الحج والعمرة, وكذلك ما يصلها من الأموال والصدقات والأعطيات من الدول والأقاليم الإسلامية, وخصوصا الدولتين المتنافستين على النفوذ فيها, إلا أنها تشهد في كثير من السنوات أزمات اقتصادية وانقطاع للتموين وشح في الغذاء, ولعل ذلك عائدٌ للظروف الأمنية المتردية، التي عانت منها مكة في سنوات عديدة خلال التنافس العباسي العبيدي عليها، فتأثرت بذلك الكثير من السلع التي كانت متوفرة في الأسواق المكية, حيث انقطع بعضها عن الأسواق بانقطاع التجار والحجاج الذين يجلبونها معهم أثناء مجيئهم إلى مكة, ويصرفونها في أسواقها , كما أن الدولة التي تفرض نفوذها على مكة قد تضيّق على التجار من رعايا الدولة المنافسة, فلا يتمكنون بذلك من تصريف بضائعهم فتفقد الأسواق المكية بذلك السلع المهمة من هذا القطر أو ذاك وكل ذلك ينعكس سلباً على الاقتصاد المكي.

وعندما تبسط إحدى القوتين سواءً العباسية أو العبيدية نفوذها على مكة وتخف بذلك وطأة التنافس عليها, فإنه يلحق ذلك هدوءٌ في الأوضاع الأمنية واستقرار سياسي, ينعكس بدوره إيجاباً على الاقتصاد المكي فتكثر فيها الخيرات, وتعج أسواقها بالبضائع والسلع, وتتعدد فيها مصادر التموين ويحصل هناك تنوع في الغذاء ووفرة في أصنافه وخير شاهد على ذلك ما ذكره المقدسي[1], الذي زار مكة حاجاً سنة٣٦٧هـ/٩٧٧م وجاور فيها حيث وصف الأسواق المكية, وتنوع البضائع والسلع ووفرة الغذاء في مكة , كما أشار إلى بعض مصادر التموين التي تغذي مكة فذكر أن الطائف

---

(١) أحسن التقاسيم ، ص٨٠

تزود الأسواق المكية بأنواع متعددة من الفواكه, وقال عن البلاد المصرية: "... ومنها يحمل أكثر ميرة الحجاز من الدقيق والكعك, وأحصيتُ في وقت من السنة فإذا هو يبلغ ثلاثة الآف حمل جمل في كل أسبوع, كلها حبوب ودقيق" [(١)].

وشاهد آخر على ما ذُكر ما تحدث عنه ناصر خسرو[(٢)] الذي جاء إلى مكة حاجاً سنة ٤٤٢هـ/ ١٠٥٠م في أواخر فترة الأمير شكر بن أبي الفتوح والتي اتسمت بالهدوء النسبي والاستقرار السياسي فقال:"... والخضراوات كثيرة بها , فقد رأيت في أسواق مكة الخيار والباذنجان , وغيرهما , وكلُها طريةٌ وجديدةٌ... ولقد رأيتُ في فصل الشتاء من هذا العام أنواعاً كثيرةً من الفواكه في أسواق مكة ...", وتحدث عن ريف الحجاز كمصدر للتموين فقال "... فقد رأيتُ عنباً جيء به من ريف الحجاز ..." [(٣)].

ونلاحظ العكس عندما تمر مكة بأزمات سياسة ويحتدم التنافس بين الدولتين العباسية والعبيدية, أو يحصل خلاف بين الدولة المسيطرة وأشراف مكة, حيث نجد أن الأوضاع الاقتصادية لمكة تنقلب إلى السوء, ويشح فيها الطعام, وتنعدم فيها الأقوات, وتنتشر فيها المجاعات ومن ذلك ما حدث في أوائل فترة حكم الأمير شكر بن أبي الفتوح سنة ٤٣٨هـ/١٠٥٦م عندما توسعت حدة الانشقاق السياسي بينه وبين بقية الأشراف المعارضين له, وذلك بسبب

---

(١) المقدسي , أحسن التقاسيم ، ص١٦٦.

(٢) رحلة ناصر خسرو ، ص١٤١.

(٣) ناصر خسرو , رحلة ناصر خسرو ، ص١٤١.

إقامته الخطبة للعبيدين, رغم إحجامهم عن تزويد مكة بما تحتاجه من طعام, وقيامهم بتخفيض المخصصات المالية للأشراف[1].

وقد وصف ناصر خسرو[2] تلك الحاله التي نتجت عن التدهور الاقتصادي بمكة بسبب الخلافات السياسية التي حصلت بين الأشراف, وذلك عندما عندما حج في تلك السنة, حيث قال: "... ولم يسافر إلى الحج في ذلك العام أيُ راكب، وكان الطعام شحيحاً،..."

ويبدو أن الأوضاع لم تتحسن حيث استمرت تلك الأزمة, بل وزادت عما كانت عليه, وتواصلت معاناة الأهالي في مكة من شدة القحط, وشح الطعام, وانقطاع التموين, حيث ذكر ذلك أيضاً ناصر خسرو[3] عندما حج في السنة التي بعدها ٤٣٩هـ/١٠٤٦م, ووصف الأوضاع بمكة فقال:" وصلنا مكة المكرمة في السادس من شهر ذي الحجة , عند باب الصفا , وقد أصاب مكة قحط أسود , حتى بيعت أربعُ قطع من الخبز بدينار نيسابوري , وخرج المجاورون من مكة بحثاً عن الطعام , ولم يأت الحاج من أي مكان". وقال: " بعد الفراغ من المناسك بقينا في مكة يومين فقط, وشاهدت كثيراً من الناس يتهافتون من شدة الجوع والحاج , وغادر مكة المكرمة كثيرٌ من الناس , وتفرقوا في البوادي والجبال بحثاً عما يسد الرمق" [4]

ومن أبرز المؤثرات السياسية على التموين الغذائي في مكة بتلك الفترة ما يقع أحياناً بين أشرافها وحكام الدول الإسلامية من خلافات سياسية

(١) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص١٦٣ ـ ١٦٤ ؛ نجم الدين ابن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٢٤.

(٢) رحلة ناصر خسرو ، ص٧٧ .

(٣) رحلة ناصر خسرو ، ص١٢٢ .

(٤) ناصر خسرو ، رحلة ناصر خسرو ، ص٧٧ .

تنعكس بعد ذلك سلباً على الحياة الاقتصادية في مكة , ومن ذلك ما جرى عقب قيام الشريف عيسى بن جعفر بقطع الخطبة للعبيديين, وتحويلها باسم العباسيين فقام العبيديون بفرض الحصار على مكة, وقطع الميرة عنها, وتكرر ذلك لأكثر من مرة، فغلت فيها الأسعار، وندر الطعام ، وأغلقت بعض الأسواق، وشحت المتاجر وانعدمت الأقوات فيها, مما تسبب بعد ذلك في انتشار المجاعة في مكة [1].

وسبقت الإشارة إلى طوق الحصار الذي فرضته الدولة العبيدية على مكة عندما خرج أبو الفتوح عن طاعتهم سنة ٤٠١هـ/١٠١٠م حيث شرع العبيديون في عزل مكة عن بقية العالم الإسلامي، وأصدروا قراراً للتجار والحجاج من رعاياهم يقضي بمنع السفر إليها براً وبحراً، ثم قاموا بقطع المعونات الغذائية الواردة من مصر عنها[2].

وعندما قطع أبو هاشم الخطبة للعبيديين سنة ٤٥٨هـ/١٠٦٥م غضب الحاكم العبيدي المستنصر من تصرفه هذا, فقرر آنذاك قطع الميرة عن مكة , بعد أن سمح للصليحي بالتوجه إليها وتأديب أميرها [3].

ومما يؤثر على الوضع الاقتصادي ونقص التموين اللازم لمكة فشل بعض حكامها في إدارة شؤونها الداخلية حيث ينتج عن ذلك خلافٌ سياسي يؤثر في النهاية على الوضع الاقتصادي فيها , كما كان عليه الوضع في الفترة التي تلت وفاة أمير مكة شكر بن أبي الفتوح حيث تصدى الأشراف من بني

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص٢٤٣ ؛ ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٧٩ ؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج١، ص٢٣٨ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤١٣.

(٢) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٩٠ .

(٣) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج٤، ص١٣٢ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٧٠ .

الطيب لعبد شكر طراد بن أحمد الذي تولى من بعده, وأزاحوه عن الإمارة, ثم لم يوفق بنو الطيب في حكم مكة وأساؤا استخدام نفوذهم فيها وقاموا بفرض قيودٍ مالية وضرائب عالية على التجار والحجاج القادمين إلى مكة, مما كان له الأثر الواضح في تردي الأحوال المعيشية للأهالي, فانتشر في طرقتها اللصوص، وتعرضت مكة تحت حكمهم لهزة اقتصادية انعدمت معها الأقوات، ووجد الناس صعوبة في توفير الغذاء [1].

وكان للخلافات السياسية التي تحتدم بين الأشراف أنفسهم بسبب النزاع على الإمارة في مكة دورٌ كبير في التأثير على اقتصادها, ونقص المؤن فيها, وكساد أسواقها, وتعطيل النشاط التجاري فيها, ومن أبرز ما يمكن أن نستشهد به في هذا, ما قام به الشريف أبو هاشم عندما دخل في صراعٍ طويلٍ على طلب الإمارة مع بني الطيب الذين انقلبوا على حكمه سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٣م حيث خرج أبو هاشم من مكة إلى ينبع, وجمع حوله الأنصار, ثم رجع ليشدد الحصار على مكة, وقطع عنها المؤن التي تصلها عن طريق البحر والبر, ومنع التجار من تزويد أهالها بالأقوات حتى يضيق الخناق على بني الطيب المغتصبين للإمارة على حد وصفه لهم[2].

وكان للجيوش التي قامت الدولة العباسية ببعثها إلى مكة لتثبيت نفوذها دورٌ في زعزعة الاقتصاد المكي, حيث كانت تلك الجيوش تشتبك مع المعارضين للدولة العباسية داخل مكة, فيحدث بذلك تدهور في الاقتصاد وصعوبة في توفير الغذاء.

---

(١) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٩٠.

(٢) نجم الدين ابن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٦٩ ـ ٤٧٠ ؛ الطبري، الأرج المسكي، ص١١٥.

وقد وصف الإدريسي (١) الحالة الاقتصادية لمكة في الفترة التي غلب فيها النفوذ العباسي، وتحدث عن فقر أرضها ونقص الغذاء فيها وحاجتها للتموين فقال: "...لا زرع بها ولا حنطة إلا ما جلب إليها من سائر البلاد ... والغالب على ضعفاء أهلها الجوع وسوء الحال".

أثر الحالة الأمنية على نشاط التجار في إمارة مكة :

يعد موسم الحج فرصةً لأهل مكة للتبادل التجاري مع غيرهم ممن يفد إليهم من الحجاج والتجار المحملين بالبضائع والسلع المختلفة، حيث تزخر مكة بالعديد من التجار المحليين، الذين يسهمون بدورهم في إنماء الحياة الاقتصادية لبلادهم، ويسعون جاهدين لإقامة الأسواق والمتاجر والحرص على استجلاب البضائع، واستيراد السلع التي يحتاجها السكان(٢)، وكان هؤلاء التجار يمارسون التجارة كمهنة أساسية والبعض الأخر يمارسها كمهنة مكملة بجانب ما يمارسه من مهن أخرى (١).

ويفد إلى مكة أيضاً العديد من التجار القادمين من عدة أقاليم، حيث جاء في وثائق الجنيزا (١) ذكر اشتراك التجار وأرباب الحرف والعلماء في

---

(١) نزهة المشتاق ، ج٢ ، ص ١٤١.

(٢) محمد حسن العمادي: التجارة وطرقها في الجزيرة العربية، ص ٥٦.

(١) أحمد الشريف : المرجع السابق ، ص ٣٩١.

(١) وثائق خطية تم العثور عليها في معبد اليهود في الفسطاط في مصر وهي عبارة عن خطابات بعثت من عدن وجدة وغيرهما من موانئ البحر الأحمر، وكذلك من موانئ الهند إلى مدينة الفسطاط بمصر، ويرجع تاريخها إلى الفترة مابين القرنين الرابع والسابع للهجرة وبلغ مجموعها أكثر من ربع مليون ورقة كتب معظمها باللغة العربية وبحروف عبرية وتحتوي على وثائق قانونية وعقود بيع وعقود زواج وطلاق واتفاقات شركات ووصايا وهبات وغيرها وقد تم تهريب الكثير منها خارج مصر إلى مكتبات في الغرب وأمريكا ونشر بعضها وبعضها لم ينشر. (عطية القوصي تجارة مصر في البحر الأحمر، ص ١١٤،١١٥؛ محمد حسين الحارثي، الثغور البحرية، ص٢٤١).

القوافل المتوجهة إلى مكة لأداء فريضة الحج. وتوضح لنا هذه الوثائق بصورة مفصلة نشاط بعض التجار الوافدين إلى مكة. وتذكر أن منهم من يتاجر لنفسه ومنهم من يقدم بتجارة لغيره والبعض الأخر منهم يكون وكيلاً لتاجر أو عدد من التجار [1].

وقد ساهم المجاورن في إنعاش النشاط التجاري داخل مكة خصوصاً في القرنين الرابع والخامس الهجريين ,حيث يعد الدافع الاقتصادي من الدوافع المشجعة على المجاورة في مكة، وعندما نتتبع سير بعض المجاورين في مكة نلحظ أثرهم الكبير في الحياة الاقتصادية ، حيث مارس عددٌ كبيرٌ منهم التجارة فيها[2]، ومن هؤلاء أحمد بن خالد بن عبد الله الجذامي[3] الذي قصد مكة للعلم والتجارة[4]، وأحمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي[5] الذي جمع بين طلب العلم وممارسة التجارة[6] في مكة،

---

(١) عطية القوصي . تجارة مصر في البحر الأحمر . ص ١١٤.

(٢) خيرية محمد آل سنة ، الحياة العلمية في مكة خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين ، ص١٣ .

(٣) أحد العلماء البارزين في الحديث والفقه، وكان شاعراً وأديباً، قدم إلى مكة، وكان له مجلس علمي، ومنه سمع بعض طلبة العلم فيها . توفي سنة ٣٨٨هـ/٩٩٨م . (ياقوت الحموي، معجم الأدباء، " المسمى " إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب " . ط١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١١هـ / ١٩٩١م، ج٤، ص٢٥٠ ؛ الفاسي، العقد الثمين، ج٤، ص٥٦٨).

(٤) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج٤، ص٢٥٠ ؛ الفاسي، العقد الثمين، ج٤، ص٥٦٨ .

(٥) أحد من تعانى التجارة، وأكثر الترحال لاجلها، وكان أحد العلماء الأثبات، حدث بمكة وبغداد، ثم استوطن مصر . وتوفي سنة ٣٩٤هـ/١٠٠٤م . (الذهبي، سير أعلام النبلاء . مجموعة من المحققين، إشراف، شعيب الأرناؤوط، بيروت : ط٧، مؤسسة الرسالة، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م ، ج١٦، ص٥٦٢ . ٥٦٣) .

(٦) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٦، ص٥٦٢ .

والحسن بن عبد الرحمن الحسن العباسي[١] وكان ممن يبيع الحنطة في أسواق مكة ولذا فقد لقب بالحنّاط[٢].

ولا يعني هذا أن النشاط التجاري في مكة وتوافد التجار عليها ظل مزدهراً على مر السنين, فمكة كغيرها من سائر البلدان قد تتعرض لفترات كساد اقتصادي ولأسباب متعددة, كالفتن والأزمات الخانقة التي تنتج عن الحروب والحصارات, كما أن كثيراً من التحولات السياسية التي تعرضت لها مكة أثناء فترة الصراع العباسي العبيدي عليها حال دون الازدهار الاقتصادي فيها, حيث يترتب على تلك التحولات السياسية اضطراب في الحالة الأمنية قد يؤثر بدوره على الحالة الاقتصادية لمكة , مما يضطر التجار فيها في بعض الأحيان إلى إغلاق متاجرهم, والكف عن مزاولة التجارة لمدة قد تقصر أو تطول، كما يتعرقل وصول بعض القوافل التجارية بسبب ما تواجهه من مصاعب تعترض لها في طريق قدومها إلى مكة، في حين يحجم البعض من التجار عن القدوم حفاظاً على أموالهم وأرواحهم، مما يؤثر سلباً على حركة البيع والشراء في أسواق مكة [٣].

---

(١) عالم بارز في علم الحديث، سمع على عدد من العلماء، ومنه استفاد كثير من طلبة العلم بعد أن أصبح مسند علم الحديث في الحجاز . توفي ٤٧٤هـ/١٠٨١م . (الفاسي، العقد الثمين، ج٤، ص٨٤) .

(٢) الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام (حوادث ٤٧١ ـ ٤٨١هـ). تحقيق : د . عبد السلام تدمري . ط١، دار الكتاب العربي، بيروت ١٤١١هـ/١٩٩٠م، ص٦٨ ؛ العبر في خبر من غبر . تحقيق : محمد السعيد بن بسيوني زغلول . ط١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ج٢، ص٣٣١ ؛ الفاسي، العقد الثمين، ج٤، ص٨٤ .

(٣) بندر الهمزاني، علاقات مكة الخارجية في عهد أسرة الهواشم، ص٢٨٥ .

وقد يكون للفتن التي تحصل بمكة في تلك الفترة دورٌ كبيرٌ في التأثير على نشاط التجار داخل مكة, كما حدث سنة ٤١٣هـ/١٠٢٢م, عندما علم أهالي مكة بتورط العبيديين بحادثة محاولة التعرض للحجر الأسود, فقاموا بتتبع الحجاج والتجار المصريين والمغاربة يقتلونهم ويسلبون أموالهم رداً على قيام العبيديين بذلك الفعل الشنيع[١]

وقد ساهم أمراء مكة من الأشراف في تلك الفترة بمضايقة التجار, والاعتداء عليهم, ونهب أموالهم, والحد من نشاطهم, والدليل على ذلك ما حدث في سنة ٤٠١هـ/١٠١٠م, عندما خرج أبو الفتوح أمير مكة على سلطان العبيديين, ولم يجد الأموال اللازمة لدعم خروجه, فشرع في نهب أموال الكعبة, كما قام بالاستيلاء على أموال أحد التجار في جدة[٢].

كما قام أبو هاشم سنة ٤٨٦هـ/١٠٩٣م بالترصد للتجار القادمين من الشام , وطمع بما يحملونه معهم من أموال وسلع , وانتظر خروجهم من مكة, ثم بعث خلفهم بعض الرجال من حراسه وجنده فلحقوا بهم, وقاموا باعتراضهم ونهب أموالهم ومتاعهم ورواحلهم، وساقوها إلى أبي هاشم، ولم يفد توسلهم لأبي هاشم وإلحاحهم عليه في ردّ ما أُخذ منهم [٢].

ومن المعوقات التي حدت من توافد التجار على مكة, ما يحصل من توتر في العلاقات بين حكامها من الأشراف وحكام الدول الكبرى من حولهم, حيث يقوم هؤلاء الحكام باتخاذ عدة إجراءات لتأديب أمير مكة, من ضمنها منع التجار من التوجه إليها , كما حدث سنة ٤٣٩هـ/١٠٥٧م، وسنة

---

(١) العمري، مسالك الأبصار، ج٢٤، ص٣٩ ـ ٤٠ .

(٢) ابن الجوزي: المنتظم، ج ٧، ص ١٦٤.

(٣) نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٨٦ ـ ٤٨٧ .

٤٤٠هـ/١٠٥٨م عندما أصدر الحاكم العبيدي سجلاً قرئ على الناس في مصر يمنع بموجبه الحجاج والتجار من التوجه إلى مكة[١].

ومن ذلك أيضاً ما قام به علي بن محمد الصليحي عندما تدهورت العلاقة بينه وبين شريف مكة محمد بن أبي هاشم, فقام بمنع الحجاج والتجار القادمين من اليمن من التوجه إلى مكة، فانقطعت بذلك السلع والبضائع بانقطاع الحجاج والتجار اليمنيين, ويذكر المقريزي(٢) أن غياب التجار اليمنيين عن مكة يعني انتشار الغلاء فيها ونقص بعض المتاجر واشتداد الأمر على الأهالي.

ويبرز دور عبيد مكة في إعاقة النشاط التجاري فيها ومضايقة التجار والاعتداء عليهم في مواقف عدة , فكثيراً ما تجند هذه الفئة من قبل بعض الأشراف في مكة, وذلك للهجوم على التجار ونهب أموالهم وبضائعهم التي يحملونها، ومن ذلك ما قاموا به سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م عندما دفعهم الأمير هاشم بن فليته للهجوم على التجار العراقيين، وسلب ما معهم من أموال[٣]. و قد ازداد خطر هؤلاء العبيد على التجار في عهد الأمير قاسم بن هاشم فامتد أذاهم هذه المرة، وبتحريض منه، ليطال التجار القادمين من مصر والشام وغيرهم [٤]. كما قام العبيد أيضاً بمضايقة الحجاج والتجار العراقيين والهجوم عليهم سنة ٥٥٦هـ/١١٦٠م، واستولوا على ما يقرب من ألف جمل، كما قاموا بمصادرة بضائعهم التي يحملونها [٥]

---

(١) ناصر خسرو، رحلة ناصر خسرو، ص١١٩ ـ ١٢٣ .

(٢) المقريزي، السلوك، ج٢، ص ٦٦.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٢٣٥ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٥٠٨ .

(٤) عمارة اليمني، النكت العصرية، ص١٢٣ ؛ الفاسي، العقد الثمين، ج٥، ص٤٦٠ .

(٥) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٨٠ ؛ الفاسي، شفاء الغرام، ج٢، ص٣٦٥ ـ ٣٦٦ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٢٢٥ .

ـ أثر الحالة الأمنية على المعابر التجارية لإمارة مكة :

ارتبط النشاط التجاري في مكة ارتباطاً وثيقاً بالطرق البرية والبحرية التي تصلها بالأقاليم الأخرى، كما لعبت الطرق التجارية الداخلية التي تربط مدن الحجاز وقراه بعضها ببعض دوراً كبيراً في تسهيل انتقال قوافل التجار المحملة بالبضائع والسلع, وأصبح لها دورٌ كبير في سهولة تنقلات التجار وسرعة وصولهم إلى الأسواق في المدن والقرى الحجازية(١).

وكان العرب منذ القدم يهتمون بأمن الطرق وحراسة القوافل المتجهة إلى مكة والخارجة منها, وخصوصاً إذا ما كانت تلك القوافل تحمل البضائع والسلع الثمينة , وكانت الحراسة تُسند للأقوياء من الرجال الذين يحملون الأسلحة لإرهاب اللصوص وقطاع الطريق المتخفين في مجاهل الطرق والمنتشرين في الفيافي والقفار ، كما كانت رئاسة القوافل تُسند لأصحاب النفوذ المعروف عنهم الحزم والشدة وحدة الذكاء والإلمام بمسالك الطريق(٢) .

ويعد اللصوص وقطاع الطرق من الأعراب من أهم المشكلات التي تقف حجر عثرة أمام أمن وسلامة المعابر التجارية التي تربط مكة بغيرها من الأقاليم, وقد واجهت تجارة مكة في القرنين الرابع والخامس الهجريين الكثير من المصاعب بسبب أولئك المعتدين, حيث نشطوا في تحركاتهم وكثفوا من هجماتهم المتلاحقة على الحجاج والتجار , ويعزوا البعض ذلك لضعف الخلافة العباسية وانشغالها بأمورها الداخلية وعدم الاهتمام

---

(١) علي بن حسين السليمان، النشاط التجاري في شبه الجزيرة العربية ، ص ٤٩ .

(٢) جواد علي, المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت: ط ١, دار العلم للملايين١٩٧١م,ج٧ ، ص٣٢٢.

بتأمين الطرق وإقامة المشاريع الإصلاحية عليها, كما كان عليه العهد مع الخلفاء العباسيين الأوائل[1]

وفي الحقيقة أن مصاعب الطريق, واعتداءات الأعراب على قوافل الحجاج والتجار, لم يكن وليد فترة التنافس بين العباسيين والعبيديين على مكة, غير أن هجماتهم واعتداءاتهم قد زادت حدة على ما كانت عليه قبل ذلك, مستغلين انشغال الدولتين بالصراع فيما بينهما لمد النفوذ على بلاد الحجاز, وصرفهم النظر عن الاهتمام بأمن وسلامة الحجاج, وشملت اعتداءات اللصوص وقطاع الطرق في هذه الفترة المعابر البرية والبحرية على حد سواء.

وكان للفتن والخلافات المحتدمة بين العباسيين والعبيديين في تلك الفترة دورٌ كبيرٌ في توقف قدوم الحجاج من العراق وبلدان المشرق الإسلامي لسنوات عديدة كان من أبرزها ذلك الانقطاع المتواصل للحجاج والتجار القادمين من العراق والمشرق الإسلامي والذي امتد من سنة ٤١٦هـ/١٠٢٥م حتى سنة ٤٥٤هـ/١٠٦٢م، بحيث انقطعت قافلة الحج القادمة من العراق في هذه السنوات، ولم يحج أحد من أهل هذه الأقاليم إلا عددٌ قليل وصل إلى مكة في بعض السنوات بعد جهد ومشقة[2].

كما تعطلت المعابر البرية الموصلة إلى مكة من العراق لمدة حوالي تسع سنوات من سني العقد الثامن من القرن الرابع الهجري [3].

---

(١) محمد حسن العمادي: التجارة وطرقها في الجزيرة العربية، ص ٤٤.

(٢) نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٥٤ ـ ٤٦٧ ؛ الجزيري، الدرر الفرائد المنظمة، ج١، ص٥٤٤ ـ ٥٤٨ .

(٣) الفاسي، شفاء الغرام، ج٢، ص٣٥٤ .

ولم يقتصر تأخرُ الحجاج والتجار عن القدوم إلى مكة على القادمين من العراق والمشرق فقط، بل تعدى ذلك في سنة ٣٨٤هـ/٩٩٤م ليشمل الحجاج والتجار من بلاد الشام ومصر واليمن، وذلك كله بسبب اختلال الأمن على الطرق المؤدية من هذه الأقاليم إلى مكة [١].

وعندما تتوتر العلاقات بين العبيديين وأشراف مكة فإنه يمتد أثرُ ذلك التوتر ليطول المعابر التجارية لمكة, وذلك ما حصل عندما ساءت العلاقة بين أبي الفتوح والحاكم بأمر الله العبيدي عقب استقلاله بالحجاز وإعلان نفسه خليفة على المسلمين, فقامت الدولة العبيدية باتخاذ عدة إجراءات لإفشال حركته، ومن أهمها حصار مكة اقتصادياً وذلك بإغلاق جميع المعابر البرية والبحرية لمنع الإمدادات الغذائية والعسكرية، وكل ما يستطيع أن يتقوى به أبو الفتوح لتثبيت سلطته وإنجاح مخططه [٢]، وهذا ما أدى ـ دون شك ـ إلى تأثر الاقتصاد في مكة حينذاك، وتأزم الأوضاع المعيشية فيها.

و في القرن الرابع الهجري قام جماعة من الأعراب بشن هجوم خاطف على ميناء الجار، وفاجئوا أهله بالقتل والسلب، فكان من نتيجة ذلك الاعتداء أن ضعفت الأهمية الاقتصادية لهذا الميناء وتعطلت فيه الحركة التجارية ففقدت مكة كثيراً من السلع التي كانت ترد إليها عبر ذلك الميناء[٣].

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص٣٧١ ؛ ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص١٦٥ ؛ الفاسي، شفاء الغرام، ج٢، ص٣٥٢ .

(٢) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٩٠ .

(٣) سليمان عبد الغني، مرافق الحج والخدمات المدنية للحجاج . الرياض : دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٠٨هـ/١٩٩٨م، ص٩٠.

وشكل القراصنة خطراً كبيراً على حركة نقل البضائع والسلع في البحر الأحمر, حيث زاد نشاطهم في هذه الفترة، مدفوعين من قِبل بعض القوى، فدأبوا على مصادرة البضائع والأموال، وأسر الرجال، وبيعهم في سوق الرقيق، رغم حرص الدولة العبيدية على بذل الجهود المتعددة لحراسة السفن التجارية في البحر الأحمر، وحماية التجار، من أجل تأمين حركة التجارة عبر هذا البحر [1].

إضافة إلى ذلك ما قام به الأمير قاسم بن أبي هاشم سنة ٥١٢هـ/١١١٨م عندما سير جنوده لنهب التجار في ميناء عيذاب، و كان لذلك الاعتداء نتائج سلبية على الاقتصاد في مكة حيث انقطعت البضائع والسلع المصرية، بعد أن أصدر الوزير المصري بدر الدين الجمالي قراراً يقضي بقطع المعونات والإمدادات الغذائية عن مكة، مما أدى إلى تردي الوضع الاقتصادي فيها [2].

ـ أثر الحالة الأمنية على الموارد المالية لإمارة مكة :

عندما استقل الأشراف بحكم مكة سنة ٣٥٨هـ/٩٦٨م لم يكن لديهم خطة واضحة المعالم فيما يخص الترتيبات الإدارية والمالية, وكانوا في هذه الفترة يعتمدون اعتمادا شبه كلي في مصادر دخلهم على ما يصلهم من الدولتين العباسية والعبيدية , حيث كان العباسيون والعبيديون يتنافسون فيما بينهم في بعث الأموال والهدايا والأعطيات لأشراف مكة وذلك من أجل

(١) القلقشندي، صبح الإعشى، ج٣، ص٥٩٧ ؛ عطية القوصي، تجارة مصر في البحر الأحمر، ص٩٩، ١٢٩ ـ ١٣٠ .

(٢) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٥٨ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٩٧؛ الجزيري، درر الفرائد المنظمة، ج١، ص٥٥٨ .

كسب ودهم وولاءهم السياسي والفوز بإقامة الدعوة باسمهم على منابر مكة .

وكان الأشراف يعتمدون على هذه الأعطيات والأموال في تصريف شؤون حياتهم الخاصة والعامة, ويدركون أهميتها الملحة لهم[(١)], وهو ما انعكس على ولاءهم السياسي تجاه الدولتين العباسية والعبيدية, فأصبح سريع التحول والتذبذب ومتعلق بالمال, فمن يدفع أكثر يضمن لنفسه بسط النفوذ وإعلان اسمه على منابر مكة.

وخير شاهد على هذه الحالة ما كان ينهجه أمير مكة الشريف أبو هاشم حيث لم تمر مكة بفترة تقلب سياسي وسرعة تذبذب في الولاء منذ استقلالها مثلما مرت به في عهد إمارة الشريف أبي هاشم , حتى وصفه البعض بكثرة التلون[(٢)] , وكان أبو هاشم بتلونه هذا يتبع مصالحه الشخصية, حيث يدرك يقيناً ما تعانيه مكة من قلة في الموارد الطبيعية وأنه بتصرفه هذا سوف يضمن لنفسه دخلاً مالياً كبيراً, قد لا يتوفر له إن هو بقي على سياسية ثابتة في الولاء لإحدى الدولتين[(٣)], ومن أبرز الأمثلة التي تثبت ما ذكرناه سابقاً ما قام به أبو هاشم سنة ٤٦٢هـ/١٠٦٩م عندما انقطعت الأموال التي تصل من مصر إلى مكة, فقام بإرسال بعض رجاله إلى الدولة العباسية يخبرهم أنه على أتم الاستعداد لإقامة الخطبة لهم بمكة وإسقاطها عن العبيديين , فما كان من العباسيين إلا أن باركوا تلك

---

(١) صالح الضويحي , الحياة الاقتصادية والاجتماعية في بلاد الحجاز في الفترة (٤٠٢ ـ ٥٥٧هـ) , (رسالة ماجستير) ,الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية , كلية العلوم الاجتماعية , قسم التاريخ والحضارة ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م,ص١٢١.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٤، ص٦٢.

(٣) أحمد الزيلعي، علاقات مكة الخارجية، ص٧٤ .

الخطوة وشرعوا في إرسال الهدايا والأموال لأبي هاشم, حيث دفعوا له ثلاثين ألف دينار وخلع نفيسة ومرتب سنوي يقدر بعشرة الآف دينار, ثم لم يلبث أبو هاشم بعدما تعافت مصر من أزمتها المالية أن قطع الخطبة للعباسين وأعادها للعبيديين, وذلك سنة ٤٦٧هـ /١٠٧٤م, حيث طلب المستنصر العبيدي منه ذلك بعدما بعث له الهدايا والأموال من مصر[١]

كما ساهم الأشراف في ركود الحالة الاقتصادية أيضاً؛ حيث قاموا بنهب كثير من الأموال التي كان التجار يرسلونها من أجل خدمة المرافق العامة بمكة [٢]، ومن ذلك ما قام به أبو الفتوح بعد إعلان ثورته واستقلاله عن الدولة العبيدية، حيث قام بأخذ أموال الكعبة وسلب ما فيها من مقتنيات ثمينة وضربها دنانير وسماها باسمه [٣], وكذلك ما قام بنو الطيب أثناء احتدام المشاكل السياسية بينهم وبين الشريف أبي هاشم حيث كانت مخصصات الكعبة عرضة لنهبهم, وذلك عندما قرروا الهروب من مكة [٤].

وعندما تأخرت مصر عن إرسال المعونات المالية لمكة قام أبو هاشم بالاعتداء على الكعبة وأخذ القناديل المعلقة بها وقلع صفائح الباب ثم ضربها دراهم ودنانير ليستفيد منها بتسيير شؤون إمارته[٥]

---

(١) نجم الدين بن فهد , اتحاف الورى , ج٢ , ص ٤٣٦،٤٣٧.

(٢) سليمان عبد الغني، مرافق الحج، ص٦٦ .

(٣) البكري، المسالك والممالك، ج١، ص٣٧٠ ؛ الفاسي، العقد الثمين، ج٤، ص٧٧؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٣٧.

(٤) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج٤، ص١٣٢؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٢٦٩.

(٥) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٨، ص٦٢ ؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٩٥.

ولم يكتف الأشراف بسلب المال العام المخصص للمرافق العامة في مكة, ونهب مخصصات الكعبة المهداة إليها، وأخذ أموال التجار بالقوة وتعطيل النشاط التجاري ، وإنما قاموا أيضاً بفرض المكوس [١]على القادمين إلى مكة من التجار والحجاج، فضلاً عن السلع التي تدخل إليها عن طريق البر والبحر, وقد رتب الأشراف لهذا الغرض موظفين مختصّين يقومون بحصر البضائع الواردة إلى الأسواق المكية، ثم القيام بتقرير الضرائب اللازمة عليها، ومطالبة التجار بها [٢]. وشكلت هذه المكوس عائداً كبيراً وموردا مالياً مهماً للأشراف لا يمكن الاستغناء عنها[٣].

---

(١) المكس، الجباية أو الضريبة، وجمعها، مكوس . وهي ما يؤخذ من أموال على بائعي السلع في الأسواق، أو التجار الذين يدخلون البلد . (ابن منظور، لسان العرب، ج٦، ص٢٢٠). أما عن ظهور المكوس فإننا فلا يعلم تاريخاً معيناً يحدد تاريخ ظهورها فهذه المسألة يكتنفها بعض الغموض. غير أن هناك إشارة صحيحة تدل على أن جباية المكوس من الحجاج قد بدأت في سنة ٣٢٧هـ/٩٣٨م، وأن أول مكس في الإسلام هو ذلك المكس الذي فرضه القرامطة على الحجاج العراقيين في هذه السنة, حيث بعث أمير الحاج العراقي أبو علي يحيى بن عمرو العلوي كتاباً إلى أبي طاهر القرمطي يطلب منه إخلاء سبيل الحجاج العراقيين الذين كانوا محتجزين عنده مقابل أن يدفع له مكساً معيناً يكون رسماً على أهل العراق في كل سنة يدفعونه إليه, وحدد هذا المكس حيث أصبح القرمطي يأخذ على كل جمل خمسة دنانير وعلى المحمل سبعة, ثم ما لبث أن زاد هذا المبلغ، فأصبحت قوافل الحج والتجارة القادمة من العراق أسيرة لهذه المكوس، حيث كان لزاماً عليها دفع المبالغ المالية للأعراب الذين بدءوا يحاكون القرامطة بطريقتهم فكثر شرهم وطلبهم المتزايد على تلك الضريبة. (ابن الجوزي، المنتظم، ج١٣، ص٣٧٨ ؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٣، ص٢٦٤ ؛ الجزيري، الدرر الفرائد، ج١، ص٥١٨) .

(٢) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٩٨ .

(٣) سليمان عبدالغني، بلاد الحجاز، ص٧٠.

ومما يلحظ أن هذه المكوس التي دأب على فرضها حكام مكة من الأشراف قد تعلقت أيضاً بسياستهم تجاه كل من العبيديين والعباسيين، واصطبغت بها، فحينما يقفون في صف العبيديين ويقيمون الخطبة لهم فإنهم في هذه الحالة لا يأخذون المكوس من رعاياهم، وعكس ذلك عندما تكون الدعوة في مكة للعباسيين.

وأول من بدأ هذه السياسة الشريف جعفر بن محمد، حيث قام بقطع الخطبة للعبيديين سنة ٣٦٧هـ/٩٧٧م، وفرض على الحجاج المصريين المكوس مما دفع الحاكم العبيدي العزيز أن يقوم بإرسال حملة عسكرية إلى الحجاز بقيادة باديس بن زيري لإقرار الأوضاع في مكة [(١)].

ثم أخذ أشراف مكة ممن جاء بعد أبي هاشم ينهجون سياسته في فرض هذه المكوس، حيث قام الشريف داؤود بن عبد الرحمن الحسني بفرض المكوس على التجار القادمين إلى مكة عام ٤٠٢هـ/١٠١١م [(٢)]. ولما دخل علي بن محمد الصليحي مكة سنة ٤٥٥هـ/١٠٦٣م، قام برفع المظالم ومن أبرز ذلك إلغاء ما كان مفروضاً من مكوس على الحجاج والتجار في مكة [(٣)].

أما الشريف أبو هاشم فقد اتخذ من المكوس سلاحاً بيده يهدد بها القوى المتنافسة عند تقصيرها في إرسال المعونات إليه[(٤)]. غير أن هناك من حكام

---

(١) نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج ٢، ص٤١٦ .

(٢) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج٤، ص١٣١.

(٣) الكامل في التاريخ، ج٨، ص٩٦ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٦٩ ؛ ٥١٠ ؛ يحيى بن الحسين، أنباء أبناء الزمن، ق٤٠ ؛ عبد المنعم ماجد، السجلات المستنصرية، ص٣٧ .

(٤) سليمان عبدالغني، بلاد الحجاز، ص٧٠.

مكة من الأشراف من تورع عن أخذ المكوس، كفليته بن القاسم الذي حرص على إقرار الأمن في مكة ورعاية مصالح الحجاج والتجار فيها [1].

وعلى أية حال فقد ظل أمراء مكة بعد فليته بن القاسم يفرضون المكوس على الحجاج حتى وصل الأمر بأمير مكة هاشم بن فليته أن قام بتحريض الأعراب من قطاع الطريق ليقوموا باعتراض الحجاج، وإجبارهم على دفع الأموال مقابل دخول مكة[2].

أما عن طريقة جباية المكوس من الحجاج والتجار فقد كانت تؤخذ من المغاربة عن طريق ميناء عيذاب، ومن تأخر عن دفعها في عيذاب فإنه يدفعها في جدة، وكان مقدار هذا المكس ثمانية دنانير تؤخذ على كل حاج مغربي[3]، وقيل سبعة دنانير مصرية ونصف على كل إنسان[4]. أما الحجاج والتجار القادمين من العراق والمشرق الإسلامي, فدأبوا على جمع المال المقرر عليهم دفعه قبل الشروع في مسيرهم إلى مكة، حتى يسلم إلى أميرها حال دخولهم إليها تفادياً لمضايقتهم [5].

وكان الأشراف لا يتهاونون مع أي شخص يتقاعس عن دفع المكس المقرر ومن يتباطأ عن دفعه فإنه يتعرض للسجن والتعذيب، وربما مصادرة أمواله في كثير من الأحيان، حتى لو كان ذلك الرجل لا يملك قيمة المكس،

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣١٤ ؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٢٢٦ .

(٢) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص٧٧ ـ ٧٨ ؛ ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٢٧ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٥١١ ـ ٥١٢ .

(٣) الإدريسي، نزهة المشتاق ، ج١، ص١٣٥ ؛ ابن المجاور، المستبصر، ص٤٨ .

(٤) الجزيري، الدرر الفرائد المنظمة، ج١، ص٥٧٢.

(٥) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٢٧ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٥١١ ـ ٥١٢ .

وحصل بهذا أن مُنع عددٌ كبيرٌ من حجاج بيت الله الحرام من الدخول إلى مكة، ومُنع بعضهم من الوقوف بعرفة نتيجة عدم دفعهم لتلك الضريبة[1].

واستمرت سياسة فرض المكوس قائمةً حتى سنة ٥٧٠هـ/١٠٧٧م، حيث قام السلطان صلاح الدين الأيوبي بإلغائها وبدلاً من ذلك قام بتعويض أمير مكة ألفي دينار، وألفي أردب قمحاً، وإقطاعات بصعيد مصر وجهة اليمن، وقيل أنه عوضه عن ذلك بثمانية آلاف أردب قمحاً، تُحمل إليه كل عام، إضافة إلى ذلك فقد قام بإرسال الأموال والأُعطيات إلى المجاورين والفقراء في مكة [2]، وقد ذكر ذلك الرحالة ابن جبير[3]، حيث قال: "... ولولا ما تلافى الله به المسلمين في هذه الجهات بصلاح الدين لكانوا من الظلم في أمر لا ينادى وليده، ولا يلين شديدة، فإنه رفع ضرائب المكوس عن الحاج، وجعل عوض ذلك مالاً وطعاماً يأمر بتوصيلها إلى مكثر أمير مكة... والذي جعل له صلاح الدين بدلاً من مكس الحاج ألفا دينار إثنان، وألفا أردب من القمح وهو نحو الثمانمائة قفيز بالكيل الاشبيلي عندنا، حاشا إقطاعات أقطعها بصعيد مصر وبجهة اليمن لهم بهذا الرسم المذكور...".

□

(١) الإدريسي، نزهة المشتاق، ج١، ص١٣٥ ؛ ابن المجاور، تاريخ المستبصر، ص٤٨ـ٤٩ .

(٢) الأصفهاني، البرق الشامي، ص١٠٥ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٥٣٩ .

(٣) ابن جبير، الرحلة، ص٥٤ـ٥٥ .

الفصل الرابع

الآثار الدينية والاجتماعية

المبحث الأول: الآثار الدينية.

- أثر الحالة الأمنية على الحج.
- أثر الحالة الأمنية على حرمة المقدسات الدينية في مكة .
- أثر الحالة الأمنية على الصبغة الدينية للكعبة وإمارة الحج.
- دور الحالة الأمنية في النزاع الطائفي داخل إمارة مكة.
- دور الحالة الأمنية في تفشي البدع والخرافات داخل إمارة مكة.

المبحث الثاني: الآثار الاجتماعية.

- أثر الحالة الأمنية على التركيبة السكانية للمجتمع المكي.
- أثر الحالة الأمنية في عادات وتقاليد المجتمع المكي.
- أثر الحالة الأمنية على المنشآت العمرانية في مكة .

المبحث الأول: الآثار الدينية.

كان العرب منذ القدم يتوجهون إلى مكة من أقطار شتى داخل الجزيرة العربية وخارجها، مشاة وركباناً، رجالاً ونساءً، ليقوموا بتأدية نسكهم، ويوفوا ما عليهم من نذور. ومع أنهم كانوا في ذلك الزمن يعيشون في جاهلية، إلا أنهم كانوا يدركون حرمة البيت، ويعظمونه ويعلون من مكانته في قلوبهم، كما لا يصدون أحداً من قاصديه من الدخول إليه، والطواف فيه.

وعندما جاءت رسالة الإسلام الخالدة، وبعد فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة، عُززت مكانة البيت الحرام، بعد أن أكدت تعاليم الإسلام على حرمته، وقدسيته. حيث وفد المسلمون إلى مكة من أنحاء المعمورة، مع اختلاف ألسنتهم، وتعدد أجناسهم، وتباين مشاربهم وثقافاتهم، وذلك تلبية لنداء الله سبحانه وتعالى عندما أمر خليله إبراهيم عليه السلام برفع الآذان بالحج فقال تعالى: وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ [١].

---

(١) سورة الحج ، الآيات ٢٧ . ٢٩ .

وكان هذا الأمر استجابة من الله لدعاء نبيه إبراهيم عليه السلام عندما قال: رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾ (١)

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم شديد الحرص على ضرورة حقن الدماء فيه، وحفظ أمنه. وقد استمر ذلك طلية عهد الخلفاء الراشدين، ومع تغير الأحوال السياسية واضطرابها في العالم الإسلامي فيما بعد أدى ذلك إلى نشوب نزاعات متعددة بين المسلمين، وامتدت تلك النزاعات إلى مكة، فكان من نتائج ذلك أن انتهكت حرمتها في أغلب المواقف ، ولم تراع قدسيتها في كثير من الأحوال، ووصلت نتائج الأمر فيما بعد إلى صد حجاج بيت الله الحرام من دخول مكة، أو منع الطواف في البيت، أو إعاقة الحجاج عن تأدية مناسكهم في المشاعر المقدسة، وفي كثير من الأحوال يطال الحجاج اعتداءات على أنفسهم وممتلكاتهم عبر الطريق الذي يسلكونه متجهين إلى مكة كما يُضيَّق عليهم ويحاصرون أحياناً حتى يفوتهم بذلك الحج ، وهذا ما لم يعهد بهذا الحجم سابقاً في تاريخ البلد الحرام.

---

(١) سورة إبراهيم، آية ٣٧ .

وعندما بدأ التنافس بين الدول الإسلامية الكبرى على بسط نفوذها على بلاد الحجاز، والفوز بإعلان اسمها على منابر الحرمين ، بدأ فصل جديد من الأحداث المأسوية التي طالت حجاج بيت الله الحرام، وقد بلغت هذه الأحداث ذروتها أثناء التنافس بين العباسيين والعبيديين على مكة، وكان لذلك انعكاسات سلبية على كثير من الجوانب الدينية في مكة، وسوف نحاول فيما يلي إلقاء الضوء على ما خلفه هذا التنافس بين العباسيين والعبيديين على الجانب الديني في مكة.

ـ أثر الحالة الأمنية على الحج.

شهد التنافس الشديد بين العباسيين والعبيديين على مد النفوذ في مكة الكثير من الآثار المتعلقة بالحج، منها ما هو خارج حدود مكة، ومنها ما هو في داخل إطارها الجغرافي. فمن الآثار التي خلفها هذا التنافس الذي ولد صراعاً حاداً بين هذه القوى ما نراه من تورع الخلفاء العباسيين والحكام العبيديين على حد سواء عن التوجه إلى مكة في تلك الفترة لأداء فريضة الحج، ولعل السبب في ذلك راجع إلى الصراع العنيف فيما بينهم وتبادل السيطرة على بلاد الحجاز وما أحدثه ذلك من كثرة الغارات والفتن والاغتيالات التي كان من شأنها أن تجعل أولئك الخلفاء والحكام يحجمون عن التوجه إلى مكة حتى لا يتعرضوا للأذى[١] .

فقد ورد عن الحاكم العبيدي المستنصر بالله أنه كان يركب النجب في كل سنة من يوم عرفة ومعه النساء والحشم وتحيط به الجيوش من كل مكان كأنه خارج للحج [٢] . وما هذه البدعة إلا دليل قوي على خوف الحكام

---

(١) أحمد الزيلعي، مكة وعلاقاتها الخارجية، ص١٠٨.

(٢) ابن ميسر، المنتقى، ص١٣ .

العبيديين من التوجه إلى مكة، وذلك لإدراكهم صعوبة الأمر، وخطورة الوضع فيها، في ظل الانفلات الأمني الذي تعيشه، وخوفاً على حياتهم من الأخطار التي تحيط بهم إن هم قصدوا مكة للحج، خصوصاً وهو يعلمون مدى حجم التواجد العباسي الممثل بأنصارهم في مكة ، ورغبتهم في تقويض سلطانهم . فاستبدلوا الذهاب الفعلي إلى مكة لآداء فريضة الحج بالخروج إلى مكان قريب وآمن بنية الحج.

كما انفرد المقدسي بذكر حادثة ـ لا يجزم بصحتها[١]ـ عن الخليفة العباسي المتوكل على الله حيث ذكر أن مجموعة من الأمراء طلبوا من الخليفة العباسي المتوكل على الله (٢٣٢ ـ ٢٤٧هـ/٨٤٦ ـ ٨٦١م) أن يقوم بالتوجه معهم إلى الحج فما كان منه إلا أن توجه بهم إلى سامراء؛ حيث قام ببناء كعبة له بذلك المكان، كما قام بتحديد مكان آخر سماه عرفات ، وأمر الناس أن يحجوا إليه، وعندما عوتب على ذلك احتج بما يلاقيه الحجاج أثناء مسيرهم متوجهين إلى مكة، وذكر أن هذا المكان يقوم مقام البيت الحرام[٢]..!!

ولم يقتصر ذلك الإحجام في التوجه إلى مكة وأداء فريضة الحج على الحكام والخلفاء بل تبعهم في ذلك بعض العامة من الناس في كثير من الأمصار الإسلامية وذلك عندما وجدوا صعوبة في التوجه إلى مكة لأداء فريضة الحج في ظل احتدام الصراع بين العباسيين والعبيديين حيث أصبحوا يقومون بالاتجاه إلى أماكن أخرى؛ ليعوضون بذلك انقطاع

---

(١) لا أعتقد شخصياً بصحة هذه الراوية وإنما اوردتها للدلالة على ماخلفه انعدام الأمن بمكة والفتن التي انعكس أثرها على شعيرة الحج .

(٢) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص٦٨ . نقلاً عن أحمد الزيلعي، مكة وعلاقاتها الخارجية، ص١١١.

حجهم[1]. ثم ما لبثت هذه الأماكن أن اكتسبت قداسة في نفوسهم، وأصبحت الزيارة لها بنظرهم تعادل حجة[2]. حيث يذكر عمارة اليمني ـ وهو ممن عاصر فترة الدراسة ـ أن أهل اليمن كانوا يزورون مسجد الجند، الذي اختطه الصحابي الجليل معاذ بن جبل رضي الله عنه، وكانوا يعظمونه حتى أطلق على زيارته لفظ (الحج)، يقول عمارة [3]: "ولم يزل أهل تلك الآفاق يزورونه في كل سنة حتى كثر ذلك، فصار موسماً من مواسم الحج، ومنسكاً للعامة، وإذا كان لبعضهم على بعض حق، قال: أمهلني حتى ينقضي الحج، وما يعنون إلا زيارة الجند".

وقد انتشر ذلك الابتداع في القرنين الرابع والخامس الهجريين / العاشر والحادي عشر الميلاديين[4] وتسبب في فرض العزلة التامة على بلاد الحجاز وذلك لانقطاع الحجاج عن التوجه إليه[5] وفوز تلك الأماكن المبتدعة بأكبر نصيب من الحجاج اللذين كانوا يقصدونه[6].

وكثيراً ما كنت القوى المتنافسة تستغل موسم الحج لرفع شعاراتها السياسية والترويج لأفكارها ومعتقداتها عبر خطبهم التي يلقونها في المواسم، كما كانت معظم الثورات العلوية قبل ذلك تنظم وقت خروجها في مواسم الحج من أجل استغلال الموسم إعلاميا بإلقاء الخطب والشعارات التي تؤكد أحقيتها بالخلافة ومن أجل كسب تأييد أكبر عدد ممكن من

---

(١) أحمد الزيلعي، مكة وعلاقاتها الخارجية، ص١١٠.

(٢) أحمد الزيلعي، مكة وعلاقاتها الخارجية، ص١١١.

(٣) المفيد في أخبار صنعاء وزبيد، ص٤١ .

(٤) أحمد الزيلعي، مكة وعلاقاتها الخارجية، ص١١٠.

(٥) صبحي عبدالمنعم، العلاقات بين مصر والحجاز، ص ٢٦٦.

(٦) أحمد الزيلعي، مكة وعلاقاتها الخارجية، ص١١١.

الناس ، وكذلك تسهيل فرصة اختبائهم وسط جموع الحجيج في حال أن اكتشف أمرهم[1].

وقد فطنت كل من الدولتين العباسية والعبيدية لأهمية الدور الإعلامي للحج لتحسين صورتيهما عند الحجاج فكانوا يحاولون استماله الحجيج إلى صفوفهم بإلقاء خطبهم التي تحمل بين طياتها أبرز قرارتهم السياسية ويبذلون الأموال من أجل ذلك [2].

ومما يؤسف له أن أقحمت شعيرة الحج في معمعة الصراع بين القوى المتنافسة، حيث نجد أن القوة التي تفرض سيادتها على مكة تسعى للتأثير على سيادة القوة الأخرى بمنع رعاياها من تأدية مناسك الحج، ومن ذلك ما فعلته الدولة العبيدية عندما قام الحاكم بأمر الله بالضغط على شكر بن أبي الفتوح لمنع الحجاج العراقيين من دخول مكة، وتأدية مناسك حجهم. وكانت قبل ذلك قد أوعزت إلى والده أبي الفتوح بمثل هذا، غير أنه رفض هذا الطلب، رغم تبعيته حينها للدولة العبيدية [3].

وكان انعدام الأمن في مكة في كثير من الأحيان إبان فترة النزاع سبباً في منع الحجاج من التوجه إلى مكة خوفاً على أرواحهم، في ظل عدم القدرة على تأمين الحماية الكافية لهم، ومن ذلك - مثلاً - ما حدث سنتي (٤٣٩هـ - ٤٤٠هـ/١٠٤٧ - ١٠٤٨م) عندما أصدر الحاكم العبيدي المستنصر بالله بياناً قرئ على الناس في مصر يأمر فيه بعدم الذهاب إلى الحج، محتجاً بالقحط الشديد الذي عم بلاد

---

(١) خالد الخالدي ، تنظيمات الحج ، ص ٢٩٩.

(٢) خالد الخالدي ، تنظيمات الحج ، ص٣٣٦- ٣٣٨ .

(٣) نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٢٤ ؛ أحمد السباعي، تاريخ مكة، ج١، ص١٨١ - ١٨٢ ؛ أحمد الزيلعي، مكة و علاقات الخارجية، ص٥٩ - ٦٠ .

الحجاز حينذاك، وهلك بسببه خلق كثير، واكتفى بإرسال كسوة الكعبة، وبمعيتها مخصصات الأمراء والخدم[1]. ومن المؤكد أن القحط لم يكن السبب الوحيد في خوفه على المصريين، حيث كان لعدم استقرار الأوضاع الأمنية في مكة، ووجود فريق معارض للعبيديين أثر في إصدار قراره هذا ، كما أشرنا إلى ذلك سابقا.

وقد تكون الخلافات السياسية التي تنشب في بعض الأحيان بين أمراء مكة وغيرهم من ملوك وحكام الدول الإسلامية سبباً في قيام ذلك الملك أو الحاكم بمنع رعايا دولته من التوجه إلى مكة فينعكس ذلك الإجراء على شعيرة الحج ، ومن ذلك ما قام به علي بن محمد الصليحي من منع أهل اليمن من التوجه إلى مكة [2]، عقب النزاع الذي نشب بينه وبين أبي هاشم محمد بن جعفر أمير مكة، بسبب تعدي الأخير على الأراضي الخاضعة لسيطرة الصليحي في اليمن.

ومما أعاق وصول الحجاج إلى مكة وأداء فريضة الحج تلك السياسة التي انتهجها بعض أمراء مكة والقاضية بفرض رسوم على القادمين إليها، وقد تعلقت جباية هذه الرسوم بسياستهم تجاه كل من القوتين العباسية والعبيدية واصطبغت بها، حيث كان رعايا الدولة المسيطرة على الوضع في مكة تعفى من دفع هذه الرسوم، في حين يقر فرضها على رعايا الدولة الأخرى. ومن ذلك - على سبيل المثال - ما حدث سنة ٣٦٧هـ/٩٧٧م عندما قام الشريف عيسى بن جعفر بن محمد بقطع الخطبة للعبيديين وفرض رسوماً على

---

(١) ناصر خسرو، رحلة ناصر خسرو، ص١١٩ - ١٢٣ .

(٢) الفاسي، شفاء الغرام، ج٢، ص٣١١ .

الحجاج المصريين[1]، والعكس يحدث عندما تبسط الدولة العبيدية نفوذها على مكة فيعفى رعاياها أو من يقدم من أرضها من دفع الرسوم كما حدث مع الرحالة الفارسي ناصر خسرو أثناء توجهه إلى مكة لأداء فريضة الحج قادماً من مصر سنة ٤٤١هـ/١٠٤٩م وعندما وصل إلى جدة قابل أمير مكة شكر بن أبي الفتوح فأكرم وفادته وأعفاه من دفع الضريبة، يقول ناصر خسرو [2] "ولقد زرت هذا الأمير ، ورأيت منه ألواناً من كرم الوفادة ، وقد أعفاني من دفع الرسوم الجمركية التي تؤخذ عادة من الحجاج في ميناء جدة ...".

الجدير بالذكر أن أمراء مكة كانوا يعينون جباة على الطرقات وفي المنافذ الخاصة بإمارة مكة، يفرضون على الحجاج المارين مبالغ باهظة يلتزمون بدفعها [3]، وإذا صادف أن وجد رجل ليس معه قيمة الرسم المقرر فإنه يسجن، ويتعرض لأنواع من الإهانة والتعذيب[4]، حتى لو كان ذلك الحاج لا يملك المال ، وقد نتج عن ذلك منع عدد كبير من حجاج بيت الله الحرام من الدخول إلى مكة كما منع بعضهم من الوقوف بعرفة نتيجة عدم دفعهم هذه الرسوم[5]. فينتج عن ذلك إحجام الناس من التوجه إلى مكة لأداء فريضة الحج لعدم توفر المال اللازم الذي يدفع لأمير مكة.

ومن جانب آخر وبعد انعدام الأمن على طرق الحج بسبب انشغال القوى الإسلامية بالتنافس فيما بينها أصبحت هذه الطرق مرتعاً لمعظم قبائل الأعراب التي تمارس الإغارة والسلب والنهب ضد الحجاج المارِّين عبر

---

(١) الفاسي، العقد الثمين، ج٦ ، ص٤٥٨ .

(٢) ناصر خسرو، رحلة ناصر خسرو، ص١٣٥.

(٣) المقريزي، اتعاظ الحنفاء، ج٢، ص٩٠ .

(٤) أحمد الزيلعي، مكة وعلاقاتها الخارجية، ص ١٦٨

(٥) الفاسي، العقد الثمين، ج٢، ص ٣٦٨.

طريقهم، ويعيقونهم من الوصول إلى مكة لأداء فريضة الحج، وقد تفرض عليهم رسوماً يدفعونها مقابل السماح لهم بالوصول إلى مكة، ومن ذلك ـ مثلا ـ خروج بني سليم المتكرر على الحجاج مستغلين موقعهم في الطريق بين مكة والمدينة، فكانوا كثيراً ما يسلبون الحجاج، رغم ما بذلته الدولة العباسية من جهد لتأديبهم [1]. وكذلك قبيلة بني هلال التي دأبت على بث الرعب والفزع في نفوس الحجاج القادمين إلى مكة، خاصة العابرين لطرق الحج العراقية، حيث تكرر خروجهم على هؤلاء الحجاج، وانتهاك حرمتهم، ومن أبرز ذلك ما حدث منهم سنة ٣٦١هـ/٩٧١م عندما سفكوا دماء أغلب الحجاج القادمين من العراق وخراسان في هذه السنة [2].

وسبقت الإشارة إلى استخدام الدول المتنافسة على النفوذ في مكة لأولئك الأعراب وتسليطهم على الحجاج ـ في بعض الأحيان ـ وجعلهم سلاحاً يستخدمونه ضد بعضهم البعض، خاصة الدولة العبيدية، ومن ذلك ما قامت به هذه الدولة سنة ٣٦٣هـ/٩٧٣م عندما حرّضت بني هلال للقيام باعتراض حجاج الدولة العباسيين القادمين من العراق، يقول ابن فهد مبيناً ذلك في حوادث هذه السنة [3]: "وفيها سلط المعز صاحب مصر والمغرب بني هلال وغيرهم من العرب على الركب العراقي، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وضاق الوقت، وبطل الحاج ...".

---

(١) تاريخ ابن خلدون، ج٦، ص٩٤ ؛ عطية إبراهيم، الحياة الاقتصادية والاجتماعية، ص٢٤٦ .

(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٤، ص٦٢ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٠٩ ؛ السنجاري، منائح الكرم، ج٢، ص٤٠٨ .

(٣) نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤١٠.

إضافة لما يتعرض له الحجاج من الخطر على أرواحهم، فإنهم يتحملون عبئاً أخر متمثلاً بدفع رسوم طائلة لبعض زعماء الأعراب ممن يتكفل بخفارتهم وحماية أرواحهم وممتلكاتهم أثناء سيرهم إلى الحج، في وقت انشغلت الدول الكبرى عن تأمين طرق الحج ورعاية الحجاج بالتنافس على فرض السيطرة على بلاد الحجاز، وسبق الحديث عن ممارسات زعيم بني الجراح المفرج بن دغفل وتضييقه على الحجاج في بعض السنوات ومطالبتهم بدفع الأموال مقابل أن يجتازوا أراضيه إلى مكة (١). إضافة إلى ذلك ما كان يتحمله الحجاج القادمون عبر طرق الحج العراقية من دفع ضرائب باهظة ومتكررة للأصيفر الأعرابي مقابل تأمين الطريق لهم وحمايتهم من خطر القرامطة المتربصين بهم (٢).

ومن المعوقات التي وقفت حجر عثرة في طريق الحجاج ما كان يقوم به بعض الأعراب من تخريب طرق الحج لإنهاك الحجاج ليتمكنوا من تحقيق أغراضهم في ممارسة السلب والنهب، وقد تميزت بذلك قبيلة بني خفاجة حيث عمدوا إلى حرمان الحجاج من الاستفادة من موارد المياه على طريق الحج العراقي، سواء بردم الآبار والبرك، أو بوضع الحنظل فيها كما سبق ومر بنا , فضلاً عن إحراق ما تحتاجه دواب الحجاج من أعلاف وغيرها (٣).

---

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٤، ص٢٠٠ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج ٢، ص٤٢٤، ٤٣٧ ؛ الجزيري، الدرر الفرائد، ج١، ص٥٢٩ .

(٢) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص٣٦٩ . ٣٧٠ ؛ ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص١٦٥ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٢١ ؛ الجزيري، الدرر الفرائد، ج١، ص٥٢٩ . ٥٣٠ .

(٣) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص٨٥ ، ٩٠ ؛ ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٢٦٤ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٤١ . ٤٤٢ .

ومع ما يعانيه الحجاج من صعوبات جمة أثناء سيرهم إلى مكة فإنهم لم يسلموا من الخطر بعد وصولهم إلى مكة، فكانوا عرضة لابتزاز اللصوص الموجودين داخل مكة، ومن ذلك ما جرى لقافلة الحج المصرية سنة ٣٦٧هـ/٩٧٧م عندما ساوم هؤلاء اللصوص قائد القافلة على الامتناع عن سرقة الحجاج خلال الموسم مقابل خمسين ألف درهم تدفع لهم [١].

وقد ترتب على أخطار الطريق التي نتجت ـ بطريق أو بأخر ـ عن الصراع بين العباسيين والعبيديين على النفوذ في مكة انقطاع الحج لسنوات متواصلة، خاصة الحجاج القادمين من بلاد العراق وخراسان، فكثيراً ما نطالع في كتب التاريخ المختلفة عبارة "ولم يحج أحد من العراق في هذا العام"، وكذلك عبارة "ولم يحج أحد إلا متخفراً من الأعراب"، أو "انقطع الحج بسبب مصاعب الطريق"[٢]، وغيرها من العبارات التي تصور لنا معاناة أولئك الحجاج عند سلوكهم طريق الحج قاصدين بيت الله الحرام.

من جهة أخرى فقد أصبح لزاماً على الحجاج ـ أيضاً ـ أن يصطحبوا مع قوافلهم الحرس والجنود حتى تحفظها من أي اعتداء محتمل قد يقع عليها[٣].

وبات على أمير الحج أن يقوم بحماية الحجاج اللذين معه ويدفع عنهم الشرور التي يتعرضون لها في طريق سيرهم، ويكون ذلك إما بقتال من يعترضهم، أو بدفع الأموال لهم وإبعاد خطرهم[٤].

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٩٣ ؛ الفاسي، شفاء الغرام، ج٢، ص٣٥٤ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج ٢، ص٤١٦ .

(٢) انظر ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، في صفحات متفرقة؛ الجزيري: الدرر الفرائد، ج١، في صفحات متفرقة.

(٣) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص٩٤ ؛ صبحي عبدالمنعم: العلاقات بين مصر والحجاز، ص٢٦٦ .

(٤) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص٩٤ ؛ خالد الخالدي، تنظيمات الحج، ص١٠٧ .

وكان لبعض الأشراف من حكام مكة أثر في التضييق على الحجاج كما سبق وأن وضحنا ذلك حيث كان هؤلاء الأشراف يطمعون بأموال الحجاج، وينهبونها من ذلك ما قام به أبو هاشم محمد بن جعفر سنة ٤٨٦هـ/٩٩٦م عندما بعث بعض أتباعه لمصادرة حجاج الشام عند عودتهم إلى بلادهم [١]. وكذلك ما قام به الأمير هاشم بن فليتة سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م عندما ضيق عسكره على الحجاج العراقيين في المسجد الحرام أثناء الطواف بإيعاز منه، وقاموا بنهب أموالهم [٢].

ولا نستبعد أن تصرفات الأشراف المخلة بأمن الحج وعرقلة الحجاج قد شجعت بعض القبائل المحيطة بمكة إلى دخولها في مواسم الحج، والاعتداء على الحجاج، والتضييق عليهم , ومن ذلك ما قام به بنو شعبة, عندما أنزلوا الأذى بجميع الحجاج في مكة عن طريق قطع الماء عنهم في مكة والمشاعر المقدسة [٣].

ونتيجة للتضييق المتكرر على الحجاج وهجوم بعض القبائل على المشاعر المقدسة فقد تعذر عليهم في بعض السنوات المبيت في منى يوم التروية فأصبحوا يتجاوزونها إلى عرفات، كما كانوا يتعجلون العودة إلى مكة من منى [٤].

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٦٨ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٨٦ ـ ٤٨٧ .

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٢٣٥ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٥٠٨ ؛ أحمد السباعي، تاريخ مكة، ج١، ص٢٣٨ .

(٣) ابن جبير، الرحلة، ص١٠٢ .

(٤) ابن جبير، الرحلة، ص١٥٠ ؛ التجيبي، مستفاد الرحلة والاغتراب . تحقيق، عبد الحفيظ منصور، تونس : ١٣٩٥هـ، ص٤٦٨ ؛ أحمد الزيلعي، مكة وعلاقاتها الخارجية، ص: ١٠٨.

وخلاصة القول أنه كان من الصعوبة بمكان التوجه إلى مكة في تلك الفترة لإقامة فريضة الحج؛ حيث الأخطار التي كانت تحيط بطرق الحج والقبائل التي تتربص بالحجاج كانت كفيلة بجعل السواد الأعظم من المسلمين يترددون في الخروج إلى مكة حتى لا يتعرضوا للأخطار كما تعرض لها غيرهم من الحجاج.

- أثر الحالة الأمنية على حرمة المقدسات الدينية في مكة.

تمخض الصراع الطويل بين العباسيين والعبيديين للسيطرة على بلاد الحجاز عن وجود أحداث وفتن عظيمة، كان لها أثر بالغ على الأوضاع الدينية في مكة؛ حيث بلغ ذلك الصراع حد انتهاك حرمة المسجد الحرام، وإثارة الفوضى العامة في مكة، وبث الرعب في نفوس ساكنيها ومن جاء إليها من حجاج البيت الحرام. ولعل أبرز دليل على ذلك ما قام به أمير الجيوش العراقي[1] سنة ٥١٠هـ/١١١٦م، وذلك عندما دخل مكة المكرمة التي كانت خاضعة في ذلك الوقت للعبيديين بالرايات والطبول والأبواق[2].

وكانت طريقة دخوله إلى البيت الحرام تنم عن استكبار منه وتعالي وعدم اهتمام بقدسية البيت الحرام , وعندما قام أحد العلماء بمعاتبته على فعله ذلك ذكر أنه يريد إذلال أمير مكة قاسم بن محمد ومن معه من العبيد الذين يوالون العبيديين[3]!!.

---

(١) وهو يُمن الخادم الحبشي المستظهري حج بالناس سنة ٥٠٨هـ , ٥٠٩هـ , ٥١٠هـ , وله أفعال قبيحة بالمسجد الحرام . (ابن الجوزي , المنتظم , ج١٧, ص١٤٦)..

(٢) الجزيري، الدرر الفرائد، ج١، ص٥٥٧.

(٣) محمد العوفي، العلاقات السياسية ، ص: ٢٢٢.

كما ظهر في مكة من يدعُ إلى الحط من مكانة الصحابة رضوان الله عليهم، والاستهتار بالقرآن الكريم، والتشريعات الدينية داخل مكة، وأبرز مثال على ذلك ما أحدثه هادي المستجيش من فتنة في مكة وكادت دعوته تنتشر لولا أن قيض الله بعض الغيورين على الدين من العلماء والمجاورين الذين هبوا للتصدي لها حتى دحض الله بهم الباطل، وانتهت هذه الدعوة بمقتل صاحبها [1].

وعندما زار ابن الجوزي مكة حاجاً سنة ٥٥٣هـ/١١٥٨م استنكر على بعض سكانها عدم احترام قدسية المكان، فقال [2]: "...وقد رأيت من قلة ساكني البلد للبيت عجائب وما ذلك إلا أني رأيته بعين الهيبة ورأوه بعين المادة،... فسبحان من أسكن حرمه مثل أولئك حتى أن منهم من يأخذ المكس على رؤوس الحجاج". كما تطرق إلى ما كان يقوم به عبيد الأشراف من عدم احترام للبيت الحرام والمصلين فيه، ومضايقتهم للحجاج، فقال [3]: "ورأيت من عبيد مكة من استلاب الأموال وقلة الاحترام للمكان ما أزعجني ومن عجائب ما رأيت أنهم كانوا يمشون بين يدي الخطيب يوم الجمعة بمقارع تضرب على غفلة تزعج المكان والناس فأنكرت هذا. فقيل لي: هذا هو شعارهم. فقلت: بئس الشعار، هذا مكان يجب احترامه عن رفع الأصوات، والآذان يكفي".

وقد وصلت الاستهانة بحرمة البيت الحرام أن بعض سدنته قد جاوزوا حدودهم في انتهاك قدسيته, وانتشرت أفعالهم بين الناس في الأقاليم الإسلامية فأنكروا عليهم، ومن بين الذين أنكروا تلك الأفعال الشاعر

---

(١) الفاسي، العقد الثمين، ج٧، ص٣٥٥ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج١، ص٤٤٥ ـ ٤٤٦، الجزيري، الدرر الفرائد، ج١، ص٥٤١ .

(٢) نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٥٢٠ ، نقلاً عن ابن الجوزي في كتاب صيد الخاطر .

(٣) نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٥٢٠ .

المعـروف أبـو العلاء المعـري (ت٤٤٩هـ/١٠٥٧م) ، الذي بيّن في إحـدى قصائـده وصول التحلل الأخلاقي لبعض الناس في مكة [(١)].

ولم تسلم الكعبة المشرفة من التعدي على حرمتها وسلب مخصصاتها، وكان كثيراً ما يقوم بهذا العمل حكام مكة أنفسهم، ومن ذلك ما قام به أبو الفتوح الحسن بن جعفر عندما نهب أموال الكعبة وأطواق الذهب والفضة المعلقة بها [(٢)]. كما قام بنو الطيب السليمانيون بالاعتداء على حرمة الكعبة، وسلب ما فيها من أموال، إضافة لتجريدها من كسوتها، قبل أن يلجئوا إلى بلاد اليمن إثر هزيمتهم من قبل أبي هاشم محمد بن جعفر الذي انقلب على حكمهم [(٣)].

ولم يجد البعض من أشراف مكة مخرجاً لبعض الأزمات التي تمر بها بلادهم إلا بالاعتداء على حرمة الكعبة وسلب مخصصاتها، وهذا ما قام به الأمير أبو هاشم محمد بن جعفر عندما تعرضت مكة لأزمة اقتصادية بسبب إحجام العبيديين عن إرسال المعونات إلى بلاد الحجاز [(٤)].

وقد تعمد إحدى القوتين المتنافستين على النفوذ في مكة إلى انتهاك حرمة الكعبة الشريفة وذلك من أجل إحراج الطرف الأخر المسيطر على الوضع في مكة آنذاك. ويؤكد هذا ما قامت به الدولة العبيدية سنة ٣٦٣هـ/٩٧٣م عندما دفعت بعض الرجال للقيام بالاعتداء على الكعبة وضرب الحجر الأسود، لزعزعة الأمن

---

(١) أبو العلاء المعري، لزوم ما لا يلزم . بيروت : ١٩٦١م، م١، ص٧٣.

(٢) البكري، المسالك والممالك، ج١، ص٣٧٠ ؛ الفاسي، العقد الثمين، ج٤، ص٧٧؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٣٧ ؛ الجزيري، درر الفرائد، ج ١، ص٥٣٧ .

(٣) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج٤، ص١٣٢؛ المقريزي، اتعاظ الحنفاء، ج٢، ص٢٦٩؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٦٨ .

(٤) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٦٢ ؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٩٥؛ العصامي، سمط النجوم العوالي، ج٤، ص٢١٤ ـ ٢١٥ .

والاستقرار، وإحراج الدولة العباسية المسيطرة على مقاليد الأمور في مكة حينذاك[1].

وسبقت الإشارة إلى تورط العبيديين في محاولة تحطيم الحجر الأسود وزعزعة أمن المسجد الحرام على الرغم من بسط نفوذهم على مكة في ذلك الوقت حيث تشير بعض المصادر إلى تورط الحاكم بأمر الله العبيدي في تلك المحاولة بعدما قام بإرسال أحد الملاحدة وأمده ببعض الفرسان لحمايته ليقوم بذلك الفعل [2]. ويزول هذا الاستغراب إذا ما علمنا أن الحاكم بأمر الله العبيدي كان قد أمر أبا الفتوح قبل ذلك التاريخ بنبش قبر الرسول صلى الله عليه وسلم لنقله إلى مصر[3]، وكذلك سب بعض الصحابة وأمهات المؤمنين علناً على المنابر [4].

وإذا صحت هذه الروايات فانظر إلى آثار تلك الفتن التي أوصلت مكانة البيت العتيق في نفوس كثير من الناس آنذاك إلى أدنى درجات الاستهانة به، فباتوا يتساهلون في تعظيمه وتقديسه، حتى أصبح أهل الجاهلية —وهم مشركون- أكثر تعظيماً للبيت من بعض من ينتمي لملة الدين الإسلامي, وكان ذلك مصداقاً لقول الرسول ﷺ: فيما رواه عنه أبو هريرة رضي الله عنه: "يبايع للرجل بين الركن والمقام ولن يستحل هذا البيت إلا

---

(١) نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤١٠ ؛ السنجاري، منائح الكرم، ج٢، ص٢٠٤ ؛ سعيد عثمان، عبد المنعم الجميعي، الاعتداءات على الحرمين الشريفين، ص٥٥.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص١٥ ؛ الجزيري، الدرر الفرائد، ج١، ص٥٤٢ ؛ السنجاري، منائح الكرم، ج٢، ص٢١٥ .

(٣) القلقشندي، مآثر الإنافة، ج١، ص٣٢٧ . ٣٢٨ ؛ الفاسي، العقد الثمين، ج٤، ص٧٧ . ٧٨؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٢٦ . ٤٢٧ .

(٤) البكري، المسالك والممالك، ج١،ص ٣٩٦ . ٣٩٧ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٣١ .

أهله فإذا استحلوه فلا تسأل عن هلكة العرب ثم تجيء الحبشة فيخربونه خرابا لا يعمر بعده أبدا وهم الذين يستخرجون كنزه" [1].

ـ أثر الحالة الأمنية على الصبغة الدينية للكعبة وإمارة الحج[2].

لعبت كسوة الكعبة دوراً مهماً في فترة التنافس العباسي العبيدي على مكة، فبعد أن كانت الكسوة رمزاً دينياً أصبحت القوى المتنافسة تستخدمها دليلا على سيادتها على مكة، وإثبات شرعية خلافتها على العالم الإسلامي، واكتسبت الكسوة بذلك دوراً سياسياً لا يقل عن دور الخطبة وإن كان ذلك بنطاق أضيق , وكان من نتيجة ذلك أن أصبحت كسوة الكعبة معرضة للتبديل والنزع في فترات تاريخية متعددة خلال فترة التنافس بين العباسيين والعبيديين على مكة، ومما يؤكد أنها أصبحت خلال هذه الحقبة التاريخية رمزاً سياسياً له اعتباره لدى هذه القوى ما حصل سنة ٣٨١هـ/٩٩١م بعدما تمكن العبيديون من إعادة نفوذهم على مكة , حيث أرسل الحاكم العبيدي العزيز بالله كسوة الكعبة ومعها أموالاً لأبي الفتوح ليتولى توزيعها

---

(١) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق، محب الدين الخطيب، بيروت: دار المعرفة، (د . ت)، ج٣، ٤٦١ .

(٢) إحدى الولايات الدينية الخاصة , وتكون من اختصاصات الإمام نفسه , أو من ينوب عنه , وهي منصب يتولى صاحبه مسئولية تسيير الحجاج في الطريق ذهاباً وإياباً وقيادة موكبهم في مكة المكرمة , والمشاعر المقدسة , أثناء موسم الحج , وهي على نوعين ١- أن تكون على تسيير الحجيج وتعرف بـ(إمرة الركب) , ٢- أن تكون على إقامة الحج للناس وتعرف بـ(إمرة الموسم) , وقد يكون التفويض بإمرة الحج عاماً من دار الخلافة , فيكلف شخص واحد بكلا المهمتين أو تسند كل واحدة منهما إلى شخص فيكون هناك أميران أحدهما للركب والأخر للموسم . (الماوردي , الأحكام السلطانية, ص١٠٨ ؛ خالد الخالدي , تنظيمات الحج , ص٤٠).

على الأشراف في مكة، فقام أبو الفتوح بتنفيذ أوامر الدولة العبيدية، فألبس الكعبة الكسوة العبيدية ، ووزع الأموال على أشراف مكة، ثم خطب فيهم قائلاً: "الحمد لله يا بني فاطمة الزهراء، وأصحاب السنة الغراء، على أن زين بيته بلبسة السرور (البياض) بعد لبسة الحزن (السواد) وجعل ملك الحرمين لبني بنت رسوله من بني الحسين وبني الحسن" [1]. وعندما فرض العباسيون نفوذهم على مكة سنة ٤٦٣هـ/٩٧٣م، قاموا بتكليف أمير مكة أبي هاشم محمد بن جعفر بنزع كسوة العبيديين التي تحمل شعارهم، واستبدالها بالكسوة العباسية، فاستجاب لهم، وأعقب ذلك بخطبة قال فيها: "الحمد لله الذي هدانا إلى أهل بيته بالرأي المصيب، وعوض بيته بلبسة الشباب بعد لبسة المشيب، وأمال قلوبنا إلى الطاعة، ومتابعة إمام الجماعة"[2]. وهكذا نرى مدى تأثر تغيير الكسوة وتبديلها بالتغيرات السياسية التي تطرأ على مكة، كما نلحظ أن ألوان شعارات هذه الدولة غدت فرصة للأشراف في مدح أو ذم القوى المتنافسة على السلطة في مكة.

من جانب أخر فقد أصبح للهدايا التي تقدم إلى الكعبة في هذه الفترة دلالات سياسية واضحة يُهدف من تقديمها إحراز بعض الانتصارات السياسية، وكسب رضي المسلمين وتأييدهم، وإعطاء شرعية للدولة المسيطرة على مكة، ونلحظ ذلك جلياً في التسابق المحموم بين حكام الدولتين المتنافستين في وضع تطاريز وخطوط على تلك الهدايا التي يقدمونها إلى الكعبة من قناديل ومعاليق وغيرها تزين بأسمائهم، كما يقومون بحفر أسمائهم أيضا على باب الكعبة والميزاب والمقام

---

(١) العمري، مسالك الأبصار، ج٢٤ ؛ المقريزي، المقفى الكبير ج٢ ، ص ٢٣٢.

(٢) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج٤، ص١٣٣ .

وغيرها، من ذلك ـ على سبيل المثال ـ ما قام به الخليفة العباسي المطيع لله سنة ٣٥٩هـ/٩٦٩م عندما بعث بعشرة قناديل للكعبة، بعضها من الذهب، والبعض الأخر من الفضة، وعلقت هذه القناديل خمسة أيام على الكعبة حتى يراها الناس، فيقدرون له هذا العمل [١]. وعندما آلت السيطرة للعبيديين في مكة أرسل الحاكم العبيدي المعز بالله محاريب من ذهب وفضة منقوشاً عليها اسمه، ونصبت داخل الكعبة[٢]. كما قام المعز العبيدي بعمل شمسة بديعة علقها على قصره في القاهرة يوم عرفة ليشاهد الناس حسنها، ثم أرسلها إلى مكة لتعلق في وجه الكعبة [٣]، قال عنها المقريزي [٤]: "إن هذه الشمسة الباهظة التكاليف لا تقدر بثمن، وأن مساحتها تساوي أربعة أضعاف مساحة شمسة العباسيين، أو شمسة الإخشيديين".

وفي سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م أمر الخليفة العباسي المقتدي بالله بإزالة كل ما كان على الكعبة من هدايا وصفائح تحمل اسم الحكام العبيديين واستبدالها بصفائح من الذهب منقوشاً عليه اسمه[٥]. وكان الخليفة العباسي المقتدي بالله قبل ذلك قد أرسل إلى مكة منبراً نقش عليه اسمه، لكنه تعرض للتكسير والإحراق من جانب أنصار العبيديين ، ولعله تأخر في الوصول إلى مكة إلى ما بعد انحسار النفوذ العباسي، وبسط العبيديين نفوذهم عليها [٦].

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ج٦، ص٣٤٤ ؛ الأزدي، الدول المنقطعة، ص٢٤٧ .

(٢) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج١، ص٢٣٠ .

(٣) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج١، ص١٤٠ ـ ١٤١ .

(٤) الخطط المقريزية، ج٣، ص٣٨٥ .

(٥) ابن الجوزي، المنتظم، ج٩، ص٢٧ .

(٦) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٩٠ ؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص١٢٥؛ الفاسي، شفاء الغرام، ج٢، ص٣٦٣ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٧٩.

ومما سبق يتضح لنا أهمية الدور السياسي والدعائي الذي لعبته هدايا الكعبة المشرفة لإبراز اهتمام حكام الدولتين المتنافستين، ومحاولة كل منهما كسب ود واحترام المسلمين، وفي الحقيقة أنهم قصدوا من ذلك أن تكون هذه الهدايا دليلاً ملموساً على السيطرة الفعلية على مكة [1].

من جانب أخر ونتيجة للصراع بين القوتين العباسية والعبيدية وما خلفه من نتائج سلبية على استقرار الأمن وخاصة أمن طرق الحج فقد تحولت إمارة الحج من وظيفة دينية إلى وظيفة سياسية، بعد أن أصبح المُعيَّن على هذه الوظيفة لا بد أن يحمل مواصفات عسكرية تؤهله للتصدي للأخطار التي تتعرض لها قافلة الحج المتجهة إلى مكة من قبل اللصوص وقطاع الطرق. كما حتمت الظروف أن يكون هذا الأمير ذا حنكة سياسية تمكنه من إرساء قواعد الاستقرار السياسي في مكة لصالح الدولة المسيطرة ، وتساعده على تثبيت الخطبة فيها. ومن ذلك . على سبيل المثال . ما قامت به الدولة العبيدية عندما أرسلت القائد العسكري باديس بن زيري أميراً على الموسم، بعد أن دُعم بعدد كبير من الجنود يستطيع من خلالهم قمع الطامعين من قطاع الطرق، وتثبيت الخطبة للعبيديين في مكة وقمع أي تمرد يحصل في مكة ضدهم[2]. كما سار العباسيون على هذا النهج، فنجدهم . وفي أكثر

---

(١) خالد الخالدي، تنظيمات الحج ، ص٣٦١ .

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٩٣ ؛ الفاسي، شفاء الغرام، ج٢، ص٣٥٤ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج ٢، ص٤١٦ .

من مرة. يقومون بتعيين قائد عسكري على إمرة الحج[1]، من ذلك ما حدث في موسم سنة ٥٥٦هـ/١١٦٠م حينما بعثت بغداد القائد أرغش التركي أميراً على الحج إلى مكة، ومعه طائفة من الجنود، فقام بدخول مكة عنوة وعزل أميرها قاسم بن هاشم، وتولية عمه عيسى بن فليتة مكانه [2].

- دور الحالة الأمنية في النزاع الطائفي داخل إمارة مكة.

اشتدت حدة الصراع المذهبي في مكة على أثر اشتداد التنافس بين العباسيين والعبيديين فبدأت معالم معارضة علماء السنة للمد الشيعي في مكة تتضح معالمها أكثر من ذي قبل، وكان هذا الصراع يزداد قوة خصوصاً فيما يتعلق بأمور الدين، ومن ذلك ما حصل لسعيد بن سلامة المغربي[3] (ت٣٧٣هـ/٩٨٣م) من الضرب والتشهير به في مكة بسبب انتقاده لأمرائها من

---

(١) كان العباسيون في السابق وقبل هذه الفترة يولون إمرة الحج لرجل من البيت العباسي أو من الموالين لهم، ثم تغيرت سياستهم وخصوصا بعد ضعف دولتهم وسيطرة البويهيين على مقاليد الأمور في بغداد وازدياد خطر الأعراب على طرق الحج واشتداد المنافسة مع الدولة العبيدية، فأصبحوا يقلدون إمرة الحج لرجل من العلويين من أجل تسهيل عملية إقامة الخطبة لهم بمكة، وبعد انحسار النفوذ العبيدي عن مكة وضعف الدوله العبيدية غير العباسيون وللمرة الثالثة من سياستهم المتعلقة بإمرة الحج فأصبحوا يولونها لقائد تركي وانتهجوا بعد ذلك طريق القوة في إرساء نفوذهم بمكة. (سليمان الخرابشة ، التنافس السلجوقي الفاطمي على بلاد الحجاز وإمرة الحج . إربد : عمادة البحث العلمي والدراسات العليا ، جامعة اليرموك ، ١٩٩٩م ، ص٨٤ - ٨٦ ؛ خالد الخالدي . تنظيمات الحج . ص ٥٣ - ٦٢).

(٢) الفاسي، العقد الثمين، ج٧، ص٣٥ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٥٢٣ .

(٣) هو سعيد بن سالم أبو عثمان الزاهد، ولد بالقيروان في قرية يقال لها كركنت، وكان أوحد عصره في الورع والزهد والصبر على العزله . لقى الشيوخ بمصر، ثم دخل بلاد الشام وصحب أبا الخير الأقطع، وجاور بمكة سنين أكثر من عشر سنوات . وتوفى بنيسابور ليلة الأحد ودفن عشية يوم الرابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة. (الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج٩، ص١١٢) .

الأشراف، وقد ألجأه ذلك إلى التخفي وعدم الظهور إلا في المواسم فقط، حتى اضطر في النهاية بسبب هذا التضييق للخروج من مكة ، والتوجه إلى بغداد، ومنها إلى نيسابور [(١)]. وقد عبر عن وضعه السيء في مكة بقوله: "كان انقباضي بالحجاز، وانبساطي بخراسان"[(١)].

ونتيجة لذلك الصراع أيضاً فقد أصبحت مكة المكرمة محلاً للنزاع بين الفرق والطوائف المتعددة[(٢)] وكثر فيها الروافض بشكل كبير[(٣)] حتى أصبح للمذهب الشيعي انتشار واسع في بلاد الحجاز عامة وفي مكة على وجه الخصوص، وظهر له أنصار يحيطونه من كل جانب ويدافعون عنه[(٤)]

كما كان الحكام العبيديون يسعون جهدهم سراً وعلانية لنشر مذهبهم بين عامة الناس في مكة , حيث ذكر المقريزي أن المعز العبيدي حاكم مصر عمل على نشر المذهب الإسماعيلي بمكة ونادى بقطع صلاة التراويح سنة ٣٦٣هـ/٩٧٣م[(٥)].

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص٣٠٣ - ٣٠٤ ؛ الذهبي، تاريخ الإسلام (حوادث ٣٥١ - ٣٨٠هـ)، ص٥٣٩ ؛ سير أعلام النبلاء، ج١٦، ص٣٢٠ . و نيسابور ، مدينة عظيمة , ورد ذكرها في المصادر بأسماء عدة منها آبرشهر ,ايرانشهر , نيشابور , نشاور , وهي معدن الفضلاء ومنبع العلماء , وتشغل ربع خراسان وهي من أكبر أقاليمه , وتقع حالياً في الشمال الغربي من دولة إيران على حدود روسيا. (الحاكم , تاريخ نيسابور "طبقة شيوخ الحاكم" , تحقيق , مازن عبدالرحمن البيروتي , بيروت : ط١, دار البشائر الإسلامية ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م, ص٢ ؛ ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج٥ ، ص٣٣١).

(١) الفاسي، العقد الثمين، ج٤، ص٥٦٨ .

(٢) صبحي عبدالمنعم، العلاقات بين مصر والحجاز، ص٣٣٠.

(٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٥، ص١٠٩.

(٤) أحمد السباعي، تاريخ مكة، ص١٨٤.

(٥) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج١، ص١١٦.

وقد زاد المد الشيعي حدة في عهد الشريف محمد بن أبي هاشم وبالتالي زادت حدة الصراع بين أنصار المذهبين ، وكان أبو هاشم في كثير من المواقف يتعمد إشهار شعارات الشيعة وخصوصاً شعارهم المشهور بزيادة عبارة "حي على خير العمل" في الآذان ، وقد خضعت هذه العبارة المذهبية إلى التغيرات السياسية والاقتصادية التي تطرأ على مكة من وقت إلى أخر، فعندما يغلب النفوذ العبيدي على مكة، نجد هذه العبارة تتردد على مآذنها، والعكس عندما يسيطر العباسيون بنفوذهم حيث يسعون إلى حذف هذه العبارة ، كما حدث سنة ٤٦٤هـ/١٠٧١م عندما طلب الخليفة العباسي القائم بأمر الله من الشريف أبي هاشم إلغاء تلك العبارة من الآذان بمكة بعد أن أرسل له الشريف أبو طالب الحسن بن محمد محملاً بالأموال ليغريه بها، وقد دار نقاش مستفيض بين الرجلين، أفضى إلى اقتناع أبي هاشم بوجهة النظر العباسية، وألغى هذه العبارة من الآذان بمكة (١) .

ومع هذا كله لم تتغير فيما بعد سياسة أبي هاشم المنحازة للشيعة في كثير من المواقف ، فكان كثيراً ما يقف في صفهم عند نزاعهم مع أهل السنة، ومن ذلك ما حدث سنة ٤٧٢هـ/١٠٧٩م عندما نشبت خلافات مذهبية بين السنة والشيعة، فاشتكى الشيعة إلى أبي هاشم، فأمر بالقبض على هياج بن عبدالله الحطيني وهو أحد العلماء المجاورين من السنة في مكة حينذاك، والذي عرف عنه مناظرة الشيعة وإفحامهم، وفضح مذهبهم، وبيان ضلالهم، وقام بتعذيبه حتى فقد الحياة، ولم يقتصر الانتقام من أصحاب المذهب السني على تعذيب هياج وقتله، وإنما امتد ذلك القتل ليشمل علماء

---

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٥، ص٨٩ ؛ الجزيري، الدرر الفرائد، ج١، ص٥٤٩ .

آخرين[1]. ونتيجة لهذه التصرفات من أمير مكة أبو هاشم فقد وصفه البعض بالرافضي حيث قال ابن تغري بردي[2]: "وكان صاحب مكة رافضياً خبيثاً". وقريباً منه فقد كان الأمير قاسم بن هاشم يعامل علماء السنة والمجاورين معاملة قاسية، ويصادر أموالهم [3].

وعلى العكس من ذلك فقد كان أبو الفتوح يتقرب إلى العلماء والمجاورين، وينفذ لهم بعض مطالبهم وإن كان ذلك ظاهريا ، ومن دلائل ذلك عدم استجابته لأمر الحاكم بأمر الله العبيدي حينما طلب منه في سنة ٣٩٠هـ/٩٩٩م أن ينبش قبر الرسول فاعتذر من العبيديين عن القيام بهذا العمل، متماشيا بذلك مع مطالب العلماء الذين حذروه من مغبة القيام بمثل هذا الفعل , كما استجاب لمطالب العلماء والمجاورين بعدم قراءة السجل الذي أرسله إليه الحاكم بأمر الله العبيدي والمتضمن بعض الكلمات النابية والسب لبعض صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعض أمهات المؤمنين, وكذلك استجابته لمطالب المجاورين بقتل هادي المستجيش سنة ٤١٠هـ/١٠١٩م بالرغم من انه كان قد أعطاه الأمان والحماية [1].

ويشير الفاسي [2]إلى عدة اشتباكات حدثت بين السنة وهم من أتباع العباسيين في بغداد، والشيعة وهم من أتباع الدولة العبيدية في مصر في

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ج٨، ص٣٢٦ ؛ الفاسي، العقد الثمين، ج٨، ص١٠١ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٨٠.

(٢) النجوم الزاهرة، ج٥، ص١٠٩ .

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٢٧١ .

(١) الفاسي، العقد الثمين، ج٧، ص٣٥٥ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج١، ص٤٤٥ ـ ٤٤٦، الجزيري، الدرر الفرائد، ج١، ص٥٤١ .

(٢) شفاء الغرام، ج٢، صفحات متفرقة.

مواسم الحج، وكان كل فريق منهم يحاول استخلاص الخطبة له، وكان الظفر سجالاً بين الفريقين.

وقد أشار المقدسي الذي كان متواجداً في مكة عند بدء التنافس بين العباسيين والعبيديين على النفوذ فيها إلى اشتعال نزاع متكرر بين فئتين من فئات المجتمع المكي ، وهم الخياطين والجزارين: "يقع عصبيات بين الخياطين، وهم شيعة، والجزارين، وهم سنة بمكة . عصبيات وحروب" [١]. ونستطيع أن نستخلص من مقولة المقدسي أن أسباب هذا النزاع المتكرر بين الخياطين والجزاريين كانت مذهبية بحتة .

ومن الآثار التي خلفها الصراع المذهبي بين السنة والشيعة في مكة اتجاه بعض علماء السنة إلى ترك التدريس في الأماكن العامة، نظراً للضغوط التي يلاقونها من حكام مكة، والمضايقات التي يتعرضون لها من قبل أتباع المذهب الشيعي فيها، مما يضطرهم في كثير من الأحيان للجوء إلى التدريس في منازلهم، مما يقلل من فرصة استفادة الطلاب منهم، ويضيق المجال أمامهم لنشر علمهم. ومن أمثلة ذلك أبو القاسم سعد بن على بن محمد الزنجاني (ت٤٧١هـ/١٠٧٨م) [١] وكان من مشاهير المجاورين في مكة، الذي أضطر إلى إلقاء الدروس العلمية في بيته خفية، وذلك خوفاً من المضايقات من أنصار المذهب الشيعي، بعد أن كان يقيم هذه الدروس علناً في المسجد الحرام [٢].

---

(١) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص٩٦ .

(١) ولد سنة ٣٨٠هـ/٩٨٩م، وهو أحد العلماء المشارقة، طلب العلم في كثير من الأمصار الإسلامية، وقدم مكة وجاور فيها أربعين سنة، حتى صار شيخاً للحرم، وهو من علماء الحديث المتميزين، وله شعر في التصوف . (ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٢٠١ ؛ السبكي، طبقات الشافعية، ج٤، ص٣٨٣ ؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٨، ص٥٨٧ ؛ الفاسي، العقد الثمين، ج٤، ص٥٣٥) .

(٢) الذهبي، تاريخ الإسلام (حوادث ٤٧١ . ٤٨٠هـ)، ص٤٥ ؛ سير أعلام النبلاء، ج١٨، ص٣٨٥ .

وبقدر ما أقلق هذا الوضع العلماء السنة، وحد من نفوذهم، فإنهم لم يقفوا مكتوفي الأيدي، وإنما دافعوا عن معتقدهم، وحثوا على التمسك فيه، ومن هؤلاء الإمام الزنجاني الذي نظم أبياتاً تنادي بترك الشبهات، والحث على التمسك بالكتاب والسنة، ومنها [1]:

تدبر كلام الله وأعتمد الخبر ... ودع عنك رأياً لا يلائمه أثر

ونهج الهدى فألزمه وأقتد بالألى ... هم شهدوا التنزيل علك تنجبر

فمن خالف الوحي المبين بعقله ... فذاك أمرؤ قد خاب حقاً وقد خسر

وفي ترك أمر المصطفى فتنة فذر ... خلاف الذي قد قاله واتل واعتبر

وما أجمعت فيه الصحابة حجة ... وتلك سبيل المؤمنين لمن سبر

ففي الأخذ بالإجماع فأعلم سعادة ... كما في شذوذ القول نوع من الخطر

ولا شك أن انتشار المذهب الشيعي في مكة وكثرة الروافض فيها قد جاء نتيجة للسيادة العبيدية على بلاد الحجاز في ذلك الوقت، وإن كانت تلك السيادة متقطعة، إلا أن آثارها ضلت باقية في أهل مكة .

- دور الحالة الأمنية في تفشي البدع والخرافات داخل إمارة مكة.

لقد خلف الصراع الطويل بين العباسيين والعبيديين على النفوذ في بلاد الحجاز بعض البدع والخرافات التي كانت من مستجدات هذه الفترة التاريخية، وكان أغلبها قد انتشر في فترات السيطرة العبيدية على مكة، بعد انتقلت من مصر إلى الحجاز، وتأثر بها عدد كبير من أفراد المجتمع المكي حتى أصبحت عند البعض من العادات المألوفة والمحببة للنفس، إذ

---

(١) الذهبي، تاريخ الإسلام (حوادث ٤٧١ - ٤٨٠هـ)، ص٤٩ .

يظهر لهم عليها الطابع الديني من حيث التمسك بذكر الرسول صلى الله عليه وسلم وأهل بيته والتبرك بآثارهم، وجعلوا لذلك أوقاتاً معلومة، حيث ساعد على انتشار المزيد من البدع كون بلاد الحجاز تحوي الكثير من آثار المصطفى صلى الله عليه وسلم وأهل بيته.

وقد أشار عدد من الرحالة الذين زاروا بلاد الحجاز إلى ما يحدث من تبرك الناس وتقديسهم لهذه الآثار، ووصفوا ذلك وصفاً دقيقاً، كما أعطوا صورة واضحة من اعتقاد خاطئ منتشر بين العامة، وتركهم لمبادئ الإسلام الصحيحة، والتمسك بالآثار المادية الملموسة لتقربهم إلى الله [١]. ومن هذه الأماكن التي شاعت زيارتها إبان هذه الفترة دار السيدة خديجة رضي الله عنها، ومكان مولد السيدة فاطمة رضي الله عنها [٢].

كما كان لزيارة ما يُعرف بدار المولد النبوي وقعاً محبباً في نفوس عدد كبير من المكيين وبعض الحجاج ممن تأثر بالبدع التي انتشرت في ذلك الوقت، فكانوا يقصدون هذه الدار، ويتبركون بها، ويتمسحون بجدرانها لاعتقادهم أن هذا الفعل المتضمن محبة الرسول صلى الله عليه وسلم يقربهم إلى الله تعالى [٣].

---

(١) عائشة بنت مانع العبدلي، إمارة الحج في عصر الدولة المملوكية وأثرها على الأوضاع الداخلية بمكة المكرمة (٦٤٨ ـ ٩٢٣هـ) دراسة تاريخية تحليلية . مكة المكرمة : ط١، جامعة أم القرى، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ص٢٧٤ .

(٢) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص٩١ ؛ التجيبي، مستفاد الرحلة والاغتراب، ص٢٣٤ ؛ ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (رحلة ابن بطوطة)، بيروت : دار بيروت، ١٤٠٠هـ، ص١٤٠ .

(٣) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص٩١ ؛ التجيبي، مستفاد الرحلة والاغتراب، ص٢٣٤ .

وعلى أثر ذلك انتشر في مكة ابتداع ديني أخر تمثل في إقامة الموالد في أوقات معلومة من السنة، وكان يقصدها كبار القوم من المجتمع المكي، ويشجعون على إقامتها، ولعل أبرز هذه الاحتفالات ما يسمى بالمولد النبوي الذي كان يقام في شهر ربيع الأول من كل سنة، كما كانوا يحتفلون بمولد السيدة ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وسلم في منتصف شهر صفر من كل عام [١].

وكانت زيارة القبور والتبرك بها من أشد البدع الشركية انتشاراً في مكة خلال فترة التنافس بين العباسيين والعبيديين، بعد أن دأب أنصار الدولة العبيدية ومؤيديها على نشر ذلك الابتداع بين العامة من الناس، وكان ركب الحجاج المصريين يمرون على عدة مواضع معروفة، ويتبركون بها، قبل وصولهم إلى مكة [١]. كما كان كثير من الحجاج يحرصون على زيارة قبر السيدة خديجة رضي الله عنها ويتمسحون فيه، طالبين البركة في ذلك [٢]. وكان بعض أمراء مكة يشجعون على نمو هذه البدعة وذلك من خلال العناية ببعض القبور وبناء القباب عليها [٣].

وفي هذه الفترة شاعت في مكة بدعة المدائح النبوية والتواشيح الدينية، وكان أنصار المذهب الشيعي يروجون لها بقوة خصوصاً داخل المسجد الحرام حيث يجتمع الكثير من الرجال والنساء في المسجد، فينتج عن ذلك فوضى عارمة بسبب اللهو ورفع الأصوات [٤]، فتكون بذلك أقرب إلى الغناء المحرم منها إلى الدين.

---

(١) النهرواني، إعلام العلماء، ص١٥٤ ؛ محمد البتنوني، الرحلة الحجازية، ص٥٢ ؛ علي السليمان، العلاقات الحجازية المصرية، ص٢١٢ .

(١) الجزيري، درر الفرائد، ج٢، ص١٤٥٢ .

(٢) التجيبي، مستفاد الرحلة والاغتراب، ص٢٤١ .

(٣) السخاوي، التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة . عني بنشره، أسعد طرابزوني الحسيني، القاهرة : ١٣٩٩-١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، ج١، ص٢٩٤ .

(٤) الفاسي، العقد الثمين، ج٣، ص٣٨٩ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٣، ص٥٢٨.

ومن جانب أخر فقد كان لاختلال الأمن في مكة حينذاك أثره في ظهور بعض الاتجاهات الصوفية [1] التي تدعوا إلى القيام ببعض الأعمال التي يمكن التقرب بها إلى الله بدلاً من الحج [2]، فقد ورد عن أبي عبد الله محمد البلخي . وهو أحد الصوفية الذين عاشوا في القرن الرابع الهجري . قوله: "عجبت لمن يقطع البوادي والقفار ليصل إلى بيت الله وحرمه لأن فيه آثار أنبيائه، كيف لا يقطع نفسه وهواه حتى يصل إلى قلبه، لأن فيه آثار مولاه"[1].

الجدير بالذكر أن المذهب الصوفي قد انتشر في مكة انتشار كبيراً، ولقي طريقه بين المجاورين فيها وزاد أعداد المتصوفة في هذه الفترة حتى أصبح علماء الصوفية يشكلون نسبة كبيرة من مجموع العلماء في مكة، ساعدهم على ذلك تنافس الدولتين العباسية والعبيدية في تقديم الأموال والصدقات لسكان مكة، حيث وجد أولئك المتصوفة الذين آثروا المجاورة في مكة آنذاك من هذه المصادر المالية أماناً لهم من الفقر والحاجة [2].

---

(١) الصوفية . من التصوف وهو : تصفية القلب عن موافقة البرية ومفارقة الأخلاق الطبيعية . وإخماد صفات البشرية . ومجانبة الدعاوي النفسية . وأطلق هذا اللفظ على التيار التزهدي الإسلامي الذي نشأ على مدى القرون الخمسة الأولى من التاريخ الهجري. (الجرجاني . التعريفات . تحقيق. إبراهيم الأبياري . بيروت: ط٢ . دار الكتاب العربي ١٤١٣هـ/١٩٩٢م . ص ٨٣؛ مالك شبل . معجم الرموز الإسلامية . شعائر . تصوف . حضارة . . نقله إلى العربية أنطوان إ. الهاشم . بيروت: ط١ . دار الجبل ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م. ص٥٩).

(٢) أحمد الزيلعي، مكة وعلاقاتها الخارجية، ص١١٢.

(١) السلمي، طبقات الصوفية، تحقيق : نور الدين شريبة . ط٣، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص٢١٤ .

(٢) خيرية أبو سنة، الحياة العلمية في مكة المكرمة، ص١٥٤ .

وقد دخلت الطريقة الرفاعية الصوفية إلى مكة وانتشرت فيها انتشاراً واسعاً في سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م وذلك عقب قدوم صاحب هذه الطريقة أحمد الرفاعي (ت٥٧٨هـ/١١٨٢م) إلى مكة حاجاً [(١)].

وأبتدع أحد شيوخ الصوفية في مكة وهو علي بن عبدالله بن جهضم ما يعرف بصلاة ليلة الرغائب، وهي أول خميس من شهر رجب . وقد ذهب كثير من العلماء إلى إنكار هذه الصلاة واعتبارها من البدع التي لا أساس لها في الدين [(٢)].

وكان شيوخ الطرق الصوفية يحثون مريديهم على السفر إلى مكة والمجاورة بها يقول أحدهم "عليك بمكة فقصدها فقد آن لك وقت الفتح..." [(١)].

كما شاع في مكة آنذاك ابتداع تجميل المنبر بأعلام مزركشة، ووقوف الخدم والعبيد على جانبيه، وجلوس شخص على إحدى درجاته ليؤمن على دعوات الخطيب. ومن جهة أخرى كان على الناس أن يهبوا وقوفاً عند ذكر اسم الحاكم العبيدي في الخطبة[(٢)]. وقد امتد التعظيم في مكة ليصل إلى الأشراف أنفسهم حيث أصبحوا يحاكون الحكام العبيدين في إحاطة أنفسهم بهالة من التعظيم والإجلال، حتى وصل الأمر ببعضهم أنه استحق الميزة الشرعية عن سائر الخلق من غير الأشراف [(٣)].

---

(١) العجيمي، خبايا الزوايا . (مخطوط)، مكتبة الحرم المكي، رقم (٧) تراجم دهلوي، ق١٠٥.

(٢) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص١٦١ ؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٧، ص١٧٦، ٢٧٥ ؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٢، ص٢٠٠ - ٢٠١ .

(١) مؤلف مجهول، نزهة الأنام . (مخطوط) دار الكتب المصرية، رقم (١٧٤٠)، ق١٢ .

(٢) أحمد السباعي، تاريخ مكة، ص٢٤٨ .

(٣) أحمد السباعي، تاريخ مكة، ص٢٤٧ .

المبحث الثاني: الآثار الاجتماعية.

تعد مكة من أكثر المدن الإسلامية إنفتاحاً على العالم الإسلامي حيث يقصدها الآلاف من الناس بقصد الحج والعمرة ممن تختلف أجناسهم والسنتهم وعاداتهم الإجتماعية وبالتالي يختلط هؤلاء الوافدون بالسكان الأصليين لمكة فيتأثرون ببعض عاداتهم اليومية التي يعايشونها معهم وألفاظهم التي يسمعونها منهم فيحدث لدى سكان مكة بعض التغيرات بالعادات والتقاليد الإجتماعية , وعلى أمد أبعد قد يحدث بعض التغير بالتركيبة الإجتماعية لسكان مكة.

وفي هذا الجانب لانغفل مانتج عن التنافس بين العباسيين والعبيديين على مكة من تأثيرات اجتماعية مختلفة على مناحي الحياة في المدينة المقدسة، حيث أثر هذا التنافس على تركيبةِ المجتمعِ السكانية، كما كان لهذا التنافس أثره على العادات والتقاليد داخل المجتمع المكي فاندثرت بعض العادات وتبدلت أخرى، إضافة لتأثيره على النواحي العمرانية، وسوف نتناول فيما يلي الحديث عن هذه الجوانب موضحين في هذا ما أمكننا الوصول إليه من آثار تنافس القوتين العباسية والعبيدية عليها.

- أثر الحالة الأمنية على التركيبة السكانية للمجتمع المكي .

كان للصراع الدائر بين الدولتين العباسية والعبيدية المتنافستين على النفوذ في مكة تأثيرٌ واضحٌ على التركيبة السكانية الاجتماعية فيها, فقد كان كثيراً ما ينتج عن هذا الصراع انتشار للمجاعات في مكة ويعم فيها القحط والجوع وينعدم الأمن وذلك بسبب تعدد الحصارات التي تتعرض لها مكة من القوى العسكرية من إحدى الدولتين لتثبيت نفوذها أو قطع

التموين الغذائي عنها بسبب سياسات بعض أشرافها تجاه أحدى القوتين أو إحجام الدولة المسيطرة في بعض الأحيان عن إرسال المعونات الغذائية فينتج عن هذه السياسات المضطربة التي تجتاح مكة بين وقت وأخر خوف الناس من سكانها على أنفسهم وأرواحهم وممتلكاتهم فيؤدي هذا الأمر في كثير من الأحيان إلى نزوح الكثير من سكانها إلى البلدان الإسلامية الأخرى بحثاً عن الإستقرار وطلباًللأمن.

ونلحظ في هذه الفترة وجود متغيرات كثيرة طرأت على التركيبة السكانية داخل مكة حيث بلغ تعدادهم في أواخر القرن الخامس الهجري ألفا نسمة فقط كما ذكر ذلك الرحالة ناصر خسرو عندما زارها حاجا سنة ٤٤٢هـ/١٠٥٠م فقال " ويقدر سكان مكة بألفي نسمة , وفيها خمسمائة من الغرباء والمجاورين..." [(١)] ، ومن غير المعقول أن يكون هذا هو عدد السكان الطبيعي في مكة في تلك الفترة إلا إذا كان هناك أسباباً متعددة أدت إلى نزوح أعداد كبيرة من سكانها ولعل ما ذكرناه سابقاً من متغيرات سياسية وأمنية بسبب التنافس الشديد بين الدولتين العباسية والعبيدية كان لها الأثر الأكبر في هذا التغير الغير طبيعي في التركيبة السكانية بمكة.

كما يذكر ناصر خسرو في موضع أخر بأنه هاجر في بعض سنوات هذا العهد عدد كثير من سكان مكة والمجاورين بها [(٢)].

ومن جانب أخر فقد كان السكان في مكة في تلك الفترة ينقسمون إلى عدد من الطبقات الاجتماعية من أهمها:

---

(١) رحلة ناصر خسرو، ص١٤٠ .

(٢) رحلة ناصر خسرو، ص١٢٢ .

طبقة الأشراف (العلويين).

وقد برزوا في هذه الفترة كطبقة حاكمة في مكة وهم من الحسنيين , أما الحسينيون فهم أشراف المدينة , وقد استطاع الأشراف أن يكسبوا احترام المسلمين وتبجيلهم وذلك لاتصال نسبهم الشريف بالرسول صلى الله عليه وسلم من جهة، ولكونهم حكام مكة البلد المقدس في نفوس المسلمين من جهة أخرى.

ومن هذه الطبقة يتفرع القواد والأمراء وهي قوة لها مكانتها في مكة، وتستطيع ترجيح كفة أحد الأطراف المتنازعة على الأمارة[١].

وكان التنافس بين العباسيين والعبيديين على حكم مكة قد منح الأشراف فرصة كبيرة في الاحتفاظ بحكم مكة فترة طويلة من الزمن، وقد ساعد ذلك على تكاثر أعداد الأشراف في مكة، وزيادة مكانتهم الاجتماعية فيها.

السكان الأصليون.

وهم ممن تبقى من الأسر القرشية المقيمة في مكة وما حولها بعد موجة الهجرة التي طالت الكثير من القبائل عقب الفتح الإسلامي، وما تلاها من هجرات إلى البلاد المفتوحة، ويأتي على رأس هذه الطبقة العلماء والأعيان وشيوخ القبائل [٢].

---

(١) الفاسي، شفاء الغرام، ج٢، ص٢٢٠ ؛ البتنوني، الرحلة الحجازية، ص٦٥ ؛ على السليمان، العلاقات الحجازية المصرية، ص٢٠٧ .

(٢) الطبري، الأرج المسكي، ص٢٣٠ .

كما كان بمكة بعض العائلات العريقة التي لم تبرز بنسبها، وإنما برزت بعلمها، حيث استقرت بمكة خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين. وبعد استقرارهم أصبحوا جزء من المجتمع المكي، حيث تقلدوا فيها مناصب عالية، وبرزوا في المجالين الاجتماعي والعلمي، وكانوا على علاقة متينة بأمراء مكة وحكام مصر(١).

وتعدالقبائل العربية عنصراً سكانياً مهماً لا يستهان به في مكة حيث كانت تلك القبائل تشكل الركيزة الأولى للمجتمع في بلاد الحجاز عامة ومكة على وجه الخصوص وهي تمثل الغالبية العظمى من السكان , والجدير بالذكر أن التقاليد العربية كانت مستمرة في هذه الفترة عند هذه القبائل التي يحكمها نظام قبلي من حيث العيش في مناطق متقاربة , والزواج يكون من داخل القبيلة , وقد ظلت الروابط القبلية في بوادي مكة بين القبائل أقوى منها في الحاضرة (١)، وقد ساعدت الأحداث التي أذكاها التنافس وأختلال الأمن، فضلاً عن نزاع الأشراف فيما بينهم إلى ظهور تغلغل أفراد من القبائل في مكة، بعد أن أصبحوا يشكلون رافداً عسكرياً تعتمد عليه بعض العناصر المتنازعة، سيما الأشراف الذين نراهم كثيراً ما يلجؤن إلى القبائل لمساندتهم والاستعانة بقوتهم (٢). كما سبق وأن مر بنا,

وقد قام بعض أمراء مكة بمصاهرة هذه القبائل، للحصول على دعمهم في تثبيت دعائم حكمهم. وكان الشريف أبو هاشم محمد بن جعفر كثيراً

---

(١) على السليمان، العلاقات الحجازية المصرية، ص٢٠٧ ؛ فريال قطان، الحجاز في ظل الدولة الأيوبية والفاطمية بمصر، ص٣٢٩ .

(١) الأصفهاني، الأغاني , ج٢ ، ص٢٥ .

(٢) عز الدين ابن فهد، غاية المرام، ج١، ص٥٤٠ ؛ العصامي، سمط النجوم العوالي، ج٤، ص٤٣٧ ؛ أحمد زيني دحلان، خلاصة الكلام، ص٥٣ .

ما يستعين بهم في نزاعه مع بني الطيب [1]. وكذلك الشريف قاسم بن هاشم الذي ساندته بعض القبائل في صراعه مع عمه عيسى بن فليتة [1]. كما سبقت الأشارة اليه.

ومن جهة أخرى فإننا كثيراً ما نلحظ اهتمام أشراف مكة بشؤون هذه القبائل و تعيين أفراد منهم في محل إقامتهم وذلك لاستقبال الوفود أو القادمين للسلام عليهم وعرض حوائجهم [2].

طبقة المجاورين.

وهم المسلمون الذين كانوا يقدمون إلى مكة من مختلف أقطار العالم الإسلامي، ويبقون فيها للعبادة أو طلب العلم، وتعددت فئات المجاورين الذين قدموا إلى مكة فشملت التجار والزهاد والعلماء وطلبة العلم وغيرهم. ويغلب على حياة معظمهم الزهد والورع والتصوف [3]. وتعتمد معيشة معظمهم ـ في الغالب ـ خاصة الفقراء منهم على الصدقات التي تأتيهم من الدول المتنافسة على النفوذ في مكة، وكذلك من بعض التجار والموسرين في الأمصار الإسلامية.

---

(١) الفاسي، شفاء الغرام، ج٢، ص٣١١ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٦٩ ؛ الصباغ، تحصيل المرام، ج٢، ص٧٣٦.

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٧٧ ؛ الفاسي، العقد الثمين، ج٧، ص٣٥ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٥٢٤ .

(٢) الطبري، الأرج المسكي، ص٢٣٢ .

(٣) الفاسي، العقد الثمين، ج٥، ص٥١٧ .

ورغم تناقص أعداد هؤلاء المجاورين في القرن الرابع الهجري عما كانوا عليه قبل ذلك إلا أن زيادة قد طرأت على أعدادهم في القرن الخامس الهجري، حيث باتوا يشكلون خمس سكان مكة تقريباً (١).

ومع مرور الزمن ازداد عدد المجاورين والغرباء في مكة، وكان ذلك مشجعاً على تسابق بعض الأثرياء من المسلمين الذين يفدون إلى مكة للحج أو العمرة في بناء الأربطة (٢) التي بدأ عددها يتزايد سيما في القرن السادس الهجري (٣)، عقب أن استقر الوضع نوعاً ما للسلطة العباسية في مكة.

وقد امتزج هؤلاء المجاورين بسكان مكة الأصليين واندمجوا معهم حتى أصبحوا يشكلون جزءً منه، بعد زواج بعضهم من بعض نساء مكة (٤). وقد نتج عن ذلك ظهور خليط آخر من السكان، أصبحوا يشكلون جزء لا يتجزأ من المجتمع المكي (٥).

وقد برزت من هذه الطبقة أسر أشتهرت بالعلم والفضل، وتولي المناصب الدينية في مكة كالقضاء وغيره. ومن أبرزها أسرة الطبريين، وأسرة بني

---

(١) ناصر خسرو، رحلة ناصر خسرو، ص١٢٢ .

(٢) الأربطة ، مفردها رباط ، ومعناه في اللغة ملازمة ثغر العدو والمرابطة فيه . (ابن منظور ، لسان العرب ، ج٧ ، ص٣٠٣) . وقد تغير مفهوم هذه الكلمة العسكري المرتبط بالجهاد فيما بعد فأصبحت تعني مكان إقامة الفقراء والزهاد وطلاب العلم والصوفية . وكان رباط السدرة أول رباط أنشىء في مكة وذلك سنة ٣١٢هـ/٩٢٤م ، ثم تتابع إنشأ الأربطة بعد ذلك . (حسين عبدالعزيز شافعي ، الأربطة في مكة منذ البدايات حتى نهاية العصر المملوكي . جدة : مؤسسة الفرقان ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م ، ص٢٩ . ٣٠ ؛ محمد عبد الله آل عمرو ، التعليم في الحجاز في العصر المملوكي ، (رسالة دكتوراه) ، كلية التربية ، جامعة أم القرى ، ١٤١٨هـ ، ص١٣٣) .

(٣) الفاسي، شفاء الغرام، ج١، ص٣٣٠ . ٣٣٦ ؛ سليمان مالكي، بلاد الحجاز، ص١٥٥ . ١٥٨ .

(٤) الفاسي، العقد الثمين، ج٧، ص٤١٤ .

(٥) خالد الخالدي، تنظيمات الحج ، ص٤٣٤ .

ظهيرة، وأسرة النويريين، وأسرة الفاسيين، وأسرة القسطلانيين، وغيرهم من الأسر التي أثرت في الحياتين العلمية والثقافية في مكة، خاصة في الفترات التاريخية اللاحقة [١].

طبقة الموالي والعبيد.

تنقسم هذه الطبقة إلى فئتين، تضم الأولى منها أتباع أمير مكة وأعوانه وخواصه الذين يسهرون على راحته وخدمته، وحمايته، وتنفيذ أوامره، وكان أمير مكة كثيراً ما يعتمد عليهم في تثبيت نفوذه[٢]. ولكل أمير مجموعة من هؤلاء العبيد، تكثر وتقل حسب مركز الأمير وإمكاناته المادية، فيصل عددهم عند بعض الأمراء إلى أكثر من أربعمائة [٣]، بينما يصل عند بعضهم إلى رقم أعلى من ذلك، كما هي الحال بالنسبة للشريف أبي الفتوح الذي وصل عدد أتباعه من العبيد إلى حوالي ألف عبد [٤].

ولم تشر المصادر التي أمكن الإطلاع عليها إلى إحصاء عن العدد الإجمالي لعدد العبيد في مكة , غير أن ما ذكرناه سابقاً يدل على كثرتهم في المجتمع المكي , كما تشير بعض المصادر في أكثر من موضع إلى حرص الأمراء والوزراء والأثرياء ممن يذهبون إلى مكة للحج على عتق مئات من

---

(١) لمعلومات أوفى عن هذه الأسر العلمية التي قطنت مكة، انظر، خلود عبدالباقي البدنة، الأسر العلمية في مكة وأثرها على الحياة العلمية والعملية في مكة خلال العصر المملوكي . (رسالة ماجستير)، جامعة أم القرى، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م .

(٢) فريال قطان، الحجاز في ظل الدولة الأيوبية والفاطمية بمصر، ص٣٣٢ ؛ خالد الخالدي، تنظيمات الحج ، ص٤٣٥.

(٣) أحمد زيني دحلان، خلاصة الكلام، ص٦٤ .

(٤) البكري، المسالك والممالك، ج١، ص٣٧٠ ؛ الفاسي، العقد الثمين، ج٤، ص٧٧ ؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٣٧ .

رؤوس العبيد فعلى سبيل المثال فقد قامت السيدة جميلة بنت ناصر الدولة الحمداني[١] بعتق ثلاثمائة عبد من عبيد مكة و ثلاثمائة أمة وذلك عندما قدمت مكة للحج سنة ٣٦٦هـ/٩٧٦م[٢].

وكان لهؤلاء العبيد أثرهم في السياسة المكية، فكانوا يشكلون عصب القوة في جنود الأشراف، وكثيراً ما نجدهم يثيرون الشغب والفوضى في مكة أيام المواسم وغيرها [٣].

ولا شك أن سياسة الأشراف في الاعتماد على هؤلاء العبيد سيزيد من جلبهم إلى مكة، فيصبحوا بذلك جزء من المجتمع مما يؤثر فيما بعد على التركيبة السكانية للمجتمع المكي. كما سيؤدي ذلك إلى نشوء أجيال من المولدين من ذوي البشرة السمراء، نتيجة لزواج بعض رجال مكة من جواريهم الأفريقيات [٤]. وهذا ما أكده أبن المجاور عندما قال عن هذا الجيل من أهل مكة [٥]: "وهم رجال سمر، لأن جل مناكحهم الجواري السود، من الحبش والنوبة". كما أشار المقدسي إلى وجود سودان كثير في مكة [٦].

---

(١) هي، جميلة بنت ناصر الدولة بن عبدالله بن حمدان صاحب الموصل , من النساء الشهيرات في الكرم والعقل والجمال , قدمت لأهل مكة الكثير من الأعطيات وأركبت المنقطعين من الحجاج و ونثرت الأموال على الكعبة , وأعتقت الكثير من العبيد والإيماء , ولها أعمال خيرية داخل مكة وخارجها , توفيت سنة ٣٧١هـ.(ابن مسكوية, تجارب الأمم ,ج٤, ص٣٨٥)

(٢) نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤١٥.

(٣) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٠، ص٢٠٢ ؛ ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٨٠ ؛ أبو الفدا، المختصر، ج٢، ص١١٣ ؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص١٢٠ ؛ الفاسي، شفاء الغرام، ج٢، ص٣٦٣ .

(٤) خالد الخالدي، تنظيمات الحج ، ص٤٣٦.

(٥) المستبصر، ص٥ .

(٦) المقدسي , أحسن التقاسيم، ص٩٠ .

ومما يلاحظ من خلال استعراضنا لطبقات المجتمع المكي أن سكان مكة كانوا خليطاً من مختلف البلدان الإسلامية، بالإضافة لقليل من السكان الأصليين، وقد أحدث هذا التنوع في التركيبة السكانية للمجتمع وتعايشها مع بعضها البعض أمتزاج هذه الأجناس مع بعضها، وتباين في صفاتهم الخَلْقِية والخُلُقِية.

من جانب أخر فإن سيطرة إحدى القوى على الوضع في مكة يعطي الضوء لرعايا هذه الدولة أو تلك للقدوم إلى مكة، والبقاء فيها، مما يساعد على امتزاج هذه الفئات في المجتمع المكي. ولعل ما ذكر المقدسي الذي كان متواجداً في مكة خلال النصف الثاني من القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي من وجود دور خاصة بالمصريين في مكة لدليل على ما ذهبنا إليه [1]. ولا يستبعد أن هذه الدور التي أشار إليها المقدسي وخصصت لسكن المصريين كانت حديثة النشأة، حيث جاءت على إثر تغلغل الحكم العبيدي في مكة، والذي كان واضحاً إبان تلك الفترة التاريخية [2].

إضافة إلى ذلك فإننا نلحظ أن الطبقات الاجتماعية التي تشكَّلَ منها المجتمع المكي تتأثر كثيراً بالأحداث السياسية التي تطرأ على مكة، بسبب تنافس القوى الكبرى من العباسيين والعبيديين على بسط النفوذ فيها. فنجد طبقة الأشراف خصوصاً حكام مكة منهم متذبذبين بسياستهم بين تلك القوتين، بحسب المصالح الاقتصادية العائدة عليهم، ولكنهم في أحيان كثيرة يقعون ضحية تأثير التنافس، فيحصل فيما بينهم انقسام، ويعارض بعضهم البعض، . كما سبقت الإشارة إلى ذلك . في عهد شكر بن أبي الفتوح

---

(١) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٧٦ .

(٢) عبد العزيز السنيدي، مكة في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، ص٤٢ .

عندما عارضه فريق من الأشراف الذين أخذوا عليه ولاءه المطلق للدولة العبيدية، والتي قطعت عنهم آنذاك الأعطيات [1]. وقد يصل الأمر بين الأشراف حد النزاع والتقاتل على السلطة، كما حدث بين بني الطيب وأبي هاشم محمد بن جعفر [2].

أما عن أتباع أمير مكة من العبيد فكثيراً ما يتماشون مع سياسة سيدهم ، حيث نجدهم في مواقفهم من الصراع القائم بين الدولتين العباسية والعبيدية يوالون الجانب الذي يعترف بهم سيدهم ويقيم الخطبة بإسمهم ، في حين أن عبيد بقية الأشراف يناقضون ذلك التوجه تماشياً مع أسيادهم الأشراف المعارضين لسياسة أمير مكة، مما يوقع النزاع بين العبيد أنفسهم في بعض الأحيان.

ونجد المجاورين في الغالب . بعيدين على الأخذ بالأمور السياسية والتأثر بها، إلا أنهم في الأحيان يشاركون في بعض هذه الأحداث، خصوصاً إذا ما تعلقت هذه الأمور السياسية بجوانب دينية لا يجوز السكوت عنها.

ونرى أن طبقة السكان الأصليين قد انشغلت بالتجارة عن التدخل بالأمور السياسية خاصة القاطنين داخل مكة، فأصبح جلُ همهم الكدح من أجل تحصيل لقمة العيش، أما القاطنون في أطراف مكة فقد عملوا في الزراعة[3]، في حين أن أفراد بعض القبائل من سكان مكة قد احترف عدد كبير منهم القتال، بجانب أمير مكة، وكان ذلك مصدر رزق لهم.

---

(١) المقريزي، اتعاظ الحنفاء، ج٢، ص١٦٣ ـ ١٦٤ ؛ أحمد الزيلعي، علاقات مكة الخارجية، ص٥٩ ـ ٦٠؛ بندر الهمزاني، العلاقات الخارجية لمكة، ص٥٢ .

(٢) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج٤، ص١٣٢؛ المقريزي، اتعاظ الحنفاء، ج٢، ص٢٦٩؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٦٨ .

(٣) خالد الخالدي ، تنظيمات الحج، ص٤٢٨ .

ـ أثر الحالة الأمنية في عادات وتقاليد المجتمع المكي.

ظهر مع بدء التنافس الذي حصل بين الدولتين والعبيدية على مكة تغيير كثير في عادات المجتمع المكي، سواء بظهور عادات وتقاليد جديدة دخلت المجتمع لم يألفها قبل ذلك، أو باندثار عادات أخرى كانت سائدة قبل ذلك العهد. ويبدو أن أهل مكة قد تأثروا كثيراً بالعادات والتقاليد القادمة من مصر أكثر من تأثرهم بما جاء آنذاك من جهة العراق، ولعل السبب في ذلك راجع إلى قرب مصر من الحجاز، أو لأن اتصال حكام مكة من الأشراف بالعبيديين في تلك الفترة كان أوضح طابعاً من اتصالهم بالعباسيين، ويتضح ذلك التفوق جلياً في العادات الاجتماعية والمناسبات الدينية التي انتشرت في المجتمع المكي حينذاك كما سيتبين لنا في النقاط التالية.

١. المناسبات الدينية.

طرأ تغير كبير على إمامة الحرم الشريف إبان فترة التنافس العباسي العبيدي على الحجاز، فبعد ما كان في السابق يؤم الناس في الصلاة في الحرم المكي إمام واحد، أصبح هناك أربعة أئمة يمثلون المذاهب السنية الأربعة؛ الشافعية والحنفية والمالكية والحنبلية، بالإضافة إلى إمام خامس لفرقة الزيدية. ولا نعلم بوجه الدقة التاريخ الذي حدث فيه هذا التغيير، غير أن الفاسي ذكر أن الحنفي والمالكي كانا مع الشافعي في سنة ٤٩٧هـ/١١٠٤م، وأن إقامة إمام للزيدية قبل تعيين إمام للحنابلة، كما ذكر الفاسي ـ أيضاً ـ أن إمام الحنبلية كان موجوداً قبل سنة ٥٤٠هـ/١١٤٥م [١].

(١) الفاسي، شفاء الغرام، ج١، ص٢٤٥ .

وكان الإمام الشافعي يسبق بقية الأئمة في الصلاة بالحرم، خاصة خلال فترة النفوذ العباسي على مكة. ويؤم الناس خلف مقام إبراهيم، وكان جمهور الناس بمكة على هذا المذهب. ويأتي بعد الشافعي في إقامة الصلاة إمام المالكية حيث يؤم الناس في محراب ينصب له قبالة الركن اليماني، ويتزامن معه في الصلاة بوقت واحد إمام الحنابلة، الذي يؤم أتباعه في موضع يقابل ما بين الحجر الأسود والركن اليماني. أما إمام الحنفية فيأتي بعدهم، ويؤم أتباع مذهبه قبالة الميزاب [1].

ولقصر وقت صلاة المغرب فإن جميع الأئمة آنفي الذكر يضطرون إلى إقامة هذه الفريضة في وقت واحد، وهذا ما يؤدي إلى التشويش على المصلين، والإرباك في الصلاة، لتداخل الأصوات بين الأئمة، وصعوبة التفريق بينها[2].

الجدير بالذكر أن بعض العلماء في مكة قد أنكروا هذا الفعل، وأفتوا بمنع الصلاة بأئمة متعددين في الحرم، وأثبتوا عدم جوازها بالأدلة من مذاهب الأئمة الأربعة [3].

وكان لبسط العبيديين نفوذهم في مكة أثره في ظهور ما يعرف بالاحتفال بالمولد النبوي، حيث لم تكن مكة تعرف هذا الاحتفال قبل القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، كما ظهر ما يعرف بمولد السيدة فاطمة، ومولد السيدة خديجة. كما أشرنا إلى ذلك سابقاً. وفي هذه الموالد يكون اجتماع الناس في المسجد الحرام وخارجه، حيث يلتقي الأعيان والعلماء

---

(١) الفاسي، شفاء الغرام، ج١، ص٢٤٤ ؛ ابن ظهيرة، الجامع اللطيف، ص٢٧١ .

(٢) الفاسي، شفاء الغرام، ج١، ص٢٤٥ .

(٣) الفاسي، شفاء الغرام، ج١، ص٢٤٥ .

والفقهاء، ويخرجون من باب الصفا والشموع موقدة، والمنشدون يلقون الأشعار، ويذكرون الله ويصلون على نبيه، ثم يصعد على المنبر من يدعو بدعاء معين تخص به هذه الليلة، ويعطى أجر على ذلك، ثم يعقب ذلك توزيع الخلع على الفقهاء والعلماء، والصدقات على الفقراء والمجاورين وعلى خدام المسجد من الفئات المختلفة، ثم يؤذن لصلاة العشاء، وبعد أداء الصلاة توزع الحلوى والطيب [(١)].

ولم يعرف المجتمع المكي قبل منتصف القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي[(٢)] من الأعياد سوى عيدي الفطر والأضحى، وهما العيدان الرسميان للمسلمين كافة، ولكن مع مرور الزمن، وكثرة الوافدين من الحجاج والمعتمرين، فضلاً عن وجود المجاورين على اختلاف عاداتهم ومذاهبهم في مكة، كثرت الأعياد الدينية التي يحتفل بها أهل مكة، فيذكر ابن جبير أنهم كانوا يحتفلون احتفالاً عظيماً ليلة هلال رجب، حيث يأمر أمير مكة بضرب الطبول إيذاناً بدخول الموسم، ثم يخرج أهل مكة والمجاورن إلى التنعيم للإحرام بالعمرة من هناك. كما توقد المشاعل في المسجد الحرام والطرقات، فتخرج النساء في هوادجهن في أبهى زينة لأداء هذه العمرة [(٣)]. وتعتبر عمرة الجِعْرَانة[(٤)]من المناسبات الدينية التي يحتفل بها أهل مكة اقتداءً بالنبي صلى الله عليه وسلم، وقد أشار ناصر خسرو إلى كثرة المعتمرين في السادس عشر من شهر ذي القعدة، وهو وقت هذه العمرة،

---

(١) خالد الخالدي . تنظيمات الحج . ص٤٣٧ .

(٢) الطبري، الأرج المسكي، ص٣٥ .

(٣) ابن جبير، الرحلة، ص١٠٧ ـ ١٠٨ .

(٤) الجعرانة ، موقع بين مكة والطائف ، وهي إلى مكة أقرب . (ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج٢ ، ص١٤٢١) .

فقال[1]: "ورأيت بالجعرانة كثيراً من الجمال يزيد عددها على مائة بعير، ولم يكن الوقت موسماً من مواسم العمرة، فما ظنك بعدد الجمال في هذا الموضع في المواسم".

وفي شهر ذي القعدة وأوائل ذي الحجة يصل إلى مكة من مصر ركب الحج عن طريق ميناء ينبع، ويخرج إليه أمير مكة لاستقباله خارج المدينة، وعلى مسافة بعيدة عنها، ويترجل عن جواده، ويقبل خف الجمل الذي يحمل الكسوة، ثم يسير بصحبة أمير الحاج ورجال الركب، حتى يدخل مكة. وجرت العادة أن يُكلف أمير مكة بتقديم بعض المواشي والأموال لأمير الحاج وللأعراب الذين يحرسون ركب الحج خلال الطريق. كما تظل الكسوة عند أمير الحاج حتى يوم السابع والعشرين من ذي العقدة، حيث ترفع أستار إلى نحو القامة ونصف من جهاتها الأربع، صوناً لها من أيدي الناس، ثم تغسل بماء زمزم [2].

وكان من عادة أهل مكة حينذاك الاحتفال بختم الأطفال للقرآن الكريم، حيث يلبس الطفل أحسن ملابسه، وتوقد الشموع، ويعد والده الطعام والحلوى، ثم يقدم الدعوة لأصحاب ابنه ومعلمهم ويحتفلون ويلقون الأناشيد والأدعية الدينية [3]. وهذه العادة انتقلت إلى المجتمع المكي من العراق [4]، مما يؤكد تأثير النفوذ العباسي على العادات والتقاليد في مكة.

---

(١) رحلة ناصر خسرو، ص١٥٧ـ ١٥٨ .

(٢) ابن بطوطة، الرحلة، ص١٠١ ؛ فريال قطان، الحجاز في ظل الدولة الأيوبية والفاطمية، ص٣٤٦.

(٣) ابن جبير، الرحلة، ص١٢٧ـ ١٢٨ .

(٤) خالد الخالدي، تنظيمات الحج ، ص٤٤٥ .

٢. المناسبات الاجتماعية.

تأثر حكام مكة من الأشراف بمظاهر الفخامة والأبهة التي كان الحكام العبيديون يحرصون عليها في مناسباتهم الاجتماعية، بعد أن انتقلت إليهم من مصر، فأصبحت قصورهم تلتزم بتقاليد يحرصون عليها، بعد أن كانت البساطة الطابع السائد في حياة الأشراف من قبلهم. وقد بدأت هذه المظاهر تأخذ طريقها إلى مجالسهم ومواكبهم واحتفالاتهم حتى أصبحت السمة السائدة في أغلب مناسباتهم الاجتماعية، وبات يصعب على الأشراف التنازل عنها أو تغييرها، رغم أن أغلبها منافية لماجاء به الشرع من الحث على التواضع، ونبذ الكبر (١).

من جانب أخر فقد أثرت هذه المظاهر على سلوك بعض الأشراف وعلاقاتهم برعيتهم ، حتى شرع البعض منهم بالاحتجاب الكلي عن الناس، وعدم مخالطتهم خوفاً على خدش هذه المظاهر المبتدعة. كما قاموا بإدخال بعض الآت الطرب بهدف استخدامها في الأشعار والأناشيد التي تلقى أمام قصورهم في المناسبات الاجتماعية، وخلال استقبال الوفود التي تأتي إليهم.. وابتدعوا أيضاً المواكب التي ترافقهم أينما ذهبوا (٢).

ومن جانب أخر فقد اهتم أشراف مكة بإطلاق الألقاب على أنفسهم متأثرين بذلك بالحكام العبيديين الذين كثيراً مايطلقون على أنفسهم الألقاب، فكان يطلق على من يتولى حكم مكة لقب االشريف، في حين لُقب بنو عمومتهم الأخرين بالسادة. ولم تكن هذه الألقاب معروفة قبل استقلال الأشراف بحكم مكة سنة ٣٥٨هـ/٩٦٨م (٣).

---

(١) الطبري، الأرج المسكي، ص٣٧ ؛ أحمد السباعي، تاريخ مكة، ج١، ص٢٤٧ .

(٢) الطبري، الأرج المسكي، ص٣٧ ؛ أحمد السباعي، تاريخ مكة، ج١، ص٢٤٧ ؛ عطية إبراهيم، الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، ص٣٠٧ .

(٣) أحمد السباعي، تاريخ مكة، ج١، ص٢٤٩ .

٣. اللباس والطعام.

كانت الملابس السائدة عند أهل مكة ملابس عربية تقليدية، حيث كان يغلب على لبس الرجال العمامة، ويلبسها أشراف الناس في المجتمع المكي، وتصنع من أقمشة القطن أو الخز أو الصوف , وهي ذات ألوان مختلفة كالبيضاء والسوداء والحمراء والدكناء [١], ثم دخلت بعد ذلك تأثيرات في عادة اللباس عند أغلب الناس في المجتمع المكي ولعل للتنافس العباسي العبيدي على بسط النفوذ في مكة دور في ذلك, حيث نلحظ انتشارا واسعاً للثياب المطرزة على الطريقة المصرية بين الناس في مكة خصوصاً الأغنياء منهم [٢]، وقد يكون هذا التأثر قد جاء بعد بسط العبيدين سيطرتهم على مكة في بعض الفترات , حيث دأب حكامهم على إرسال الخِلع إلى أمراء مكة وسدنة الكعبة مع أمراء الحج سنوياً[٣], وكانت هذه الخِلع توشح بالذهب والفضة وتتميز بالألوان الزاهية [٤], كما عرف المجتمع المكي في ذلك الوقت ثياباً جديدة منسوجة من الحرير والكتان , وأنواعاً براقة من الألبسة تتلألأ عندما تنعكس عليها أشعة الشمس , وكانت ترد إلى مكة مع التجار المصريين [٥]

وقد أحدث تجار مكة تحسينات على الطرز العبيدية في كثير من الألبسة وذلك بسبب تأثرهم بالأزياء الهندية في الملابس نتيجة احتكاكهم الكبير بالتجار والحجاج الهنود الذين يفدون إلى مكة في المواسم[١].

---

(١) الأصفهاني، الأغاني، ج١٠ ؛ ابن جبير، الرحلة، ص١٢٦ ؛ عبد الله السيف، الحياة الاقتصادية والاجتماعية، ص٢٧٤ .

(٢) سليمان مالكي، بلاد الحجاز، ص١٢٦ .

(٣) ناصر خسرو، رحلة ناصر خسرو، ص١٣٤،١١٢.

(٤) سليمان مالكي، بلاد الحجاز، ص١٢٦ .

(٥) أحمد السباعي، تاريخ مكة، ج١، ص٢٤٩ .

(١) أحمد السباعي , تاريخ مكة, ج١ , ص ٢٥٠.

ومن جانب أخر فقد كان المجتمع المكي يتأثرُ أحياناً في بعض العادات العراقية والمشرقية فيما يخص ارتداء الملابس وذلك عندما ينجح العباسيون في مد نفوذهم على مكة , حيث شاع في المجتمع المكي ارتداء القلنسوة تحت العمامة , وكانت تصنع من الخز , أو القطن , أو جلود الثعالب. ومن ألوانها البيضاء , والصفراء, والخضراء (١) , وكانت هذه القلانس معروفة لدى أهل العراق في العصر العباسي(٢).

أما عن بعض ألوان الملابس الرسمية فيذكر ابن جبير أن خطيب المسجد الحرام كان يلبس السواد (٣), وهو شعار الدولة العباسية , أما قاضي مكة فكان يلبس البياض (٤) ويبدو أن هذا اللون هو الغالب على لباس أهل مكة , حيث وصفهم ابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م) بقوله: "وأهل مكة لهم ظرف ونظافة في الملابس , وأكثر لباسهم البياض , فترى ثيابهم أبدا ناصعة ساطعة " (٥).

ويلبس الرجال في الغالب الجُبَّةُ , وهي بحسب نوع القماش الذي تصنع منه , فالجباب التي تصنع من الخز يلبسها في الغالب الأغنياء (١), والتي تصنع من الصوف , أو الكتان , أو القطن , يلبسها عادة الفقراء , وطلبة العلم, والزهاد من المجاورين وغيرهم(٢), ومنها الرداء وهو يلبس فوق

---

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، بيروت : دار صادر ، (د . ت) ، ج٣ ، ص٣٠.

(٢) الجاحظ , البخلاء , ص٢٧٤ .

(٣) ابن جبير، الرحلة، ص١٣٥ .

(٤) ابن جبير , الرحلة، ص١٣٨ .

(٥) ابن بطوطة , الرحلة، ص١٠١ .

(١) ابن سعد , الطبقات الكبرى , ج٥, ص ١٤١- ١٤٢.

(٢) ابن كثير , البداية والنهاية , ج١١ , ص٢٢٩ ؛ ابن خلدون , تاريخ ابن خلدون , ج٣. ص ٨٤ , أحمد السباعي , تاريخ مكة , ج١، ص٢٣٥ .

الثياب, أو فوق الإزار والقميص , ويكون من أقمشة مختلفة في النوعية واللون[١], وقد ذكر ابن جبير أن أغلب الأكسية عند أهل مكة الحرير , والكتان [٢].

أما عن النساء فكن يرتدين الخمار , وهو اللباس الشرعي بالنسبة لهن , تغطي به المرأة رأسها , ويلف حول رقبتها[٣] , ويغلب على لونه السواد وهناك الوان أخرى، وكانت الحرائر في المجتمع المكي تلبسه دون الإماء[٤], وذكر ابن المجاور , أن نساء مكة كن يلبسن القنوع والبراقع [٥], والقناع ما تغطي به المرأة رأسها ومحاسنها[٦], ويبدو أن عادة لبس القناع انتقلت إلى مكة من اليمن أو العكس , إذ يذكر ابن المجاور أيضاً أن نساء صنعاء يلبسن نفس النوع من الأقنعة التي في مكة , وهي تسمى عند أهل صنعاء بالقراقيش[١], وكانت البراقع تصنع من أقمشة مختلفة في النوع والألوان و يغلب عليها اللون الأسود[٢].

---

(١) ابن بكار , جمهرة نسب قريش , ج١ , ص٨٤ ؛ صالح العلي , الألبسة العربية في القرن الأول الهجري , بغداد: مجلة المجمع العلمي العراقي , ع١٣ , ١٣٨٥هـ/١٩٦٦م , ص ٤٧.

(٢) ابن جبير , الرحلة، ص١٠٧ , ١٣٩.

(٣) ابن منظور , لسان العرب، ج١ , ص٢٨١ ؛، ص٢٧٢ .

(٤) ابن سعد , الطبقات الكبرى، ج٥ , ص ٢٨١ ؛ صالح العلي , الألبسة العربية في القرن الأول الهجري , ص٥٦ .

(٥) المستبصر، ص٦ .

(٦) ابن منظور , لسان العرب، ج٨ , ص٣٠٠.

(١) ابن المجاور، المستبصر، ص٦ .

(٢) عبد الله السيف، الحياة الاقتصادية والاجتماعية، ص٢٧٣ .

ومن الألبسة المشتركة بين الرجال والنساء البُرنُس وهو الثوب الذي يلتصق رأسه به من الخلف , سواء كان دراعة أو جبة , وهو يصنع في الغالب من الخز[1], وعلى مايبدو أن عادة ارتداء هذا النوع من الألبسة وصلت إلى مكة من حجاج المغرب حيث يكثر ارتداءه في بلدان الشمال الأفريقي , ولا يزالون يرتدون هذا النوع من الملابس حتى يومنا هذا[2].

أما عن الأطعمة فقد عرف المجتمع المكي أنواعاً كثيرة منها خصوصاً في العصر العباسي الأول وذلك بسبب الرخاء والازدهار الاقتصادي في تلك الفترة , ومن أنواع الأطعمة الشائعة في ذلك العصر , الثريد وهو الخبز المفتوت والمبلول بالمرق الموضوع فوقه اللحم[3], وكذلك الحريرة وهي الدقيق المطبوخ باللبن أو الدسم[4], ومن الأنواع كذلك الخريرة وهي قطع من اللحم تطهى بالماء والملح ويضاف إليها الدقيق بعد نضجها [5] .وجميع هذه الأطعمة كانت شائعة في العراق وفارس ويبدو أنها انتقلت إلى مكة من هذه الأقاليم[1].

وبعد تدهور الأوضاع الاقتصادية في مكة بسبب ما خلفه التنافس الشديد بين الدولتين العباسية والعبيدية تأثر الإنتاج المحلي من الغذاء , وأصبح هناك ضعف في القوة الشرائية لدى سكان مكة وبالتالي شحت المواد

---

(١) الدينوري، الأخبار الطوال , تحقيق ، عبدالمنعم عامر وجمال الدين الشيال . القاهرة : ١٩٦٠م ، ص٢٥٨ ؛ صالح العلي , الألبسة العربية في القرن الأول الهجري , ص٦٠ .

(٢) خالد الخالدي , تنظيمات الحج ، ص٤٥٥ .

(٣) ابن سيده , المخصص , ج٥، ص١٣.

(٤) ابن منظور , لسان العرب , ج٤، ص١٨٤.

(٥) ابن سيده , المخصص , ج٤، ص١٤٥- ١٤٦.

(١) ابن بطوطة , الرحلة , ص ١٤٥ ؛ خالد الخالدي . تنظيمات الحج ، ص٤٥٦ .

الغذائية فيها وندر توفر كثير من أصناف الطعام , ووصل الأمر في بعض الأحيان إلى حدوث مجاعات متكررة وقحط شديد ونقص في المؤن , وأصبحت مكة تعتمد في غذائها بالغالب على مايجلب إليها من الدول والأقاليم المجاورة مثل مصر, والعراق , واليمن , كما أصبحت أطعمة أهل مكة بسيطة تتكون في الغالب من اللحم , واللبن , والسمن , والخبز, والتمر[١], وذكر ابن المجاور أن أهل مكة ذوو قناعة في المأكل حتى أن أحدهم يبقى على قرص خبز وقليل من السمن ثلاثة أيام بلياليها[٢], وقد امتد تأثر المجتمع المكي في شح الغذاء مدة طويلة لما سببه ذلك الصراع والتنافس بين الدولتين وانعكاسه على الأمن الغذائي فيها حتى نجد أن ابن بطوطة (ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م) الذي زار مكة بعد مدة ليست بالقصيرة من سقوط الدولة العباسية وزوال الدولة العبيدية وانقضاء التنافس يذكر أن أهل مكة لا يأكلون إلا وجبة واحدة في اليوم بعد العصر، ومن أراد الأكل في غير ذلك الوقت فإنه يأكل التمر [٣].

وفي المقابل نجد أن بعض الرحالة مثل ناصر خسرو وابن جبير يصفون عند زيارتهم مكة أنواع الأطعمة المتوفرة في أسواقها [١]، وهذا لا يعني أن تلك الأطعمة المتوفرة قد يستفيد منها المجتمع المكي خصوصاً إذا ما علمنا أن توفرها مرتبط في الغالب بالمواسم، حيث تزدحم مكة بالكثير من البشر من مختلف الأقاليم. وقد تقتصر الاستفادة من هذه الأطعمة على أولئك الزوار، والموسرين من أهل مكة.

---

(١) عبد الله السيف، الحياة الاقتصادية والاجتماعية، ص٢٨٨- ٢٨٩ .

(٢) ابن المجاور, المستبصر، ص٥ .

(٣) ابن بطوطة , الرحلة , ص ١٠٣ .

(١) ناصر خسرو، رحلة ناصر خسرو، ص١٤١ ؛ ابن جبير، الرحلة، ص٩٧ ـ ٩٩ .

٤.الزواج.

عُرف عن مجتمع مكة وخصوصاً القبلي منه مبدأ الكفاءة في التزويج في تلك الفترة، فكان الأشراف ـ في الأغلب ـ يتزوجون من قبائل أخرى، غير أنهم لا يزوجون بناتهم لغير الأشراف، حتى أهل البادية منهم [١]. فالأثرياء والتجار يزوجون نظرائهم، وكذلك الفقراء والعبيد بحيث تتزواج كل طبقة فيما بينها [٢].

وانتشر في مجتمع مكة فقهاء يجيزون زواج المتعة ويسمونها: متعة التزويج، قال ابن منظور: (المتعة التمتع بالمرأة، لا تريد إدامتها لنفسك. ومتعة التزويج بمكة منه) [٣]. ولعل هذه النوع من الزواج راجع إلى انتشار المذهب الشيعي داخل مكة خلال السيطرة العبيدية على النفوذ في مكة.

أما عن مراسم الزواج في مكة فإنها في الغالب تقام بعد موسم الحج، وتحديداً بعد العاشر من محرم، ويشير ابن المجاور إلى ما يسمى بعادة الطرح، وهي أن يقدم أحد أصدقاء وأقارب العريس له بعض المال، كل على قدر استطاعته، ويقوم هو بتسجيل ذلك المبلغ كدين عليه يوفيه لهم، وكذلك يحصل هذا مع العروس[١].

---

(١) ابن عنبة، عمدة الطالب , ص ٥٤ .

(٢) ابن قيم الجوزية، أخبار النساء . تحقيق، عكاشة عبدالمنان، بيروت : ط١، دار اليوسف، ومكتبة الإمام علي ، ٢٠٠١م، ص١٥٥ .

(٣) لسان العرب، ج٨، ص٣٢٩ .

(١) ابن المجاور، المستبصر، ص١٦ ـ ١٧ ؛ علي بن حسن بن خميس، الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الحجاز والبحرين منذ ٣٥٨ ـ ٥٦٧هـ/٩٦٨ ـ ١١٧١م "دراسة مقارنة" . (رسالة دكتوراه)، كلية الآداب، جامعة اليرموك، ٢٠٠٥م، ص١٦٣.

وجرت العادة في مراسم الزواج أن يخرج العريس للحرم فيطوف في البيت، ويصلي ركعتين خلف المقام، ويقبل الحجر الأسود، ثم يخرج من الحرم في موكب يزفه المقربون منه، والشموع تضيء بين يديه، حتى يصل إلى بيت العروس، حيث يمكث فيه سبعة أيام، ثم يخرج بمال الطرح ليستثمره في السوق [(١)]. ويتبادل أهل مكة التهاني بالزواج، ويكرم القادمون للمشاركة في مراسم الزواج بوليمة العرس، وكانت تهنئتهم الدارجة آنذاك (بالجد الأسعد، والطائر الأيمن) [(٢)].

ـ أثر الحالة الأمنية على المنشآت العمرانية في مكة.

تركت الفتن والاضطرابات السياسية التي نتجت إثر اختلال الأمن في مكة بسبب التنافس الطويل الذي دار بين العباسيين والعبيدين عليها أثراً بالغاً على النواحي العمرانية والمنشئات الاجتماعية ، فمن ناحية نجد أن المساحة العمرانية في مكة توقفت عن التوسع أو تباطأت في هذه الفترة مخالفة بذلك النمو الطبيعي لكل بلدة يتمدد عمرانها مع مرور الزمن وتنامي سكانها وحاجتهم للتعمير والإنشاء ، و نجد أن حكام مكة من الأشراف قد انصب اهتمامهم بالغالب بتحصينها أكثر من العناية بعمرانها والاهتمام بالمنشآت الاجتماعية فيها [(١)] ، حيث كانوا يبنون القلاع والحصون لرد غارات بعضهم على بعض وصد جيوش الدولتين العباسية والعبيدية التي كانت ترسل من وقت لآخر لإجبار أولئك الأمراء على الخضوع والدعوة لهما على المنابر ، وقد وصف الرحالة ناصر خسرو ما كان

---

(١) ابن المجاور، المستبصر، ص١٧ .

(٢) المزي، تهذيب الكمال، ج١٦، ص٢٨٦ .

(١) أحمد السباعي ، تاريخ مكة ، ج١، ص٢٤٦ .

عليه الأشراف من اهتمام ببناء القلاع والحصون فقال: [1] (إنهم كانوا يبنون مابين منافذ الجبال فحيثما وجدت فرجة سدوها بسور...).

كما أن الأمير هاشم بن فليته قد انفق جزءً كبيراً من أمواله على بناء حصن حداء الكبير الذي بناه لمراقبة أعدائه المتربصين به [2] , واستمر حكام مكة ممن جاء بعد فتره الدراسة بالسير على سياسة سلفهم من الأشراف في عدم الاهتمام بالعمران والمشاريع الإنمائية داخل مكة والإهتمام فقط بتحصينها , حيث تذكر بعض المصادر أن الشريف مكثر بن عيسى قام ببناء حصن على جبل أبي قبيس كلفه الكثير من المال , وقام بتزويده بكافة الاستعدادت العسكرية وذلك للتصدي لقوات العباسيين القادمة إلى مكة[3].

وكان أمراء مكة من الهواشم كثيراً ما يقفون عائقاً لمن يريد التجديد والإصلاح في مكة والمسجد الحرام وليس هناك من سبب لهذا التصرف إلا الطمع والجشع في الحصول على الأموال حيث لا يمكن لأي إنسان محب للخير أن يقوم بأي إصلاح أو ترميم في المسجد الحرام إلا بعد الحصول على موافقة مسبقة من أمير مكة وأخذ الإذن منه بذلك , ومع هذا فقد كانوا لا يعطون الإذن بالشروع في أي مشروع إصلاحي أو عمراني إلا بعد لمال لهم , وكانوا يطالبون بمبالغ ماليه خياليه حيث توازي هذه المطالب في بعض الأحيان المال الذي سيصرف على ذلك المشروع [1], مما يضطر البعض

---

(١) رحلة ناصر خسرو، ص١٤١.

(٢) ابن المجاور , المستبصر، ص٤١- ٤٢.

(٣) ابن الاثير , الكامل , ج٩، ص١٣٧.

(١) ابن جبير , الرحلة، ص١٠٤ .

إلى استخدام الحيل للحصول على موافقتهم . فتذكر المصادر أن أحد الأعاجم أراد أن يقوم بترميم بئر زمزم وتجديد قبته فعرض على الأمير فليته ذلك المشروع فأظهر رفضه لذلك ولكن هذا الرجل قام بإغرائه بمال يعادل ما سوف ينفق على المشروع فوافق الأمير طمعا في ذلك المبلغ وشرع الرجل في البناء حتى انتهى وأكمل مشروعه عندئذ غادر مكة متوجها إلى بلاده دون أن يعلم به الأمير ودون أن يحصل منه على أي مبلغ من المال[1].

وقد يستغل بعض الأشراف المشاريع الخيرية العامة الموجودة في مكة ويصادرها ويحصر الاستفادة منها لنفسه . فقد ذكر ناصر خسرو أن (ابن شاه دل) وهو أحد أمراء عدن اكتشف عين غزيرة تحت الأرض فأمر بإجرائها إلى مكة وانفق في سبيل ذلك أمولا طائلة ولكن عندما أسيلت إلى عرفة استغلها احد أمراء مكة في سقي مزارعه الخاصة وحبسها عن الناس وبنى حولها صهاريج كبيرة . ولم يصل منها إلى مكة إلا النزر اليسير[2].

ويشير ناصر خسرو أيضاًإلى الضيق الذي عانته مكة في بعض سنوات هذا العهد من جراء قلة الماء ويذكر أن أهل مكة يتخذون المصانع والأحواض لجمع الماء وكان المصنع الواحد يكلفهم عشرة ألاف دينار كما يذكر انه وجد بمكة حمامين كان بلاطهما من الحجر [1]. وقد يكونا من بقايا العصر الأموي أو العباسي الأول [2].

---

(١) ابن جبير . الرحلة، ص١٠٤- ١٠٥ .

(٢) رحلة ناصر خسرو، ص١٤٠- ١٤١.

(١) رحلة ناصر خسرو، ص١٤١.

(٢) أحمد السباعي . تاريخ مكة، ص٢٤٦.

أما عن صيانة المنشآت العمرانية فلم يكن هناك أدنى اهتمام بها في تلك الفترة وربما كانت بعض المشاريع تعطل وهي في طور البناء لم تستكمل بعد والكثير من هذه المباني يفتقد للصيانة والترميم حتى يمر عليها الزمن فتتعرض للتصدع والخراب وقد وقف الرحالة ناصر خسرو على بعض المباني التي تهدمت بفعل مرور الزمن دون أن تطولها يد الاهتمام والصيانة فقال[1]: (وقد عمر خلفاء بغداد كثيرا من الدور والمنازل في مكة المكرمة , ولكن عندما جئت إلى مكة كان بعض تلك المباني أيضا قد حل به الخراب...).

من جانب أخر لم تعدم الفائدة من بعض المشاريع العمرانية التي كان يتسابق على إقامتها خلفاء وحكام الدولتين العباسية والعبيدية من اجل التقرب للمسلمين عامة ولأهل مكة خاصة والفوز برضاهم وتأيدهم بالخطبة وإن كانت تلك المشاريع قليله مقارنة بما أُقيم من مشاريع في فترات زمنية سابقة ويغلب عليها طابع السيادة حيث كانت تزخرف وتزيين بأسماء الحكام والخلفاء من أجل التأكيد على بسط النفوذ, كما سبقت الإشارة إلى ذلك .

وكان لسلاطين السلاجقة اهتمام بخدمة الطرق وأعمارها وإقامة المشاريع فيها, ومن ذلك ما قام به الوزير السلجوقي نظام الملك من إحياء لطريق الحاج العراقي بعد ما هجر لعدة سنوات بسبب هجمات الأعراب المتكررة على قوافل الحجاج , فقام بتعميره وبناء البرك المائية فيه , وحذا حذوه في هذا العمل السلطان السلجوقي ملكشاه (ت٤٨٥هـ/١٠٩٢م) الذي

(١) رحلة ناصر خسرو، ص١٤٠.

خدم هو الآخر في هذا الميدان وأقام بعض المشاريع الخيرية على هذا الطريق[١].

ومن جهة أخرى فقد كان بعض الموسرين من أهل الخير من الأمراء والوزراء وبعض رجال البر حريصون على تقديم خدمات خيرية جليلة تخدم العلماء والمجاورين والفقراء, وكان هؤلاء في الغالب يقصدون بعملهم هذا التقرب إلى الله وطلب الأجر , وقد أشارت بعض المصادر إلى عدة مشاريع عمرانية قام بها بعض أولئك الموسرين من إقامة للأربطة وبناءً للدور أو مشاريع إصلاحية كترميم بعض المباني المتهدمة وتجديدها أو إصلاح للطرق والمنافذ ومن هؤلاء - على سبيل المثال- الحسين بن سلامة (ت٤٢٦هـ/١٠٣٤م) الذي عمر طريق الحج اليمني فيما بين الطائف ومكة حيث تخلل ذلك الطريق عقبة كئود يشق على الحجاج اجتيازها فقام بإزالتها وتعمير ذلك الطريق وتحسينه[٢].

وهناك رجل خير يدعى رامشت بن الحسين بن شيرويه بن الحسين بن جعفر الفارسي وكان من كبار التجار الفرس في مكة قام بعدة أعمال خيرية حيث عمل ميزابا للكعبة بلغ وزنه ١٤٠ رطلا[١] من الذهب , وبقي ذلك الميزاب حتى استبدله الخليفة العباسي المقتفي (٥٣٠ . ٥٥٥هـ/١١٣٥ . ١١٦٠م) , كما قام بكسوة الكعبة المشرفة وذلك حينما تعطل وصول كسوة الخليفة العباسي المسترشد بالله (٥١٢ . ٥٢٩ هـ/١١١٨ . ١١٣٤م), وقد انشأ رامشت حطيما للحنابلة في الحرم المكي وقام بالعديد من المشاريع الخيرية

---

(١)ابن الأثير، الكامل، ج ٧ ، ص ١٤٠.

(٢) ياقوت الحموي, معجم البلدان ,ج٤، ص٩.

(١) سليمان مالكي, مرافق الحج، ص٧٩.

الأخرى بمكة [1].وقام أحد الموسرين من التجار بتجديد دار الخيزران التي تحولت إلى رباط فيما بعد وأوقفت سنة٤٠٢هـ/١٠١١م[2].

ويوجد في مكة رباط القزويني ويقع قرب المسجد الحرام ويبدو أنه أوقف سنة ٥٢٩هـ/١١٣٤م ولا يعرف من الذي أوقفه بالتحديد ، وإنما شرط وقفه على جميع الرجال الغرباء المقيمين في مكة من سائر أنحاء العراق ، كما كان ينزل فيه حجاج قزوين[3].

وكان تجار بلاد الشام يتسابقون للأعمال الخيرية في مكة حيث أنشأ عدد من تجار دمشق رباطاً سموه رباط الدمشقية نسبة إلى مدينتهم ويبدو أنه أوقف سنة ٥٢٩هـ/١١٣٤م وشرط وقفه على الفقراء من أهل دمشق والعراق والعلماء والمجاورين في مكة والحجاج[4].

وقام مجموعة من تجار المغرب بتأسيس رباط المغاربة سنة ٥٦٢هـ/١١٦٦م ومكانه عند السوق الصغير المقابل للحرم وشرط وقفه على طلبة العلم الرجال دون النساء يسكنون فيه وللحجاج المغاربة حق السكن فيه فترة الموسم فقط[1]

---

(١) الفاسي، العقد الثمين ج٤، ص٣٨٥- ٣٨٦.

(٢) الرطل ، بالكسر وهو المشهور ، جمعه أرطال ، وحده وزن يسع تسعون مثقالاً وهو أنواع متعددة . (ابن الرفعة ، الإيضاح والتبيان في معرفة المثقال والميزان ، تحقيق ، محمد أحمد الخاروف ، مكة المكرمة: مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ص٥٥)..

(٣) سليمان مالكي، مرافق الحج، ص٧٧.

(٤) الفاسي، شفاء الغرام ، ج١، ص١١٠.

(١) سليمان مالكي، مرافق الحج، ص٨٠.

الخاتمة

تبيّن من خلال الأحداث أن التنافس الذي قام بين الدولتين العباسية والعبيدية لمد النفوذ في مكة, كان بالأصل تنافساً سياسياً , وقد أخذ منحى الطابع الديني عندما أصبحت مكة مركزاً له, وكان فرض النفوذ في مكة عند إحدى الدولتين وإعلان اسم الخليفة أو الحاكم بالخطبة على منابرها, ما هو إلا وسيلةٌ لإضفاء شرعيةٍ على حكم أي منها, ومن ثم كسبُ تعاطف الجماهير الإسلامية وتأييدهم, ومع مرور الوقت أخذت الدوافع لهذا التنافس ومد النفوذ في مكة تتعدد, واشتملت على دوافع أخرى كالدوافعُ الاقتصادية والاجتماعية وغيرها.

كما لمحت الدراسة لوجود تطلعاتٍ سابقةٍ لدى العبيديين لمد نفوذهم على مكة, وقد سبقت هذه التطلعات إعلان قيام دولتهم في مصر, ويتبين ذلك من خلال حرص العبيديين على خطب ودِ الأشراف, والسعي حثيثاً لحل ما يقع بينهم من مشكلات, ويدفع هذا للقول بأن هناك تخطيطاً مسبقاً قد تمَّ بين الأشراف والدولة العبيدية سبق استقلالهم بمكة, بحيث يقوم العبيديون بدعم الأشراف مادياً ومعنوياً من أجل مساعدتهم في تحقيق الاستقلالِ, ثم يرد الأشراف على هذا الجميل بإقامة الخطبة للعبيديين على منابر الحرمين.

وبما يختص بمعنى النفوذ, فقد وضّحت الدراسة حقيقته, وتبين بأنه لم يكن لدى الدولتين المتنافستين أي نيةٍ لإقامة نفوذٍ مباشرٍ لها في مكة, والدليل على ذلك أن تلك القوى المتنافسة لم تسع للمبادرة بإرسال والي من قبلها لمكة حال مد نفوذها عليها وذلك من أجل شؤونها الداخلية باسم

الدولة التي يتبع لها ، كما لم يسبق لأي من الدولتين أن وضعت حاميةً عسكريةً تابعةً لها بمكة لفترةٍ طويلةٍ, وإنما اكتفت الدولتان بذكر اسم الخليفة أو الحاكم بالخطبة ورفع شعار الدولة المنتصرة في الحج ، وبعض المظاهر الأخرى التي تدلُ على النفوذ الغير مباشر, كتعليق الشعارات في المسجد الحرام, وإسدال الكسوة التابعة للدولة المنتصرة على الكعبة, وتداول نقودها في الأسواق المكية.

أما ما يتعلق بعلاقة الأشراف حكام مكة بكلٍ من العباسين والعبيديين في تلك الفترة, فقد تبين أن تلك العلاقة يشوبها التأرجح, وكان الحزم هو السمة الغالبة في علاقة الحكام العبيديين بالأشراف, وربما يلجأ العبيديون في كثيرٍ من المواقف لاستخدام القوة مع الأشراف, ويدل على ذلك كثرة بعث الجيوش إلى مكة من قبل العبيديين وتكرار الحصار الذي يفرضونه على مكة عقب كل حادثةٍ تهدد نفوذهم فيها, كما وقف العبيديون بقوةٍ وحزمٍ أمام أطماع بعض الأشراف ممن كان لهم تخطيط مسبق للاستقلال بالحجاز عن الدولة العبيدية, وخير مثال على ذلك ما حصل لأبي الفتوح عندما شرع بإعلان خلافته على الحجاز والتخلص من تبعيته للدولة العبيدية, أما العباسيون فيغلب على علاقتهم بأشراف مكة طابع اللّين والتسامح, وذلك في بداية المراحل الأولى من تنافسهم مع العبيديين على النفوذ في مكة, إلا أن هذا الأمر قد تبدل خصوصاً عندما فرض العباسيون نفوذهم الكامل على الحجاز عقب ضعف الدولة العبيدية, فشرعوا في إرسال الجيوش إلى مكة للمساعدة على تهدئة الأوضاع المضطربة فيها, وتثبيت نفوذهم, وذلك في الفترة التي أعقبت وفاة الشريف أبي هاشم, حيث تميزت

هذه الفترة بانفلات الأمن واضطراب الأمور بسبب الخلاف الدائر بين الأشراف الهواشم المتأخرين وصراعهم على الحكم.

ومن النتائج التي خرجت بها الدراسة أيضاً طبيعة استقلال الأشراف بحكم بمكة, وهل كان ذلك الاستقلال استقلالاً حقيقياً أم أنه مرتبطٌ بنفوذ الدول المتنافسة , وبعد الوقوف على الأحداث التي أعقبت ذلك الاستقلال تبين أن الأشراف لم يكن لديهم نية في حكم مكة مستقلين استقلالاً كاملاً دون الحاجة للدعم المطلوب من إحدى الدولتين المتنافستين, اللّهم بعض المحاولات التي كان مصيرها الفشل, كمحاولة أبي الفتوح مع الدولة العبيدية.

كما تبين من خلال الدراسة ضعف الإمكانيات المساعدة على الاستقلال الناجح للأشراف بحكم مكة, من تخطيطٍ إداريٍ أو تنظيمٍ ماليٍ والتي تسهم بدورها في النجاح بإدارة شؤون الحكم, وإن وجد شيء من ذلك فلا تعدو كونها اجتهاداتٍ شخصيةٍ قد تلقى بعض النجاح المؤقت ثم تبوء في النهاية بالفشل, كما لم يعمل الأشراف جهدهم لتكوين جيشٍ عسكريٍ نظاميٍ, يحفظ استقلالهم ويحمي أرضهم, واكتفوا بإحاطة أنفسهم ببعض العبيد والحُراس الشخصيين من اجل حماية المصالح الشخصية لهم وتنفيذ بعض أطماعهم.

ومن جانب آخر فقد وقفت الدراسة على حجم المكاسب المالية والأعطيات العينية التي يتلقاها الأشراف من الدول المتنافسة على بلادهم , كما تبين من خلال الأحداث أن سياسة الأشراف تجاه الدولتين العباسية والعبيدية

كانت سياسةً يحكمها المال, حيث ارتبط صرف ولاءهم لأي من الدولتين بحجم الأعطيات والمخصصات المالية المرسلة لهم.

وأشارت الدراسة إلى دور الأشراف في تعطيل الكثير من المشاريع الإنمائية في مكة, ووقوفهم حجر عثرةٍ أمام الكثير من مشاريع الإصلاح التي تكفلت بها بعض الشخصيات من حكامٍ وأمراءٍ وتجار, وكان الطمع بالمال المخصص لهذه المشاريع وراء ذلك , مما كان له بالغ الأثر على تهالك البنية التحتية لإمارة مكة في تلك الفترة.

وتبين من خلال الدراسة ما كانت عليه طرق الحج من حالةٍ مزريةٍ وذلك بسبب انشغال الدولتين العباسية والعبيدية بالتنافس فيما بينهما وعدم الاهتمام بإصلاح حال تلك الطرق وتأمينها, مما كان له الأثر البالغ على الحجاج والتجار العابرين هذه الطرق, ومعاناتهم من الأخطار التي تتهددهم من قبل اللصوص والأعراب, كما بينت الدراسة من خلال تناولها لأوضاع طرق الحج حجم التحالفات المبرمة بين الدول الكبرى المتنافسة مع الأعراب القاطنين على جنبات تلك الطرق, وذلك من أجل ضرب مصالح بعضهم البعض, وأشارت إلى تفوق العبيديين على العباسيين في هذا الجانب وذلك من خلال تورطهم بأكثر من حادثةٍ من هذا النوع.

ومن أبرز النتائج التي توصلت لها الدراسة تلك المتعلقة بتأثير الحالة الأمنية المتردية بمكة على سلطة أميرها, وتدخل بعض الفئات في المجتمع المكي لتغيير سياسات ذلك الأمير, وتأثيرهم على الكثير من قراراته السياسية, كما كانت هذه القوى في بعض الأحيان تلعب دوراً فاعلاً في تحويل مجري بعض الأحداث المتعلقة بالنزاع على الحكم في إمارة مكة, وقد

صورت لنا الدراسة الكثير من الشواهد الدالة على ذلك, كظهور بعض الأحزاب السياسية ممثلةً ببعض الأشراف المعارضين لسياسات أمير مكة , ودخول العبيد في مكة إلى معترك السياسة وتأثيرهم على مجري بعض الأحداث السياسية فيها, ووصولهم إلى مرتبة الحكم , كما أصبح لبعض القبائل القاطنة حول مكة تدخلُ واضحٌ في السياسة المكية حيث شكلوا قوةً يستعين بها بعض الأشراف ضد خصومه ويصل من خلال دعمهم له إلى كرسي الحكم, وكان ظهور هذه القبائل على مسرح الأحداث السياسة في الفترة المتأخرة من حكم أسرة الهواشم لمكة, والتي اتسمت بكثرة النزاعات والحروب بين الأشراف بسبب الحكم.

أما عن تدخل المجاورين في تغيير بعض سياسات أمير مكة فإنها لا تتعدى في كثيرٍ من الأحيان الأمور المتعلقة بالدين , حيث لعب المجاورون في تلك الفترة دوراً شبيهاً بدور الحسبة , وتبين من خلال بعض الأحداث مدى قوتهم في فرض بعض آرائهم على أمير مكة , وإجباره على التنازل عن كثيرٍ من قراراته.

وفيما يتعلق ببعض الجوانب الدينية, فقد وضح تأثر العديد منها بالحالة الأمنية المتردية داخل إمارة مكة , ومن أبرز ذلك انقطاع الحج في كثيرٍ من السنوات بسبب الحالة المتدهورة التي كانت عليها طرق الحج, وإحاطة الأعراب المتربصين بالحجاج بجوانب تلك الطرق, أو بسبب الخلافات التي تقع بين الأشراف وحكام الدول الإسلامية في بعض الأحيان, والتي قد ينتج عنها قيام أولئك الحكام بمنع رعاياهم من التوجه إلى مكة خوفاً على أرواحهم.

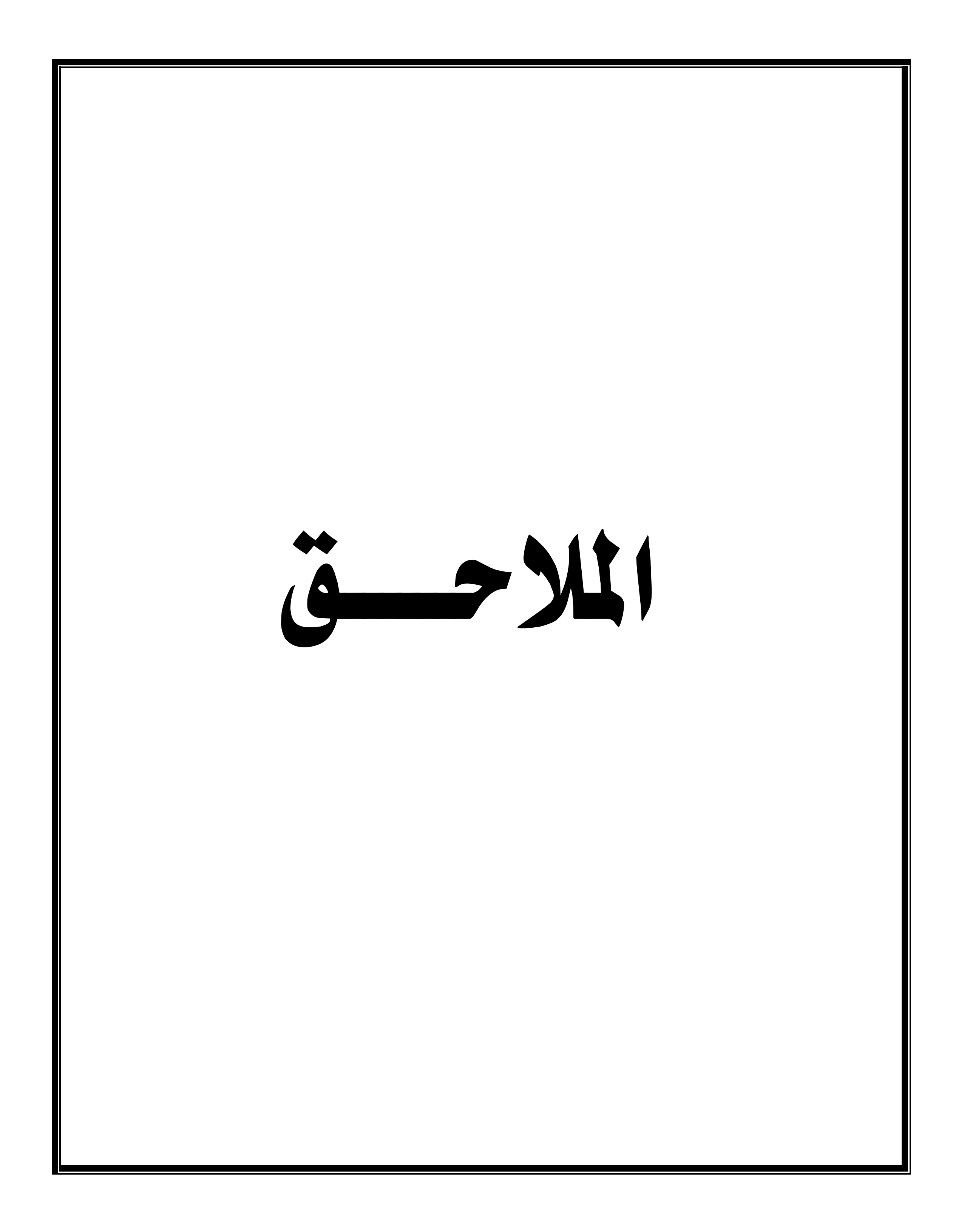
وبينت الدراسة مدى انعكاس الحالة الأمنية المتدهورة في مكة على مكانة المسجد الحرام والكعبة المشرفة في قلوب الكثير من البشر, فأصبح البعض منهم لا يوفيه حقه من التعظيم, كما لم يتورع البعض الآخر عن ارتكاب بعض المحرمات داخله, وتحولت الكعبة عند بعض حكام الدول المتنافسة من رمزٍ ديني إلى رمزٍ سياسي, تُوّشح بالسواد تارةً وتكسى بالثياب البيضاء تارةً أخرى, كما تسابق أولئك الحكام على تعليق ما يرمز إلى نفوذهم ويذكّر الناس بسلطانهم على جدران الكعبة, و نصب بعضها داخل المسجد الحرام.

ومن جانب أخر تناولت الدراسة ظاهرة تفشي البدع والخرافات في مكة, والتي جاءت كنتاجٍ واضحٍ للحالة الأمنية السيئة التي مرت بها مكة في تلك الفترة, وكذلك تسببت تلك الحالة في نشوب النزاعات المذهبية بين الفرق والطوائف المتعددة داخل مكة, وأشارت الدراسة من خلال ذلك لبعض مواقف أمراء مكة من هذا النزاع ووضّحت ميول البعض منهم.

وفيما يخص الجوانب الاقتصادية لمكة فقد صورت لنا الدراسة حجم المعاناة التي لقيها التجار في مكة, سواءٍ المحليون منهم أو الوافدون , ودور الأشراف في إعاقة النشاط التجاري, وذلك بتكرار تعديهم على أموال التجار وفرض المكوس والضرائب الباهظة عليهم, كما تسببت الحالة الأمنية المتردية بمكة في تلك الفترة بعرقلة نشاط الأسواق المكية وانحسارها, وربما اندثار بعضها, وتبين أيضا حجم تأثر المعابر التجارية البرية والبحرية بالحالة الأمنية لمكة في تلك الفترة, بسبب هجمات قطاع الطرق واللصوص والقراصنة على التجار والحجاج القادمين إلى مكة, وقد

توصلت الدراسة لنتيجةٍ مهمةٍ في هذا الجانب مفادها أن الاستقرار السياسي شرطٌ من شروط ازدهار النشاط الاقتصادي.

أما فيما يتعلق بتأثير الحالة الأمنية على بعض الجوانب الاجتماعية فقد تناولت الدراسة ما نتج عن التنافس بين الدولتين العباسية والعبيدية على مكة، من تأثر المكيين بالكثير من العادات والتقاليد التي لم يكونوا يمارسونها من قبل، والمتعلقة بالمأكل والملبس والنكاح وبعض مظاهر الحياة العامة، كما لوحظ في تلك الفترة تقلصٌ واضحٌ في أعداد المهتمين بالعلم داخل مكة، ونزوح الكثير من العلماء والمجاورين خارجها بسبب المضايقات التي يتعرضون لها من بعض أصحاب النفوذ، زد على ذلك هجرة الكثير من أهل مكة إلى الأقاليم الإسلامية الأخرى، طلباً للرزق والبحث عن مكانٍ أكثر أمناً، وقد شكلت هذه الأمور خطراً كبيراً على التركيبة السكانية للمجتمع المكي الذي تناقص بشكلٍ ملحوظٍ في تلك الفترة.



الملاحــــق

ملحق رقم (١)

كتاب الحاكم العبيدي المستنصر بالله إلى علي بن محمد الصليحي بشأن استقامة أحوال الحرم الشريف في مكة.

بخط اليد الشريفة النبوية :

بسم الله الرحمن الرحيم ... الحمد لله رب العالمين

من عبد الله ووليه: معد أبي تميم ، الإمام المستنصر بالله ، أمير المؤمنين ، ابن الظاهر لإعزاز دين الله ، أمير المؤمنين ، إلى الأمير ، الأجل ، أمير الأمراء ، شرف المعالي ، تاج الدولة ، سيف الإمام ، المظفر في الدين ، نظام المؤمنين ، علي بن محمد الصليحي ، نصره الله وأظفره .

سلام عليك: فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله "الذي" لا إله إلا هو ، ويسأله أن يصلى على جده محمد ، خاتم النبيين وسيد المرسلين ، صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين ، الأئمة المهديين ، وسلم تسليماً .

أما بعد: فالحمد لله الذي من إبداعه كل اسم ومسمى ، المرفوعة سماء كبريائه عن أن يكون للأوهام إليها مسمى ، الناظم لأمير المؤمنين في مسلك أهل الذكر من أبنائه الطاهرين –عليهم السلام –نظماً ، وهو الذكر الذي قال فيه ، سبغت منه سبحانه على عباده النعمى: "من أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى" .

يحمده أمير المؤمنين على متوالي آلائه حمداً جماً ، ويسأله أن يصلي على محمد جده خير من أوتي رسالة وعزماً ، وأولى جلاله وحكماً وعلى أبيه علي با أبي طالب ، القاسم عرى الكفر ببأسه قصماً ن القاصم ظهره بحسامه قصماً ، المرسل من كنانة الله سبحانه على أعدائه سهماً ، المحارب لرسول الله من كان له حرباً ، والمسالم من كان له سلماً ، وعلى الأئمة من ذريته من ختم الله تعالى

به النبيين ختماً ، وختم فرض مودته على الأنام ختماً ، وجعل بين المقتبسين لأنوار هدايتهم وبين ظلم الظلال ردماً .

وأنه عرض بحضرة أمير المؤمنين كتابك الوارد على أيدي رسلك - أسعد ابن عبد الله ، وعبد الله بن علي ، ومحمد بن عصيه ، ومنصور بن حميد ، وموسى بن أبي حذيفة ، وإبراهيم بن أبي سلمه -دالاً على مقامات خدمتك ، التي جرد الله فيها سيف نصره ، وأسعدك في جميعها سعادة من وفقه بطاعة ولي دهره ، وأمده بدعاء إمام عصره ، ومتضمناً الشكر لإمامك على عنايته التي جعلت شمس ميامينك من سمائها بارزة وحجة ظهورك على أعدائك بالغة ، ووقف عليه أمير المؤمنين وقوف العارف بكونك في نهار خدمته سارياً ، ومن مشارب الإخلاص في طاعته مشارياً ، وبسيف الانتماء إلى دولته ضارباً ، والله تعالى يدرعك من حسن كفاءته درعاً حصيناً ، ويفتح لأمير المؤمنين بك وعلى يديك فتحاً مبيناً ، وأمير المؤمنين يرى لأمثالكم من تميز بحسن اعتقاده ، وجاهد حق جهاده ، أن يقبل عليهم بوجه إكرامه ، ويذلل لهم قطوف ثمر أنعامه ، على كون جزيل ما يولى ، بالنسبة إلى ما أعده الله تعالى لهم من ثواب الآخرة قليلاً ، يقول الله تعالى ومن أصدق منه قيلا: "والآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً" ومن أجل ذلك رأى -وبالله توفيقه- أن يستأنف تشريفك من خلعه ، وخاص ملابسه ، بما يخلع به الزمان عليك ثوب بهائه فتخطر معه من المجد في أفخر ردائه ، ويزيد في ألقابك وسماتك ما يلوح فجوه من صدر سجل أمير المؤمنين وعنوانه ، ويبقى فخره على الدهر بتعاقب أزمانه ، ويتوخى بتجدد التشريف والتلقيب أولادك ، ويبلغك من التنويه بذكرهم مرادك ، فزاد في لقب أكبرهم ، منتجب الدولة وصفوتها ، ذا المجدين ، وفي لقب الأوسط ن منجب الدولة وغرسها ، ذا السيفين ، وفي لقب الأصغر ، نجيب الدولة وصنيعتها ، ذا الفضلين ، فصار نجيب الدولة وصنيعتها ن ذو الفضلين ، نافلة في الإحسان ، وزيادة في الفضل والامتنان ، وما خفي على أمير المؤمنين حال عقيلتك ، الحرة ، التقية ، كافلة المؤمنين ن الساعية في مصالح الدين ، أنصاباً في شعب من كان

لذكر الله تعالى مماشيا ومصاحباً ، وانتظاماً في سلك من يؤمن بالله ورسوله ويعمل صالحاً ، واهتماماً بالصالحات التي تهتم بها مثلها من الصالحات في جبر الكسير ، ومعونة الفقير ، والتحنن على الكبير من مؤمنين والصغير ن وستلقى شجر آمالها بالجزاء عن حسن أعمالها مثمراً يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، فأشكر لله تعالى أنعمه في وليك أن مد إليك بجميل الاصطناع يداً ، وإقامة وزراً من ورائك وسنداً ، وأوجدك منه ولياً مرشداً ، فجعلك جلال مجد لا يبلى أبداً ، وعضدك بإمام الهدى ، خلاف من اتخذ المضلين عضداً ، وأشدد أزرك بحسن قبوله وكفالته ، وأشرح صدرك بما ناجاك به لسان نصرته وايالته ، وأعلم أنك مادام أمير المؤمنين بصلاح شأنك كافلا ، فانك تفوز بأنوار ملكك وجمعه عاجلاً وتأكل من ثمره إذا أثمر وينعه أجلا ، بمشيئة الله تعالى وعونه ، فأما ما حملته من ألطافك التي ساقها سائق الإخلاص ، وقربات المؤمنين المتقرب بها طالبو الخلاص ، فقد جعل أمير المؤمنين القبول لها ثمناً ، وساق إليك وإليهم من صلواته وتزكيته ما يكون لهم سكناً فأما ما وصفتهم به من خلوص الاعتقاد ، وركوب متون خيل الجد في طاعتك والاجتهاد ، فقد رضي أمير المؤمنين عنهم بما أظهرته من أعلام رضاك ، وحميد مساعيهم الذي يذكرهم له اقتضاك ن ورغب إلى الله تعالى أن يزيد الباقي منهم في إيمانه ، ويتغمد الماضي بعفوه وغفرانه .

وورد إلى حضرة أمير المؤمنين كتاب صاحب مكة –حرسها الله- يذكر انك شددت معه حيازيم الجد ، بالتقوية من أمره والشد ، وشهرت في نصرته حساماً ماضي الحد ، حتى عاد جموع مراكب مراده مذلولا وغرب من انتصب لعناده مغلولا ، فاستقامت أحوال الحرم الشريف بمقارنة هجرتك لنصره وامتياز سحابه من بحرك ، وأفاض في ثناء جميل ، وشكر جزيل ، أعجب أمير المؤمنين بهما ، فاهتز طرباً لهما ، فلقد كان على قلبه لأجل الحرم الشريف من الفكر ، ما يوفي على الذكر ، ولقد فعلت فعل الموفقين في المقال والفعال ، وحللت بما أتيت عقدة الأشكال ، وتعين عليك أن تكون أنت وإياه يداً واحدة ببذل المجهود ،

فيما يرد ذلك المقام الشريف بالأمن والعمارة إلى أحسن المعهود ويقضى على ما أوقد يه على مر الأيام من نار الظلم بالخلود ، فيعود إلى ما قاله الله سبحانه: "وعهنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود" وعهد إلى صاحب مكة بأن يتخذك رداً في صلاح ما هو له ملابس ، وعهد إليك بأن لا تنزع عنك لباس ايالته الذي أنت لابس ، ينذى تبعاً لكما –على البر والتقوى– عود من جرم الله سبحانه مالس ، ويقتبس أنوار بركاته في حمى الامنه من هولها قابس وأمير المؤمنين يسأل الله تعالى أن يجعلكما من عمار حرمه ، والمتعلقين أخبارهم فرض أثارهم ، وبلغهم من التقرب إيثارهم ، وردهم نحوك معمورة بالرضا أرجاء صدورهم ، ملاقية وجوهم بشر نجاح السعي في أمورهم ، غير أنه قد استأثر الله من جملتهم محمد بن عصيه ، والله تعالى يرحمه ، فإنه واسع المغفرة لمن أدركه دعاء أمير المؤمنين وترجمه ، وما يعلمك أمير المؤمنين به أنه ندب لعمال دولته ، ووزراء مملكته ، أقدم أهلها في الخبرة بصلاحها قدماً ، وأطلقهم بالخطابة لسناً ن وبالكتابة قلماً ، والندب الذي هو جاليونس طبها ، والحال محل الحبة من قلبها: الوزير ن الجل ، أبا الفرج عبد الله بن محمد ، أدام الله عزه وأسعده ، وأحسن به الامتناع ، وتولى عنه الدفاع وعضده ، والله تعالى يبارك لأمير المؤمنين في حسن اختياره ، ويحسن المعونة لوزيره في إيراده وإصداره ، فاجعله وجهتك التي توليها في طلباتك ن والغرض الذي ترميه بمخاطباتك ومكاتباتك بإذن الله تعالى ، وقد صدر إليك من مجلسه ثبت بما حمل على أيدي رسلك وجددت النعمة في عليك .

فاعلم ذلك من رأى أمير المؤمنين ورسمه ، واعمل عليه بحكمه إن شاء الله والسلام عليك .

الحمد لله وصلواته على رسوله سيدنا محمد خاتم النبيين ، وعلى أبرار عترته الأئمة الطاهرين ، وسلامه ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

المصدر : عبدالمنعم ماجد ، السجلات المستنصرية .

ملحق رقم (٢)

كتاب الحاكم العبيدي المستنصر بالله إلى علي بن محمد الصليحي بشأن عدم الإخلال بشعائر الحرم الشريف

[ربيع الآخر سنة ٤٥٥هـ]

ومن سجل قد تمزق أوله :

وألبسك من الاختصاص أفخر لبسه ، ودعا الله سبحانه بإشادة نبأ سعدك وملاقاة النجاح لمواقع سعيك وقصدك ، وهو فاعل ذلك برحمته ، فأما ما ذكرته من حال الرجل الذي كان قد عصفت به إلى مستقرك من اليمن عاصفة القرار ، خوفاً من أن تملكه بيد الاقتدار والاقتصار ، ومصادفتك منه كفا لا يشدها ساعد ، ونفسا لا يصحبها من التوفيق مساعد ، فحين شددت بإيالتك عزمه ، وسددت لمرامي غرضه سهمه ، فصدر عزيزاً بعد أن كان ورد ذليلاً ، وأب صحيحاً عقب أن وفد عليلاً ، سدد إليك بالرماية ساعداً بك للرماية اشتدت ، ومد نحوك باعاً للمناضلة لولا إنك مددتها ما امتدت ، وانك بعد فراغك من قضاء فرض الحج أهبت به إلى أن تصلح بينه وبين بني عمه ، وتسوق الجماعة إلى الإذعان له والنزول تحت حكمه ، وعلى أن تلتزم في خالص مالك الديات عن الدماء التي سكفها ، والمغارم الثقيلة ع الحرمات التي هتكها ، لتنام عين الطوائل بينه وبين أربابها ، وأنك أشرت عليه بالمصالحة داخلاً فيها له من جميع أبوابها ، مكاتبة أولى ، ومراسلة على ألسن الثقات أخرى ، فلم تزد نار لجاجة إلا اضطراما ، من حيث أردتها برداً وسلاماً ، وكان قصارى جوابه لك التخيير بين النكوص على العقب ، أو المقام لمصابحة القنا والقضب ، وأنك بقيت متأرجحاً بين أن تبطش بحول الله وقوته باليد الطولى أو تعتمد بقلده البغي ، والفيلة إلى

بلادك ، ما هو أجدر وأولى ، إتباعا لأمثلة أمير المؤمنين السابقة ن كانت إليك ألا تخل شعائر الحرم ، ولا تلقى الله سبحانه بأن تريق فوق أرضه محجة دم ، لا سيما لمن جمعه –وإمامك- جامع الرحم ، فاستقر في نفسك أحسنهما عند الله تعالى وعند أمير المؤمنين موقعاً ، وأجملها من مطلع العقل والبصر مطلعاً ، وهو الرجوع الذي به حقن الدماء ، وسكون الدهماء ، من جهتك في العاجل ، وإن كان يقع بأسهم بينهم في الآجل وإنك لما شددت الرحال للارتحال ، وقد ملكت الأفئدة بالإحسان والأفضال ، وقعت في الناس صيحة المخاوف والأوجال ، فالحفوا بأن تقيم بين ظهرانيهم بالسؤال ، فأبيت الإجابة لضيق المجال ، فأتبعك من استطاع السبيل إلى إتباعك ليبلغ مأمناً ، والذين ألمت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ، فقد عرف أمير المؤمنين جميع ذلك ، مسدداً لأقوالك وأفعالك ، مستدلاً بغررها وأوضاحها على ما يقضي الله سبحانه به من دوام إقبالك ، فخفض عن نفسك أن ثنيت عنهم عنانك ، بعد خطابهم لك بلسان الأبراق والأرعاد ، ولا تشفق من أن يظن ضان أن رجوعك عجز أو نخب في الفؤاد ، فلا يخفى على ذى لب أن أمير المؤمنين هو الذي ثنا عنانك ، فلا وصمة عليك أن قبضت دونهم بنانك ، وأما قولك أن الفلتين المختلفتين بعد خروجك يلتقيان فيحمى فيهما وطيس الحرب ، ويكثر اختلاف الطعن بينهما والضرب ، وأنه يخشى من اختلافهما أن تدخل على الحرم يد غريبة ، فتبعد مسافة المراد في تدارك حالة وهي اليوم القريبة ، وذلك أنك إذا أمرت بالكرة عليهم فيما يصلح الفساد ، ويقوم المناد ، ركبت فيها خيل العجل ، وأقدمت أقدام الشجاع البطل ، مستعيناً بالله سبحانه ومتوكلاً عليه ن ومفوضاً لأمرك إليه ، فإن كل هذا من وجه الرأي فتعجيله أحرى ، أولاً فلا محيص عن تدبير أمر الحرم كان في

جهتك أو في جهة أخرى ، فالذي أنت عليه حق ن والذي نطقت به صدق ، ولكن لو كان للقوم أذان تعي لوعت ، أو قلوب سليمة لاستسلمت للناصح لها واتبعت غير أن مركب البغى جمح بهم لدماء تراق ، وشدة يلتف فيها الساق بالساق ن وعزيز على أمير المؤمنين أن تهتك لحرم الله ستوره ، وتنعكس أموره ، والله تعالى مأمول بحسن الكفاية برحمته ولولا تخوف أمير المؤمنين من أن يكون له في فتنة الحرم نسب ، أو يصلى بحره مثلك من هو إلى خدمته منتسب ، لأوجدك في الكره عليه الرخصة ، وأباحك أن تغتنم الفرصة وهو يقدر أنه قد التفت الفلتان ن وقضى الأمر الذي فيه تستفتيان وإذا وصل الخبر كيف كانت الطامة؟ وعما إذا انقشعت تلك الغمامة؟ ألقى إليك الأمر فيما تفعله ، ومثل ذلك إليك مما تمتثله ، وهو يقول لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً: "سيجعل الله بعد عسر يسراً": ومما يرى تعجيله في الوقت ن مكاتبة بني الحسن –عليهما السلام- معنفاً له على اعتراضهم حربك عن الصلح ، وانقباضهم عن قبول ما محصته لهم من النصح ، ومقابلتهم جميلاً بالقبح ، والأمر لهم بالإجماع على أحق المتنازعين في أمر الولاية بالأمر ، لينفذ إليه من التقليد ما يؤذن بشد الأرز ، ثم إليك يساق الحديث فيما يتقرر ، ومن تطوى به صحف الولاية وتنشر ، بإذن الله سبحانه ، وأما ماشكوته من قيام الشريف الأمير زعيم الدولة – حسين بن أحمد- عليك مؤلباً ، ولجمرات حمية الحرب في حرمك ملهباً ، من غير معرفتك لفعله سبباً ، فقد قضى أمير المؤمنين مما سولت نفسه من ذلك عجباً ، وسيكاتبه بما يكون يتنزله مؤدباً: وأما مصادقتك عبد الله بن إبراهيم بن عبد الله الحسيني شعث الحال وحللك عنه عقلة ديونه الثقال ، وأخذك له في الصحبة عند الإرتحال ، فأنت من الموفقين بحمد الله

في المقال والفعال ، وأما سؤالك في الأنعام عليه بالمؤجر له من بيت المال ، فقد وقعت الإجابة إلى السؤال .

فأعلم ذلك من رأى أمير المؤمنين ورسمه ، وتوقع كتابه بما تمتثله وتعمل بحكمه ، إن شاء الله ، والسلام عليك ورحمة الله .

وكتب في العشرة الأولى من شهر ربيع الآخر سنة خمس وخمسين وأربعمائة ن والحمد لله وحده ، وصلى الله على جدنا محمد خاتم النبيين ، وسيد المرسلين ، وعلى الأئمة من بيته الطاهرين ، وسلم تسليماً ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، ونعم المولى ، ونعم المصير .

المصدر : عبدالمنعم ماجد ، السجلات المستنصرية .

ملحق رقم (٣)

كتاب الحاكم العبيدي المستنصر بالله إلى علي بن محمد الصليحي بشأن أحوال مكة المكرمة [جمادى الأولى ٤٥٦هـ]

بخط اليد الشريفة النبوية :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين .

من عبد الله ووليه: معد أبي تميم ، الإمام المستنصر بالله ، أمير المؤمنين ، إلى الأمير ، الأجل ، الأوحد ، أمير الأمراء ، تاج الدولة ، سيف الإمام ، المظفر في الدين ، نظام المؤمنين ، علي بن محمد الصليحي نصره الله واظفره .

سلم عليك: فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ويسأله أن يصلى على جده خاتم النبيين وسيد المرسلين ، صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين ، الأئمة المهديين ، وسلم تسليماً .

أما بعد: فالحمد لله فاتح المغاليق ، وناصر أهل الحقائق ، ذي الطول السابق ، والوعد الصادق ، والمحل بأسه وسطوته بكل منابذ لأوليائه مفارق ، وباغ عليهم منافق ، الذي يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ، مذل الطاغين ، ومزيل العاصين ، وولي المؤمنين ، وجاعل العاقبة للمتقين ، القاضي للأئمة من عتره رسوله –عليه السلام- بخير ما قضى به لأحد من أهل بيت النبيين ، وعتره المرسلين ، ومختصهم من نعمه بما يعجز عن وصفه الواصفون ، القائل وقوله الحق: "ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون" .

يحمده أمير المؤمنين حمد من أجزل لديه صنيعته ن وحفظ في آبائه الطاهرين وديعته ، وأعلى حزبه وشيعته ويسأله أن يصلى على جده محمد خير رسول نزع من السمات البهيمية ، وركيهم في الصور الروحانية ، ونفعهم بالأسماع والأبصار ، وأنقذهم وكانوا على شفا حفرة من النار ، صلى الله عليه وعلى أخيه أبينا على أمير المؤمنين على بن أبي طالب ترجمان تنزيله ، وباب حكمته وتأويله ، الكاشف لحقائق الإيمان ، والقاطع لدابر أهل البغي والعدوان ، وعلى الأئمة من آلهما أعلام الدين والشهد ا ، على العالمين وسلم تسليماً . وانه عرض بحضرة أمير المؤمنين كتابان وردا منك : احدهما صدر عنك من صنعا ، بتاريخ شعبان من سنة خمس خمسين وأربعمائة، والآخر من مدينة الهجر بتاريخ شوال من هذه السنة ، يتضمن الأول منهما ذكر ما انتهى إليك عند فقولك من مكة – حرسها الله – من جال الخارجي الذي استغواه شيطانه ، ودعاه إلى مصرعه حينه وخذلانه ، وقيامه في قبائل مذحج والنخغ وعبس فانطلق لسان الغى ، ودعا دعوة الإفك والغى ، واستعصم بحصون تلك القبائل ، وانسى أن الله فوق المعاقل وما كان من دلوفك إليه في حزب الله المفلحين ، وأنصار دينه المخلصين فاستبحت حماه ، وأبدت عضواه ، وجعلته عظة للظالمين ، وعبرة للمعتبرين ، مستصحباً من عزم إمامك ما يذل لك الحزون ، ويقود إليك العصا الحرون ثم انكفأت إلى الجبال التي اقتصصت أنباءها فدوخت قللها ، وملكت معاقلها ، وحسمت غوائها ، واجتمع الكافة قبلك على سواء فيا لنصيحة إعلان بشعار الدعوة الهادية ، وانك في ثناء ذلك حتى ورد رسلك بما حبيت به من حضرة الإمامة ، وخصصت بسنائه من التشريف والكرامة ، وتلقيك ذلك بالإعظام ، وقيامك في شكر النعمة أحمد المقام ، وتصف استشراف متولي مكة – حرسها الله – إلى حلى لما لك من الأمتعة

والأقوات فانك تسخير الله تعالي وتتوخى له مقدماً للأعذار واللين في المقال أن نجح أو أثر ، وإلا حاكمته إلى الله وهو خير الحاكمين ، ثم تسأل فيما يتعلق بعبد الله بن إبراهيم الحسيني قاضي مكة بنقل خدمته إلى ولد ولده لما ذكرته من صيانته ، ووصفته من أمانته .

والثاني يشتمل على خبر إصدارك الكتاب الأول ، وما كان من اقتصاصك حال المعروف بابن عراف وكفره النعمة ، وقطعه العصمة واستبداله السيئة بالحسنة ن وما انتهت إليه حالة شيئاً شيئاً ، حتى مر شديداً طريداً ، قد سد الله في وجهه كل مسلك وطريق ، فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق ، فإنك تقفوا أثره صامداً لاستئصاله ، حاسماً لأسباب غيه وضلاله ، وما أنبأت به من وفاة أسعد بن عبد الله –رحمه الله- على خير ما درج عليه شمل بحقائق الدين ، معتصم بمناصحة أمير المؤمنين وسألته من الاسترحام "له" ولجماعة من أمثاله من السابقين الأولين ، ووقف على جميع ما قصصته وأحاط العلم بما اقتصصته ، وأكثر أمير المؤمنين من حمد الله جلت آلاؤه على ما لا يزال يعليه من حدود الدين أولياؤه ، ويخفضه من مناكب أعدائه ، ويقضى به لأنصاره من الإعزاز والنصر ، وللناكبين عن طاعته بالذل والقهر ن وألقاك أمير المؤمنين في كل ما تصرفت فيه من المقال ، وأخبرت به من تصاريف الأحوال ، موفقاً في رأيك مسدداً في مقاصدك وأنحائك ، سالكاً مناهج أوليائه الذين شرح الله بالهدى صدورهم ، ويسر للحسنى أمورهم ، عاملاً بطاعة مولاك في مقاماتك ، مستمداً من زكاة الإخلاص في ولائه ما يحفظ عليك أسباب سعادتك فلا زلت برعايته محفوظاً في الدين والنفس والحال ، آيلا من جميل صنع الله في اولاك وأخراك إلى خير مآل ، فأما

الخارجي الذي حصده سيف الحق بجهله وأبسله الله بكسبه ولأم فعله فتلك عادة الله سبحانه عند أولياء دينه وما يمدهم به من نصره وتمكينه وكفا به عظة لو كانت تنفع العظات أرج تتعطر به المحافل ويتلوه في الأندية الأفاضل والله تعالى يمدك عن خدمة مولاك وإمامك بعونه ويكلؤك في متقلبك ومثواك بعينه وأما ابن عراف الذي طبع على قلبه وأخذ عن رشده وختم له بشر خواتم الآمال واستبدل بأضواء الهدى ظلم الظلال صار من الأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً فقد اتصل بحضرة الإمامة نبؤه وقد ورد ولده مكة –حرسها الله- واجتماعه بالشريف الأمير فخر المعالي ذي المجدين –سلمه الله- وما أظهره من الإعراض عنه والحذر منه وكوتب عن أمير المؤمنين بإخماد منتحاه واستئناف ما قصده وأتاه والآن فقد أمره أمير المؤمنين بأن يقد ولد عراف إليك قود الجنيب أو يحمله على الحضرة فيكون لها فيه الرأي المصيب وأما عبد الله بن إبراهيم فقد وقع ما وصفته به أجمل مواقعه وأجيب إلى ما التمسته في ولد ولده وقد أجابك أمير المؤمنين إلى ما طلبته من الترحم على أسعد وقدم ذلك عند ذكره فطوبى له وحسن مآب إذ جعله الله ممن توفاه على نهج الأولياء المخلصين الذين تتوفاهم الملائكة طيبين فالله تعالى يصلح أحوال المؤمنين قبلك ويختصهم بخير ما أعد الله لذوي البصائر في الدين والمجتهدين في ولاء أئمتهم المجاهدين وينبغي أن تتحقق أن من مكانك من حضرة أمير المؤمنين مكين وموقعك من أثرته موقع القوي الأمين الذي أخلص لله ولوليه باطنه وظاهره وأحصد على التمسك بعصم آدابه مرائره فقد كشف بالإرشاد غطاء قلبه وبين له نهج الهدى فهو على بينه من ربه وتواصل إنهاء ما يتوقف من أنبائك لتشملك بركات أدعية إمامك وتكنفك الميامن من

خلفك وأمامك وقد خوطب رسلك بما يذكرونه لك مما يقوي نفسك ويشرح صدرك ويشد أزرك وزاد أمير المؤمنين في نعوتك: عمدة الخلافة لاعتماده عليك وسكونه إليك وشرف كريمتك بالخطاب: بالفاضلة بما ظهر من فضلها وتميزها بالدين والخصائص على أبناء جنسها ولكما مزيد من إحسان أمير المؤمنين وادنائه النافع في الدارين .

فعلم ما خاطبك به أمير المؤمنين متشرفاً بخطابه ومتجملاً بكريم جوابه وأجر على وتيرتك المرضيه في خدمته وسنتك المحمودة في مناصحته إن شاء الله والسلام عليك ورحمة الله .

وكتب لتسع خلون من جمادى الأولى من سنة ست وخمسين وأربعمائة .

والحمد لله وصلى الله على جدنا محمد رسولنا محمد رسوله خاتم النبيين وسيد المرسلين وعلى آله الطاهرين الأئمة الهادين ذرية النبوة وسلم تسليماً وحسبنا الله ونعم الوكيل .

المصدر : عبدالمنعم ماجد ، السجلات المستنصرية .

ملحق رقم (٤)

الخلفاء العبّاسيون ممن عاصر فترة أحداث الدراسة .

١- المطيع لله ٣٣٨ ـ ٣٦٣هـ/٩٤٩ ـ ٩٧٣م.

٢- الطائع لله ٣٦٣ ـ ٣٨١هـ/٩٧٣ ـ ٩٩١م.

٣- القادر بالله ٣٨١ ـ ٤٢٢هـ/٩٩١ ـ ١٠٣٠م.

٤- القائم بأمر الله ٤٢٢ ـ ٤٦٧هـ/١٠٣٠ ـ ١٠٧٤م.

٥- المقتدي بالله ٤٦٧ ـ ٤٨٧هـ/١٠٧٤ ـ ١٠٩٤م.

٦- المستظهر بالله ٤٨٧ ـ ٥١٢هـ/١٠٩٤ ـ ١١١٨م.

٧- المسترشد بالله ٥١٢ ـ ٥٢٩هـ/١١١٨ ـ ١١٣٤م.

٨- الراشد بالله ٥٢٩ ـ ٥٣٠هـ/١١٣٤ ـ ١١٣٥م .

٩- المقتفي لأمر الله ٥٣٠ ـ ٥٥٥هـ/١١٣٥ ـ ١١٦٠م .

١٠- المستنجد بالله ٥٥٥ ـ ٥٦٦هـ/١١٦٠ ـ ١١٧٠م .

١١- المستضيء بأمر الله ٥٦٦ ـ ٥٧٥هـ/١١٧٠ ـ ١١٧٩م .

ملحق رقم (٥)

الحكـام العبيديـون بمصـر

١-	المعز لدين الله	٣٤١ . ٣٦٥هـ/٩٥٢ . ٩٧٥م .
٢-	العزيز بالله	٣٦٥ . ٣٨٦هـ/٩٧٥ . ٩٩٦م .
٣-	الحاكم بأمر الله	٣٨٦ . ٤١١هـ/٩٩٦ . ١٠٢٠م .
٤-	الظاهر لإعزاز دين الله	٤١١ . ٤٢٧هـ/١٠٢٠ . ١٠٣٥م .
٥-	المستنصر بالله	٤٢٧ . ٤٨٧هـ/١٠٣٥ . ١٠٩٤م .
٦-	المستعلي	٤٨٧ . ٤٩٥هـ/١٠٩٤ . ١١٠١م .
٧-	الآمر	٤٩٥ . ٥٢٤هـ/١١٠١ . ١١٣٠م .
٨-	الحافظ	٥٢٤ . ٥٤٤هـ/١١٣٠ . ١١٤٩م .
٩-	الظافر	٥٤٤ . ٥٤٩هـ/١١٤٩ . ١١٥٤م .
١٠-	الفائز	٥٤٩ . ٥٥٥هـ/١١٥٤ . ١١٦٠م .
١١-	العاضد	٥٥٥ . ٥٦٧هـ/١١٦٠ . ١١٧١م .

ملحق رقم (٦)

حكام مكة من الأسرة الموسوية.

- جعفر بن محمد ٣٥٨ . ٣٦٥هـ/٩٦٨ . ٩٧٥م .
- عيسى بن جعفر ٣٦٥ . ٣٨٤هـ/٩٧٥ . ٩٩٤م .
- أبو الفتوح حسن بن جعفر ٣٨٤ . ٤٣٠هـ/٩٩٤ . ١٠٣٨م .
- شكر بن أبي الفتوح ٤٣٠ . ٤٥٣هـ/١٠٣٨ . ١٠٦١م .

(عقب وفاة شكر تولى أحد عبيده ويدعى طراد بن أحمد الحكم سنة٤٥٣هـ ثم قاتله أشراف بني أبي الطيب السليمانيين واستولوا على الحكم إلى سنة ٤٥٤هـ وولوا محمد بن أبي الطيب بن عبد الرحمن) .

ملحق رقم (٧)

حكام مكة من أسرة الهواشم ممن عاصروا فترة أحداث الدراسة.

- أبو هاشم محمد بن جعفر ٤٥٦ ـ ٤٨٧هـ/١٠٦٣ ـ ١٠٩٤م .
- قاسم بن أبي هاشم ٤٨٧ ـ ٥١٨هـ/١٠٩٤ ـ ١١٢٤م .
- فليتة بن قاسم ٥١٨ ـ ٥٢٧هـ/١١٢٤ ـ ١١٣٢م.
- هاشم بن فليتة ٥٢٧ ـ ٥٤٩هـ/١١٣٢ ـ ١١٥٤ .
- قاسم بن هاشم ٥٤٩ ـ ٥٥٦هـ/١١٥٤ ـ ١١٦٠ .
- عيسى بن فليتة ٥٥٦ ـ ٥٧٠هـ/١١٦٠ ـ ١١٧٤هـ .

الخرائـــط

خارطة رقم (١)

موقع إمارة مكة والقرى المحيطة بها.

المصدر: أحمد عمر الزيلعي , مكة وعلاقاتها الخارجية ,ص٢١٧.

خارطة رقم (٢)

تخطيط مكة والمشاعر المقدسة.

المصدر: أحمد عمر الزيلعي , مكة وعلاقاتها الخارجية, ص٢١٩.

خارطة رقم (٣)

طرق الحج في شبة الجزيرة العربية.

المصدر: أحمد عمر الزيلعي , مكة وعلاقاتها الخارجية, ص٢٢٠.

خارطة رقم (٤)

طرق الحج العراقية.

المصدر: خالد الخالدي , تنظيمات الحج ,ص٥٤٣ .

خارطة رقم (٥)

طريق الحج الشامي.

المصدر: خالد الخالدي , تنظيمات الحج ,ص٥٤٤ .

خارطة رقم (٦)

طرق الحج المصرية.

المصدر: خالد الخالدي , تنظيمات الحج ,ص٥٤٥ .

خارطة رقم (٧)

طريق الحج اليمني.

المصدر: خالد الخالدي , تنظيمات الحج ,ص٥٤٦ .

قائمة

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر المخطوطة.

الخزرجي، أبو الحسن علي بن الحسن (ت ٨١٢هـ/١٤٠٩م).

- **العسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك**. نسخة مصورة عن وزارة الأعلام والثقافة، الجمهورية العربية اليمنية ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
- **العقد الفاخر الحسن في طبقات أعيان أهل اليمن**. قسم المخطوطات، المكتبة المركزية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، رقم ٥٧١٣ ميكروفلم.
- **الكفاية والأعلام فيمن ولي اليمن في الإسلام**. قسم المخطوطات، المكتبة المركزية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، رقم (١٠١٢٥) ميكروفلم.

العجيمي، حسن بن علي بن يحيى المكي (ت١١١٣هـ/١٧٠١م) .

- **خبايا الزوايا**. (مخطوط)، مكتبة الحرم المكي، رقم (٧) تراجم دهلوي

الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد (ت ٨٣٢هـ/١٤٢٨م).

- **عجالة القرى للراغب في تاريخ أم القرى**. مكتبة عارف حكمت، المدينة المنورة، رقم ١٤٨/٩٠٠.

مؤلف مجهول.

- **تاريخ الدولة العباسية**. قسم المخطوطات، المكتبة المركزية، الجامعة الأردنية، عمان، رقم ٤١ ميكروفلم.

مؤلف مجهول.

- **نزهة الأنام**. (مخطوط) دار الكتب المصرية، رقم (١٧٤٠)

يحيى بن الحسين، يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد (ت حوالي ١١٠٠هـ/١٦٨٨م).

- **أنباء الزمن في تاريخ اليمن**. (مخطوط)، الجامع الكبير، صنعاء.

ثانياً: المصادر المطبوعة.

ابن الأثير، عز الدين علي بن محمد (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م).

- **الكامل في التاريخ**. بيروت: ط٤، دار الكتاب العربي، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

الأدريسي: محمد بن محمد بن عبيد الله بن علي (ت ٥٦٠هـ/١١٦٤م).

- **نزهة المشتاق في أختراق الآفاق**. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، (د، ت).

الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد (ت حوالي ٢٥٠هـ/٨٦٣م).

- **أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار**. تحقيق، رشدي الصالح ملحس، بيروت: دار الأندلس، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

الإسفراييني، سعد الله بن عمر (ت٧٨٦هـ/١٣٨٥م).

- **زبدة الأعمال**. مكة المكرمة: ط١، مكتبة نزار مصطفى الباز، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦هـ/٨٧٠م).

- **صحيح البخاري**. تحقيق، مصطفى ديب البغا، بيروت: ط٣، دار ابن كثير، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

ابن بطوطة، محمد بن عبد الله المغربي (ت٧٧٩هـ/١٣٧٨م).

- **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (رحلة ابن بطوطة)**، بيروت: دار بيروت، ١٤٠٠هـ

ابن بكار، الزبير (ت٢٥٦هـ/ ٨٧٠م).

- **جمهرة نسب قريش**. تحقيق، محمود محمد شاكر. القاهرة: مطبعة المدني، ١٣٨١هـ.

البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي (ت ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م).

- **المسالك والممالك**. تحقيق، أدريان فان ليوفن وأندري فيري. تونس: الدار العربية للكتاب والمؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، ١٩٩٢م.

التجيبي، القاسم بن يوسف السبتي (ت٧٣٠هـ/١٣٢٩م).

- **مستفاد الرحلة والاغتراب**. تحقيق، عبد الحفيظ منصور، تونس: ١٣٩٥هـ.

ابن تغري بردي، أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي(ت ٨٧٤هـ/ ١٤٧٠م)

- **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**. نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م.

ابن جبير، محمد بن أحمد الكناني الأندلسي (ت٦١٤هـ/١٢١٧م).

- **رحلة ابن جبير (تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار)**. بيروت: دار بيروت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

الجرجاني ، علي بن محمد الشريف (ت ٨١٦هـ- ١٤١٣هـ) .

- **التعريفات** . بيروت : مكتبة لبنان ، ١٩٨٥م .

الجزيري: عبد القادر بن محمد عبد القادر (ت ١٢٩٥هـ/١٨٧٨م)

- **الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطرق مكة المعظمة**. تحقيق، حمد الجاسر، الرياض: ط١، دار اليمامة للبحث والنشر والترجمة - ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت ٥٩٧هـ/١٢٠٠م).

- **مثير العزم الساكن إلى أشرف الأماكن**. تحقيق، مرزوق علي إبراهيم، الرياض: ط١، دار الراية، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

- **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**. تحقيق، محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا. بيروت: ط١، دار الكتب العلمية، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

الجوهري، إسماعيل بن حماد (ت ٣٩٣هـ/١٠٠٣م).

- **الصحاح**. بيروت: ط٣، دار العلم للملايين، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

الحازمي , محمد بن موسى (ت٥٨٤هـ/١١٨٧م) .

- **الأماكن أو ما اتفق لفظه وافترق مسماه من الأمكنة** . تحقيق , حمد الجاسر , الرياض: ط , دار اليمامة ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م

الحاكم النيسابوري ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت ٤٠٥هـ/١٠١٤م) .

- **تاريخ نيسابور "طبقة شيوخ الحاكم"** , تحقيق , مازن عبد الرحمن البيروتي , بيروت : ط١, دار البشائر الإسلامية ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

ابن حبان، محمد بن حبان البستي (ت ٣٥٤هـ/٩٦٥م).

- **مشاهير علماء الأمصار**. عُني بتصحيحه م. فلايشهمر، بيروت: دار الكتب العلمية، (د، ت).

ابن حجر العسقلاني: أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م).

- **فتح الباري شرح صحيح البخاري**. تحقيق، محب الدين الخطيب، بيروت: دار المعرفة، (د. ت).

ابن حزم، علي بن أحمد الظاهري الأندلسي (ت ٤٥٦هـ/١٠٦٣م).

ـ جمهرة أنساب العرب. بيروت: ط١، دار الكتب العلمية، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

الحسيني ، علي بن ناصر (ت٦٢٢هـ/١٢٢٤م) .

ـ زبدة التواريخ (أخبار الأمراء والملوك السلجوقية) . تحقيق ، محمد نور الدين . بيروت : ط١ ، دار إقرا ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

الحموي، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م).

ـ معجم الأدباء، " المسمى " إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ". بيروت: ط١، دار الكتب العلمية، ١٤١١هـ / ١٩٩١م.

ـ معجم البلدان. بيروت: دار صادر ودار بيروت، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

ابن حنبل، أحمد بن محمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ/٨٥٥م).

ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل. مصر: مؤسسة قرطبة.

ابن حوقل، محمد بن علي النصيبي (ت ٣٦٧هـ/٩٧٩م).

ـ صورة الأرض. بيروت : دار مكتبة الحياة، ١٩٧٩م.

ابن خرداذبة ، عبيد الله بن عبد لله الخراساني (ت ٣٠٠هـ/٩١٢م) .

ـ المسالك والممالك . ليدن: ١٨٨٩م .

الخطيب البغدادي، أحمد بن علي بن ثابت (ت ٤٦٣هـ/١٠٧٠م).

ـ تاريخ بغداد. بيروت: دار الكتب العلمية، (د، ت).

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٦م).

ـ تاريخ ابن خلدون " المسمى " ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر ". تحقيق، خليل شحاتة. بيروت: ط١، دار الفكر، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم (ت٦٨١هـ/١٢٨٢م).

- **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**. تحقيق، إحسان عباس. بيروت: دار الثقافة، (د، ت).

ابن خياط: خليفة بن خياط العصفري (ت ٢٤٠هـ/٨٥٤م).

- **تاريخ خليفة بن خياط**. تحقيق، أكرم ضياء العمري. بيروت: ط٢، دار القلم، دمشق، مؤسسة الرسالة، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.

الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام (ت ٢٥٥هـ/٨٦٨م).

- **سنن الدارمي**. تحقيق، فواز أحمد زمرلي , خالد السبع العلمي، بيروت: ط١، دار الكتاب العربي، ١٤٠٧هـ.

ابن الديبع، عبد الرحمن بن علي (ت٩٤٤هـ/١٥٣٧م).

- **قرة العيون بأخبار اليمن الميمون**. تحقيق، محمد بن علي الأكوع، القاهرة: المطبعة السلفية ومطبعة السعادة، (د. ت).

الدينوري، أحمد بن داود (ت٢٨٢هـ/٨٩٥م) .

- **الأخبار الطوال** . تحقيق ، عبدالمنعم عامر وجمال الدين الشيال . القاهرة : ١٩٦٠م

الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م).

- **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**. تحقيق. عبد السلام تدمري. بيروت: ط١، دار الكتاب العربي، ١٤١١هـ/١٩٩٠م.

- **تذكرة الحفاظ**. بيروت: دار الكتب العلمية، (د، ت).

- **سير أعلام النبلاء**. مجموعة من المحققين، إشراف، شعيب الأرناؤوط، بيروت: ط٧، مؤسسة الرسالة، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

- **العبر في خبر من غبر**. تحقيق: محمد السعيد بن بسيوني زغلول. بيروت: ط١، دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

الرشيدي، أحمد (ت١١٧٨هـ/١٧٦٤م) .

- **حسن الصفا والابتهاج بذكر من ولي إمارة الحاج**. تحقيق ، ليلى عبداللطيف أحمد ، القاهرة ، مكتبة الخانجي ، ١٩٨٠م .

ابن الرفعة , محمد بن أحمد الأنصاري (ت ٧١١هـ/١٣١١م) .

- **الإيضاح والتبيان في معرفة المثقال والميزان ,** تحقيق , محمد أحمد الخاروف, مكة المكرمة: مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

الروذراوري، أبو شجاع محمد بن الحسين (ت ٤٨٨هـ/١٠٩٥م).

- **ذيل تجارب الأمم**. اعتنى به، هـ. ف. آمدرور، القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، (د. ت).

الزهري، محمد بن أبي بكر (عاش أواسط ق٦هـ/١٢م).

- **كتاب الجغرافية**. تحقيق، محمد حاج صادق، بور سعيد: مكتبة الثقافة الدينية، (د. ت).

السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢هـ/١٤٩٦م).

- **التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة**. عني بنشره، أسعد طرابزوني الحسيني، القاهرة: ١٣٩٩-١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع (ت٢٣٠هـ/٨٤٤م) .

- **الطبقات الكبرى**. بيروت : دار صادر ، (د . ت).

السلمي: محمد بن الحسين (ت ٤١٢هـ/١٠٢١م).

- **طبقات الصوفية**. تحقيق: نور الدين شريبة.، القاهرة: ط٣، مكتبة الخانجي ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

السنجاري، علي بن تاج الدين المكي (ت ١١٢٥هـ/١٧١٣م).

- **منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم**. تحقيق، جميل عبد الله المصري وآخرون. مكة المكرمة: ط١، مركز إحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

الشافعي، محمد بن إدريس (ت ٢٠٤هـ/٨١٩م).

- **مسند الإمام الشافعي**. بيروت: دار الكتب العلمية، (د. ت).

الطبري، علي بن عبد القادر (ت١٠٧٠هـ/١٦٥٩م) .

- **الأرج المسكي في التاريخ المكي**. تحقيق، أشرف أحمد الجمال. مكة المكرمة: ط١، المكتبة التجارية، ١٤١٦هـ١٩٩٦م.

الطبري: محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م).

- **تاريخ الأمم والملوك**. تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم. بيروت: ط٣، دار سويدان، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.

ابن ظهيرة، جمال الدين محمد بن محمد القرشي (ت٩٨٦هـ/١٥٧٨م).

- **الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف**. بيروت: المكتبة الشعبية، ط٤، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.

العصامي، عبد الملك بن حسين (ت١١٠١هـ/١٦٩٠م).

- **سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي**. القاهرة: المطبعة السلفية، (د. ت).

أبو العلاء المعري، أحمد بن عبد الله بن سليمان القضاعي (ت٤٤٩هـ/١٠٥٧م) .

ـ **لزوم ما لا يلزم**. بيروت: ١٩٦١م

العلوي ، علي بن محمد (ت بعد ٣٢٧هـ/٩٣٨م) .

ـ **سيرة الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين** . تحقيق ، سهيل زهار ، بيروت : ط٢ ، دار الفكر ١٤٠١هـم١٩٨١م .

ابن العماد الحنبلي، أبو الفتح عبد الحي بن العماد (ت ١٠٨٩هـ/١٦٧٨م):

ـ **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**. تحقيق، لجنة إحياء التراث العربي بدار الآفاق الجديدة، بيروت: منشورات دار الآفاق الجديدة، (د. ت).

عمارة اليمني، نجم الدين عمارة بن علي اليمني (ت ٥٦٩هـ/١١٧٣م)،

ـ **تاريخ اليمن، المسمى " المفيد في أخبار صنعاء وزبيد** ". تحقيق وتعليق، محمد ابن علي الأكوع، صنعاء: ط٣، المكتبة اليمنية للنشر والتوزيع، ١٩٨٥م.

ـ **النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية**. تحقيق، هرتويغ درنبرغ، القاهرة: ط٣، مكتبة مدبولي، ١٤١١هـ/١٩٩١م.

العمري، أحمد بن يحي ابن فضل الله (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٩م).

ـ **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (دولة المماليك الأولى)**، تحقيق، دوروتيا كرافولسكي. بيروت: ط١، المركز الإسلامي للبحوث، ١٤٠٧هـ/١٩٨١م.

ابن عنبة، أحمد بن علي بن عنبة (ت٨٢٨هـ/١٤٣٥م).

ـ **عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب**، بيروت: دار مكتبة الحياة، (د. ت).

ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا الرازي (ت٣٩٥هـ/١٠٠٧م).

ـ **مجمل اللغة**. تحقيق، زهير سلطان، بيروت: ط٢، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد بن علي (ت ٨٣٢هـ/١٤٢٩م).
- **شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام**. تحقيق، د. عمر عبد السلام تدمري، بيروت: ط١، دار الكتاب العربي، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
- **العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين**. تحقيق، فؤاد سيد، بيروت: ط٢، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

الفاكهي، محمد بن إسحاق (ت بعد ٢٧٢هـ / ٨٨٥م).
- **أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه**. تحقيق، عبد الملك بن دهيش، بيروت: ط٢، دار خضر، ١٤١٤هـ.

أبو الفدا، الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل (ت ٧٣٢هـ/١٣٣٢م).
- **المختصر في أخبار البشر "تاريخ أبي الفدا"**، بيروت: دار المعرفة، (د. ت).

ابن الفرات، محمد بن عبد الرحيم (ت٨٠٧هـ/١٤٠٥م).
- **تاريخ ابن الفرات**. تحقيق، حسن الشماع وأخرون. بغداد: جامعة بغداد، (د.ت).

أبو الفرج الأصبهاني: علي بن الحسين بن محمد (ت ٣٥٦هـ/٩٦٦م).
- **مقاتل الطالبيين**. تحقيق: السيد أحمد صقر، بيروت: دار المعرفة، (د، ت).

ابن الفرضي: عبد الله بن محمد (ت ٤٠٣هـ/١٠١٢م).
- **تاريخ علماء الأندلس**. تحقيق: إبراهيم الإبياري. بيروت: ط١، دار الكتب الإسلامية، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

ابن فضل الطبري، محمد بن علي (ت١١٧٣هـ/١٧٦٧م).
- **إتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بني الحسن**. تحقيق، محسن محمد حسن سليم، القاهرة: دار الكتاب الجامعي، (د. ت).

ابن الفقيه، أحمد بن محمد (ت ٢٩٠هـ/٩٠٢م).

- **مختصر كتاب البلدان**. ليدن: ١٣٠٢هـ.

ابن فهد، عز الدين عبد العزيز بن عمر بن محمد المكي (ت ٩٢٢هـ/١٥١٦م).

- **غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام**. تحقيق، فهيم محمد شلتوت. مكة المكرمة: ط١، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

ابن فهد، النجم عمر بن فهد بن محمد المكي (ت ٨٨٥هـ/١٤٨٠م).

- **إتحاف الورى بأخبار أم القرى**. تحقيق، فهيم محمد شلتوت، مكة المكرمة: ط١، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م.

الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت ٨١٧هـ/١٤١٥م).

- **القاموس المحيط**. بيروت: مؤسسة الرسالة، (د. ت).

الفيومي، محمد بن أحمد (ت٧٧٠هـ/١٣٦٨م) .

- **المصباح المنير** . تحقيق , يوسف الشيخ محمد , بيروت : ط٢, المكتبة العصرية ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

قدامة بن جعفر ، قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي (ت٣٣٧هـ/٩٤٨م) .

- **الخراج وصنعة الكتابة** (**المنزلة الخامسة**) . تحقيق ، طلال جميل الرفاعي ، مكة المكرّمة : ط١ ، مكتبة الطالب الجامعي ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .

القرطبي، عريب بن سعيد القرطبي (ت٣٧٠هـ/ ٩٨٠م) .

- **صلة تاريخ الطبري** (**ذيول تاريخ الطبري**). تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم. بيروت: ط٣، دار سويدان، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م .

القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م).

ـ **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**. شرحه وعلق عليه، محمد حسين شمس الدين، بيروت: ط١، دار الكتب العلمية، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

ـ **قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان**. تحقيق، إبراهيم الأبياري، القاهرة: ط١، دار الكتب الحديثة، ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م.

ـ **مآثر الإنافة في معالم الخلافة**. تحقيق، عبد الستار أحمد فراج، بيروت: ط١، عالم الكتب، ١٩٦٤م.

ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب (ت ٧٥١هـ/١٣٥٠م).

ـ **أخبار النساء**. تحقيق، عكاشة عبدالمنان، بيروت: ط١، دار اليوسف، ومكتبة الإمام علي ، ٢٠٠١م.

ـ **زاد المعاد في هدي خير العباد**. تحقيق، شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط. بيروت: ط١٤، مؤسسة الرسالة، الكويت: مكتبة المنار الإسلامية، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م.

ابن كثير، عماد الدين إسماعيل بن عمر الدمشقي (ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م).

ـ **البداية والنهاية**. تحقيق، د. أحمد أبو ملحم ورفاقه. بيروت: ط١، دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

ـ **تفسير القرآن العظيم**. بيروت: دار الفكر، ١٤٠١هـ.

ـ **النهاية في الفتن والملاحم**، بيروت: ط٢، ١٤١١هـ/١٩٩١م

الكندي ، محمد بن يوسف (ت٣٥٠هـ/٩٦١م) .

ـ **ولاة مصر** . بيروت : ط١ ، مؤسسة الكتب الثقافية ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م

ابن ماجة، محمد بن يزيد القزويني (ت٢٧٣هـ/٨٨٦م) .

سنن ابن ماجة. تحقيق، محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار الفكر.

الماوردي، علي بن محمد بن حبيب (ت٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م).

- **الأحكام السلطانية والولايات الدينية**. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

ابن المجاور،.... بن محمد بن مسعود (ت بعد ٦٢٦هـ/١١٢٩م).

- **صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز، المسمى (تاريخ المستبصر)**. تحقيق، أوسكار لوفغرين، ليدن: مطبعة بريل، ١٩٣٦م.

مسكويه ، أحمد بن محمد المعروف بمسكويه (ت٤٢١هـ/١٠٣٠م) .

- **تجارب الأمم وتعاقب الهمم** . اعتني به : هـ . ف . آمدروز ، القاهرة : دار الكتاب الإسلامي ، (د . ت) .

مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري (ت٢٦١هـ/٨٧٤م).

- **صحيح مسلم**. تحقيق، محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، (د، ت).

المقدسي، محمد بن أحمد البشاري (ت ٣٧٥هـ/٩٨٥م).

- **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**. تحقيق، محمد مخزوم، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م.

المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م).

- **اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا**. تحقيق، جمال الدين الشيال، القاهرة: ط٢، وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

- **السلوك لمعرفة دول الملوك**. تحقيق، محمد مصطفى زيادة، القاهرة: ١٣٧٦هـ/١٩٥٦م.
- **المقفى الكبير**. تحقيق، محمد البعلاوي. بيروت: ط١، دار الغرب، ١٤١١هـ/١٩٩١م.

ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي (ت ٧١١هـ/١٣١١م).

- **لسان العرب**. بيروت: ط١، دار صادر، (د، ت).

مؤلف مجهول: عاش في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي.

- **حدود العالم من المشرق إلى المغرب**. تحقيق، يوسف الهادي. القاهرة: ط١، الدار الثقافية للنشر، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.

ابن ميسر، محمد بن علي بن يوسف (ت٦٧٧هـ/١٢٧٨م).

- **المنتقى من أخبار مصر**، تحقيق، أيمن فؤاد سيد، القاهرة: المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، (د. ت).

ناصر خسرو: ناصر علوي خسرو القبادياني (ت ٤٨١هـ/١٠٨٨م).

- **سفر نامة "رحلة ناصر خسرو القبادياني** ". ترجمة وتقديم: د. أحمد خالد البدلي، الرياض: ط١، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، ١٤٠٣هـ/ ١٢٨٣م.

النهروالي، قطب الدين محمد بن أحمد (ت ٩٩٠هـ/١٥٨٥م).

- **الإعلام بأعلام بيت الله الحرام**. تحقيق، هشام عبد العزيز عطا. مكة المكرمة: المكتبة التجارية، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

النووي، يحيى بن شرف (ت ٦٧٦هـ/١٢٧٧م).

- **الإيضاح في مناسك الحج والعمرة**. مكة المكرمة: ط٤، مكتبة أنس بن مالك، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

- **تهذيب الأسماء واللغات**. بيروت: ط١، دار الفكر ١٩٩٦م.

ابن هشام : عبد الملك بن هشام الحميري (ت ٢١٨هـ/٨٣٣م) .

- **السيرة النبوية** . تحقيق : مصطفى السقا ورفاقه . دار الكنوز الأدبية ، القاهرة ، (د ، ت) .

الهمداني، الحسن بن أحمد بن يعقوب (ت بعد سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م).

- **صفة جزيرة العرب**. تحقيق، محمد بن علي الأكوع، الرياض: دار اليمامة، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م.

اليافعي، عبد الله بن أسعد بن علي المكي (ت ٧٦٨هـ/١٣٦٦م).

- **مرآة الجنان وعبرة اليقظان**. القاهرة: ط٢، دار الكتاب الإسلامي، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

اليعقوبي، أحمد بن واضح (ت٢٨٤هـ/٨٩٧م).

- **البلدان** ، تحقيق ، محمد أمين ضناوي . بيروت : ط١ ، دار الكتب العلمية ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م .

- **تاريخ اليعقوبي**. بيروت: دار بيروت، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

<u>ثالثاً</u>: المراجع العربية .

إبراهيم أحمد المقحفي.

- **معجم المدن والقبائل اليمنية**. صنعاء: دار الكلمة، ١٩٨٥م.

أحمد إبراهيم الشريف.

- **مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول**. القاهرة: دار الفكر، ١٩٦٧م.
- **دور الحجاز في الحياة السياسية العامة في القرنين الأول والثاني للهجرة** . القاهرة: دار الفكر العربي (د. ت) .

أحمد زيني دحلان.

- **خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام**. القاهرة: المطبعة الخيرية، ١٣٠٥هـ.

أحمد بن صالح الصباغ.

- **تحصيل المرام في أخبار البيت الحرام والمشاعر العظام ومة والحرم وولاتها الفخام**. تحقيق، عبد الملك بن دهيش، مكة المكرمة: ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.

أحمد عمر الزيلعي.

- **مكة وعلاقاتها الخارجية** (٣٠١ - ٤٨٧هـ). الرياض: ط١، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الرياض ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

أحمد كمال الدين حلمي .

- **السلاجقة في التاريخ والحضارة** . الكويت : ط٢ ، مكتبة ذات السلاسل ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ، ص٢١ ـ ٢٦) .

أحمد بن محمد السباعي.

- **تاريخ مكة : دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران** . الرياض : الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة ، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.

إسماعيل بن علي الأكوع .

- **الزيدية : نشأتها ، معتقداتها** . صنعاء : ط٢ ، مكتبة الجيل الجديد ، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.

أمينة بيطار.

- **موقف أمراء العرب بالشام والعراق من الفاطميين حتى أواخر القرن الخامس الهجري**. دمشق: ط١، دار دمشق، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م

أنور الرفاعي .

- **الإسلام في حضارته ونظمه** . دمشق : ط٢ ، دار الفكر ، ١٤٠٢هـ/١٩٩٢م .

أيمن فؤاد سيد.

- **تاريخ المذاهب الدينية في بلاد اليمن حتى نهاية القرن السادس الهجري**. بيروت: ط١، الدار المصرية اللبنانية، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م

جميل حرب محمود حسين.

- **الحجاز واليمن في العصر الأيوبي**. جدة: دار تهامة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

جيرالد دو غوري.

- **حكام مكة**. ترجمة، محمد شهاب. القاهرة: ط١، مكتبة مدبولي، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

الحبيب الهيلة (الدكتور).

- **التاريخ والمؤرخون في مكة من القرن الثالث الهجري إلى القرن الثالث عشر**. ط١، لندن: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ١٩٩٤م.

حسن إبراهيم حسن.

- **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي**. القاهرة: ط٧، ١٩٦٤م.

حسين عبدالعزيز شافعي .

- **الأربطة في مكة منذ البدايات حتى نهاية العصر المملوكي** . جدة : مؤسسة الفرقان ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م .

حسين بن فيض الله الهمداني.

- **الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن من سنة ٢٦٨ ـ ٦٢٦هـ**. صنعاء: ط٣، منشورات المدينة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م

حسين مؤنس .

- **تاريخ قريش** ، جدة : ط١ ، ١٩٨٨م .

حمد الجاسر .

- **المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية** ، الرياض: دار اليمامة , (د.ت) .

حمود ضاوي القثامي .

- **شمال الحجاز** . بيروت: ط٢ , دار العصر الحديث للنشر والتوزيع ١٤١٢هـ/١٩٩١م

خالد عزام الخالدي.

- **تنظيمات الحج وتأثيراته في الجزيرة العربية خلال العصر العباسي (١٣٢ ـ ٦٥٦هـ/٧٥٠ ـ ١٢٥٨م)**. الرياض: الجمعية التاريخية السعودية (سلسلة بحوث تاريخية)، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

خليل إبراهيم ملا خاطر (الدكتور).

- **مكانة الحرمين الشريفين عند المسلمين**. جدة: ط١، دار القبلة الإسلامية، دمشق: مؤسسة علوم القرآن، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

خير الدين الزركلي.

- **الأعلام** . بيروت: ط١١، ١٩٩٥م.

- **معجم قبائل العرب القديمة والحديث**. بيروت: ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م

رجب عبدالجواد ابراهيم .

- **ألفاظ الحضارة في القرن الرابع الهجري (دراسة في ضوء مروج الذهب للمسعودي)**, بيروت: ط١ , دار الآفاق العربية ١٤٢٣هـ /٢٠٠٣م

رضوان أحمد مصلح الليث .

- **دراسات في تاريخ دول المشرق الإسلامي في العصر العباسي** . صنعاء : ط١ ، مكتبة الإحسان ، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م .

ستانلي لين بول.

- **الدول الإسلامية**. ترجمة، محمد صبحي فزرات، دمشق: مكتب الدراسات الإسلامية، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م.

سعد حسين عثمان وعبدالمنعم إبراهيم الجميعي .

- **الاعتداءات على الحرمين الشريفين عبر التاريخ**. ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

سعد عودة الردادي.

- **أمن الحج قبل العهد السعودي**. المدينة المنورة: ط١، دار المآثر، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

سليمان الخرابشة .

- **التنافس السلجوقي الفاطمي على بلاد الحجاز وإمرة الحج** . إربد : عمادة البحث العلمي والدراسات العليا ، جامعة اليرموك ، ١٩٩٩م.

سليمان عبد الغني مالكي.

- **بلاد الحجاز منذ بداية عهد الأشراف حتى سقوط الخلافة العباسية في بغداد**. الرياض: مطبوعات دار الملك عبدالعزيز، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
- **مرافق الحج والخدمات المدنية للحجاج**. الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٠٨هـ/١٩٩٨م.

سهيل زكار.

- **أخبار القرامطة في الأحساء والشام والعراق واليمن**. الرياض: دار الكوثر، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م.

سيدة إسماعيل كاشف .

- **مصر في عهد الإخشيديين** ، القاهرة : ١٩٥٠م

صالح الوشمي.

- **الآثار الاجتماعية والاقتصادية لطريق الحج العراقي على منطقة القصيم**. بيروت: ط١، مؤسسة الرسالة، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.

صبحي عبد المنعم محمد.

- **العلاقات بين مصر والحجاز زمن الفاطميين والأيوبيين**، القاهرة: العربي للنشر والتوزيع، (د. ت).

صفى علي محمد .

- **الحركة العلمية والأدبية في الفسطاط منذ الفتح العربي إلى نهاية الدولة الإخشيدية** , القاهرة:الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م .

عائشة بنت مانع العبدلي

- **إمارة الحج في عصر الدولة المملوكية وأثرها على الأوضاع الداخلية بمكة المكرمة (٦٤٨ - ٩٢٣هـ) دراسة تاريخية تحليلية**. مكة المكرمة: ط١، جامعة أم القرى، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م

عاتق بن غيث البلادي.

- **الإشراف على تاريخ الأشراف**. بيروت: ط١، دار النفائس، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.
- **بين مكة واليمن** . مكة المكرمة : ط١ , ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م
- **معالم مكة التاريخية والأثرية**. مكة المكرمة: ط٢، دار مكة ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
- **معجم معالم الحجاز**. مكة المكرمة: دار مكة ١٩٧٨ - ١٩٨٢م.

عارف عبد الغني.

- **تاريخ أمراء مكة المكرمة**. دمشق: ط١، دار البشائر، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

عاصم محمد رزق.

- **معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية** , القاهرة : ط١, مكتبة مدبولي ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

عبد الرحمن السعدي.

- **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**. قدم له ، محمد بن عثيمين. بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

عبد العزيز بن راشد السنيدي.

ـ **الحياة العلمية في مكة خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين**. الرياض: ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

ـ **مدينة فيد: دراسة في تاريخها السياسي والحضاري حتى نهاية العصر العباسي**. الرياض: ط١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

ـ **مكة خلال النصف الثاني من القرن الرابع الهجري كما وصفها المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، الرياض: ط١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

عبد العزيز محمد الحويطان.

ـ **أحكام الحرم المكي الشرعية**. الرياض: ط١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

عبد العزيز محمد الرفاعي.

ـ **الحج في الأدب العربي**. الرياض: ط٢، منشورات دار الرفاعي، ١٤٠٦هـ.

عبد العزيز بن محمد اللميلم.

ـ **نفوذ الأتراك في الخلافة العباسية وأثره في قيام مدينة سامراء (٢٢١ ـ ٢٧٩هـ)**، الرياض: ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

عبد اللطيف بن عبد الله بن دهيش.

ـ **الكتاتيب في الحرمين الشريفين وما حولهما**. مكة المكرمة: ط١، مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

ـ **المكتبات في مكة المكرمة، نشأتها وتطورها عبر العصور**. مكة المكرمة: جامعة أم القرى، ١٤٢٣هـ.

عبد الله محمد السيف.

- **الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي**. بيروت: ط٣، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

عبد المنعم ماجد.

- **السجلات المستنصرية**. القاهرة: دار الفكر العربي، (د. ت).

عبد المنعم النمر (دكتور)

- **المؤامرة على الكعبة من القرامطة إلى الخميني**. القاهرة: مكتبة التراث الإسلامي، ١٩٨٨م.

عطية القوصي.

- **تجارة مصر في البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية**، القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٧٦م.

علي حسين السليمان.

- **النشاط التجاري في شبه الجزيرة العربية أواخر العصور الوسطى**. القاهرة: ط١، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

غيثان بن علي بن جريس.

- **بحوث في التاريخ والحضارة الإسلامية**. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٤١٣هـ /١٩٩٣م.

- **دراسات في تاريخ تهامة والسراة خلال العصور الإسلامية المبكرة والوسيطة**, أبها : ط١ , ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

فؤاد حمزة .

- **قلب جزيرة العرب** . الرياض: ط٢, مكتبة النصر الحديثة ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

كلية الدعوة وأصول الدين (جامعة أم القرى).

- **البلد الحرام فضائل وأحكام**. مكة المكرمة: ط١، جامعة أم القرى، ١٤٢٤هـ.

محمد أمين الطويل .

- **تاريخ العلويين** , اللاذقية: ١٩٢٤م .

محمد جمال الدين سرور.

- **سياسة الفاطميين الخارجية**. القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٩٤م.

- **النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب** ، القاهرة : ط٢ ، ١٩٥٦م.

محمد حسن العمادي .

- **التجارة وطرقها في الجزيرة العربية بعد الإسلام حتى القرن ٤هـ** , إربد : مؤسسة حمادة للخدمات والدراسات الجامعية (د.ت).

محمد حمدي المناوي

- **الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي**. القاهرة: دار المعارف، (د. ت).

محمد رضا كحالة.

- **معجم قبائل العرب القديمة والحديثة**، بيروت: ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

محمد سالم شديد العوفي.

- **العلاقات السياسية بين الدولة الفاطمية والدولة العباسية في العصر السلجوقي (٤٤٧-٥٦٧هـ)**. الرياض: ط١، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

محمد علي مسفر عسيري.

- **الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في اليمن في العصر الأيوبي**. جدة: ط١، دار المدني، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

محمد لبيب البتنوني .

- **الرحلة الحجازية**. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، (د. ت)

مالك شبل .

- **معجم الرموز الإسلامية - شعائر , تصوف , حضارة** . نقله إلى العربية أنطوان إ. الهاشم , بيروت: ط١ , دار الجبل ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

ناصر بن علي الحارثي .

- **الآثار الإسلامية في مكة المكرمة** . الرياض : ط١ ، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م .

هاني ماجد فيروزي .

- **ملامح من تاريخ مكة المكرمة** ، بيروت : دار العلم ، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م

رابعاً : الرسائل العلمية غير المنشورة.

ابتسام السويلم.

- **الحياة الاقتصادية والاجتماعية في الحجاز من قيام الدولة العباسية حتى منتصف القرن الرابع الهجري**. " رسالة ماجستير ". كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

بندر محمد رشيد الهمزاني.

- **علاقات مكة المكرمة الخارجية في عهد أسرة الهواشم**. " رسالة ماجستير "، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى ١٤٠٩هـ.

خلود عبدالباقي البدنة.

- **الأسر العلمية في مكة وأثرها على الحياة العلمية والعملية في مكة خلال العصر المملوكي** . (رسالة ماجستير)، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، جامعة أم القرى، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م .

خيرية محمد آل سنة .

- **الحياة العلمية في مكة المكرمة خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين**. (رسالة ماجستير)، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، ١٤٢١هـ.

ذيبان هادي ذيبان .

- **مكة في عهد أبي الفتوح الحسني دراسة سياسية وحضارية (٣٨٤ ـ ٤٣٠هـ/٩٩٤ ـ ١٠٣٨م)**. (رسالة ماجستير)، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الملك عبد العزيز، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

سعاد إبراهيم الحسن.

- **النشاط التجاري في مكة المكرمة في العصر المملوكي(٦٤٨هـ ـ ٩٢٣م)**, (رسالة ماجستير) , مكة المكرمة: كلية الشريعة والدراسات الإسلامية , جامعة أم القرى , ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

صالح بن أحمد الضويحي.

- **الحياة الاقتصادية والاجتماعية في بلاد الحجاز في الفترة من ٤٠٢- ٥٥٧هـ**. (رسالة ماجستير)، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤٠٩هـ.

عائشة عبد الله عمر باقاسي.

- **مكة والمدينة من منتصف القرن الرابع الهجري حتى منتصف القرن السادس الهجري، دراسة تاريخية حضارية**. (رسالة دكتوراه)، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى ١٤١٤هـ.

عبد الله بن صالح الرقيبة .

- **الحج إلى مكة المكرمة : دراسة جغرافية لمنطقة الحج وأعداد الحجاج**. (رسالة ماجستير) ، كلية العلوم الاجتماعية ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ١٤٠٥هـ .

عطية طه إبراهيم .

- **الحياة الاقتصادية الاجتماعية في بلاد الحجاز من القرن الثالث حتى منتصف القرن السادس الهجري**. (رسالة دكتوراه)، كلية الآداب، جامعة القاهرة ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

علي بن حسن بن خميس.

- **الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الحجاز والبحرين منذ ٣٥٨ ـ ٥٦٧هـ/٩٦٨ ـ ١١٧١(دراسة مقارنة)**. (رسالة دكتوراه)، كلية الآداب، جامعة اليرموك، ٢٠٠٥م.

محمد عبد الله آل عمرو .

- **التعليم في الحجاز في العصر المملوكي** . (رسالة دكتوراه) ، كلية التربية ، جامعة أم القرى ، ١٤١٨هـ.

<u>خامساً</u>: الأبحاث والمقالات العلمية.

إلهام أحمد البابطين.

- **الإهداءات المنقولة إلى الكعبة المشرفة منذ ما قبل الإسلام حتى العهد السلجوقي**. المجلة العربية للعلوم الإنسانية، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، ع٨٩، س٢٣، ٢٠٠٥م.

جمال الدين محمد محمود

- **حماية الحرمين الشريفين وأحكام الشريعة والقواعد الدولية**. مؤتمر قدسية الحرمين الشريفين، نشر في كتاب قدسية الحرمين الشريفين الصادر من وحدة بحوث اللغات الإسلامية، القاهرة ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

سليمان بن صالح القرعاوي .

- **مكة المكرمة : إعجاز موقعها ، وحرمتها ، ومنزلتها ، وتوسعتها**. المجلة العلمية لجامعة الملك فيصل ، عدد خاص بمناسبة اختيار مكة المكرمة عاصمة للثقافة الإسلامية ، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م .

صالح بن أحمد العلي .

- **الألبسة العربية في القرن الأول الهجري** , بغداد: مجلة المجمع العلمي العراقي, ع١٣ , ١٣٨٥هـ/١٩٦٦م
- **المعالم العمرانية في مكة المكرمة في القرنين الأول والثاني** ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، م٤٠ ، ج٢ ، ١٤١٠هـ .

عبد الرحمن بن علي السنيدي.

- **أمن حركة الحج من المشرق الإسلامي إلى مكة المكرمة خلال العصور العباسية المتأخرة (٤٨٥ـ ٦٥٦هـ)**، الدارة، ع٣، س٣٢، ١٤٢٧هـ.

عبد العزيز بن راشد السنيدي.

- **أثر الأوضاع البيئية على الحياة الاجتماعية في مكة منذ بداية القرن السادس حتى نهاية القرن التاسع الهجري (دراسة تاريخية ـ حضارية)** ، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، ج ١٩ ، ع ٤٠ ، ربيع الأول ١٤٢٨ هـ .

- **المجاورون في مكة وأثرهم في الحياة العلمية خلال الفترة من (٥٧٠ - ٦٦٠هـ)**. مكة المكرمة: جامعة أم القرى، الندوة العلمية الكبرى بمناسبة اختيار مكة المكرمة عاصمة للثقافة الإسلامية لعام ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م. المحور الثالث، ج٢.

عبد الله أبو عزة.

- **القرامطة وقبائل الأعراب البادية**. مجلة المؤرخ العربي، اتحاد المؤرخين العرب، بغداد، ع٢٨، س١١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

على السيد محمود.

- **جدة إحدى مراكز التجارة**، مجلة الدارة، س٢٩، ع٤، ١٤٢٤هـ.

نعيم زكي فهمي .

- **طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى**. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٣م.

محتويات

الرسالــــة

محتويات الرسالة.

الفصل الثالث.

الآثار السياسية والاقتصادية.

الفصل الرابع.

الآثار الدينية والاجتماعية.